أيام الرشيد

"قصة العصر الذهبي للخلافة الإسلامية"

أحمد عبد الحافظ

دار البشير للثقافة والعلوم

أيام الرشيد "قصة العصر الذهبي للخلافة الإسلامية"

أحمد عبد الحافظ

التنسيق الداخلى والإخراج: إسلام الحماقي

إدارة البحوث والدراسات برؤية أكاديمي

رقم الإيداع: 2015/23168

ISBN : 978 - 977 - 278 - 506 - 3

الطبعة الأولى
2015

دار البشير
للنشر والتوزيع

ت: 01152806533
01012355714
darelbasheer@hotmail.com
darelbasheeralla@gmail.com

دار البشير للثقافة والعلوم

أيام الرشيد

"قصة العصر الذهبي للخلافة الإسلامية"

إهداء..

إلى هَارُون الرَّشِيد

الذِي تَرَكَ للأُمَّةِ تُرَاثًا لا يَمْحُوه الزَّمَان
وَصَنَعَ لأجْيالِ المُسلمِين مَجدًا
خَالِدًا عَلَى مَرِّ الأَيَّام...
وَفَاءً إليْك سَيِّدي مِقْدار حُبِّي لَك.

أبو الرُّمَيْسَاء

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا، والصلاة والسلام على المبعوث للناس بشيرًا ونذيرًا..

وبعد..

ربما لا يسعد إنسان بما يسعد يوم عرسه، زينةً وبهاءً وجمالًا، وهكذا بالنسبة لتاريخ أمتنا، كانت أيام الرشيد لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس، كانت أيام الرشيد كلها خير، كأنها من حسنها أعراس.

من أجل ذلك فأيام الرشيد هي واسطة العقد في الخلافة الإسلامية، التي بلغت فيها أوج قوتها حُكمًا وسياسةً وإدارةً واقتصادً وأدبًا وفكرًا وفلسفةً، عرفه الشرق والغرب، وطار لذكره واشتاق لسماع أخباره وسياسته من يقرأ التاريخ ومن لم تتفتح بعدُ عليه عيناه.

لقد بلغت سيرة هارون الرشيد من العظمة والتقدير عند علماء الإسلام ومؤرخيه، أن جعلوه واحدًا من مجددي الإسلام في مسيرته الحضارية والسياسية، وترسخ – عن حقٍّ – أن هارون الرشيد واحدٌ من عظماء التاريخ القلائل الذين هم فخر للإنسانية، جزاء ما قدموا لها حضارةً وتقدُّمًا.

كان هارون الرشيد أقوى ملوك زمانه قاطبة، ووصل ترف الأمة في حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد كبير، وكان في أيام الرشيد من كبار الرجال مَن تزدان بهم الممالك مِن رجال الإدارة والحرب، فعظمت الهيبة في الداخل والخارج، وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقي.

وأما عن دار السلام وعاصمة الخلافة بغداد – التي أبت عبر التاريخ أن تتسمى بغير اسمه – في أيامه وسط الدنيا وسرة الأرض والمدينة العظمى التي ليس لها

نظير في مشارق الأرض ومغاربها، فقد وصلت في عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها، من حيث العمارة والثروة، وكان يسكنها في أيامه أكثر من مليون ونصف إنسان، تتعالى فيها القصور، وتمر بها التجارة من أقصى الأرض إلى أقصاها، ويتهافت إليها طلاب العلم من كل البقاع، حتى صارت بغداد الرشيد هي الدنيا كلها مجتمعة، كما وصفها الإمام الشافعي رحمه الله.

لقد صار هارون الرشيد واحدًا من أشهر خلفاء المسلمين الذي تألقت دولة الإسلام في عهده في جميع المجالات الشرعية والأدبية والاقتصادية، وشهدت الدولة في عهده ثلة من علماء المسلمين ما لم يجتمع لغيره في علوم الشريعة والحياة.

في هذه الأوراق جلاءٌ عن كثير من الحقائق التاريخية والحضارية في أيام الرشيد، والتي ارتبطت في أذهان الكثير باللهو والغناء والقيان، غير أن الروايات الصحيحة في كتب التاريخ والأدب تنطق بالحق، الذي يزهق باطل تلك الروايات المزيفة، التي أرادوا أن يطعنوا بها تاريخ الأمة وحضارتها. فلم نرَ في كتب التاريخ والتراجم شخصية اختلطت فيها حقائق التاريخ بالخيال بمثل شخصية الرشيد، فهو في حكايات ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني - وما نحى نحوهما في القديم والحديث في روايات جورجي زيدان وأحمد أمين - مثال الخليفة اللاهي العابث المخمور، وقد تجسَّدت تلك الصورة المظلمة فيما نراه من أفلام ومسلسلات جعلت تلك الروايات مصدرها، وهي كذوب!

أما عن حقيقة هارون الرشيد وأيامه فهي تلك التي نطقت بها الروايات الصحيحة في أمهات كتب التاريخ والتراجم والأدب والمحاضرات، وقد عشت شهورًا بين تلك الروايات، فإذا هو سيد الملوك وأمير الخلفاء، الغازي الحاج، الفقيه الأديب. وقد بدت فيها صورة الرشيد كالجبل الأشمِّ، في علو مكانته وعظيم سيرته، فمن كانت حياته بين العلماء والفقهاء والعبَّاد، بين سنابك الخيل ورايات الجهاد، أبدًا، لا مجال عنده للهو والترف والمجون والخنا!!

وقد دعاني إلى التقلب في أيام الرشيد ما أعتقده أن معرفة الأمة لماضيها خير وسيلة لتصوير المستقبل، فالأمة التي لا تعرف تاريخها، لا تقدِّر مهمتها، ولا تعرف غايتها، ولا تشخِّص حاضرها، ولا تبني مستقبلها. ومن المسلَّم به أن تاريخ الأمة بناه الأفراد المبدعون، وقد حفل التاريخ الإسلامي بعد جيل الصحابة بالآلاف من الرجال الذين غيَّروا مسار التاريخ وصنعوا للإسلام حضارة سادت العالم قرونًا، وهارون الرشيد واحدٌ من أعظم العظماء الذين صنعوا مجدًا وحضارة وتاريخًا مجيدًا للأمة الإسلامية في تاريخها كله.

هذا، وإن دراسة أيام الرشيد سيرة ومسيرة دراسة عميقة وفق السنن الإلهية، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: 111]، تنير للأمة وحكامها الأسباب الحقيقية وراء تلك النهضة العلمية والحضارية التي شهدتها الأمة في عصره، عدلًا وجهادً وشريعةً وحضارةً ومدنيةً، وما أحوج أمتنا الآن أن تستحضر الرجال الذين صنعوا تاريخها وبنوا حضارتها، فما أشبه الليلة بالبارحة!

إن استلهام أيام الرشيد هي في الحقيقة دفاعٌ عن شرف الأمة وحضارتها، التي هي شرف رجالها الذين بنوا لها مجدها وعزها، كما قال العقاد: «آفة الشهرة تخلق السيئات كما تخلق الحسنات»، وقد طبقت شهرة الرشيد الخافقين، وبلغت الخلافة في عهده الذروة علمًا واقتصادً وقوةً، من أجل ذلك وجهت سهام التشويه والتزوير إلى الرشيد وأيامه. فما أحوج أمتنا أن تجلي الغبار عن حقيقة هذا الخليفة العظيم، الذي شوَّهه المستشرقون والمستغربون على حد سواء، فجعلوه في صورة الخليفة الماجن، الذي يقضي حياته بين النساء والخمر، وهي صورة مغلوطة بلا شك، أرادوا بها ضرب رمز من رموز الأمة، كان مصدر عزها في يوم من الأيام.

من أجل هذه الأسباب وغيرها نستحضر أيام الرشيد؛ لنظهر أوجه العظمة في خلافته، ولتكن رحلتنا جامعةً لأيامه الداخلية والخارجية، فبهما تكتمل الصورة

الحقيقية للخليفة العابد المجاهد.

وقد سميت الكتاب: «أيام الرشيد.. قصة العصر الذهبي للخلافة الإسلامية». قسَّمته إلى مقدمة وتمهيد وبابين، الباب الأول، مكوَّنٌ من تسعة فصول، والباب الثاني مكوَّنٌ من أربعة فصول، ثم خاتمة وملاحق وقائمة بأهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها ورجعت إليها.

أما المقدمة فقد أوضحت فيها أهمية الدراسة وضرورتها، وذكرت في التمهيد سطورًا سريعة من أيام الرشيد منذ ولادته ونشأته، وبعضًا من أخلاقه وشمائله، ووظائفه قبل الخلافة، ثم ولايته للعهد وبيعته لخلافة المسلمين حتى وفاته رحمه الله.

أما الباب الأول فجعلته خاصًّا بالسياسة الداخلية، تناولت في الفصل الأول الجوانب السياسية في عهد هارون الرشيد، من خلال ذكر ولاةِ عهده ووزرائِه وكتَّابه وكذلك حجَّابه. وأما الفصل الثاني فتناولت الجوانب الإدارية في سياسة الرشيد، فبيَّنت النظام الإداري في دولته، وأوضحت حدود الخلافة العباسية في عهده مع أشهر الولايات، وحدود كل ولاية، وأشهر ولاة الرشيد، والدواوين في عهد الرشيد. وأما الفصل الثالث عرضت فيه النظام الحربي في عهد هارون، مبينًا أحوال الجيش والشرطة، وأشهر القادة العسكريين في أيام الرشيد. وأما الفصل الرابع فعرضت فيه سياسة الرشيد ضد الثورات الداخلية، بتعدد توجهاتها وانتماءاتها، وخصصت الفصل الخامس حول النظام القضائي، من خلال استحداث منصب قاضي القضاة، وأشهر قضاة الرشيد، والحسبة وأهميتها، ووظيفة المحتسبين. وأما الفصل السادس فقد تناولت فيه السياسة الاقتصادية في أيام الرشيد، فشرحت طبيعة النظام المالي، وعرضت موارد بيت المال من الخراج والصدقات وخُمس الغنائم، ومبيِّنًا أحوال الزراعة، والصناعة، والتجارة الداخلية والخارجية، والاعتناء بموسم الحج وطرقه إلى مكة والمدينة. وجعلت الفصل السابع للحديث عن الحياة الاجتماعية، فبيَّنت عناصر المجتمع في عهده، من خلال سياسة الرشيد في تعامله مع العلويين والفرس، وكذلك البرامكة ونكبتهم. كما تناولت

طبقات المجتمع الثلاث العليا والوسطى والسفلى، وأهم ما يمِّيز كل منها، وأهم العادات والتقاليد السائدة في عصره. وفي الفصل الثامن تحدثت عن الحياة العلمية وإنشاء الرشيد بيت الحكمة وتقريبه للعلماء والفقهاء، واهتمامه بالترجمة والعلوم التجريبية وعلوم الحياة، وأشهر العلماء الشرعيين والتجريبيين في عهده، وأحوال الأدب في أيامه، وكذلك انتشار صناعة الورق والوراقين. وتناولت في الفصل التاسع مواقف خالدة للرشيد مع أشهر العلماء والفقهاء في عصره، كالإمام مالك والشافعي والقاضي عياض وقاضيه أبي يوسف وعبد الله بن المبارك رحمهم الله جميعًا.

أما الباب الثاني فخصصته للسياسة الخارجية في أيام الرشيد، عرضت في الفصل الأول سياسة الدولة العباسية عامة مع الإمبراطورية البيزنطية، ثم السياسة التي اتبعها الرشيد، وأشهر المعارك الحربية ضد البيزنطيين. وأما الفصل الثاني تناولت فيه سياسة هارون الرشيد مع الإمبراطورية الرومانية، فبدأت بتعريف سريع بها وملكها شارلمان، ثم سياسة الرشيد مع شارلمان، مفنِّدًا الشبهات المثارة حول طبيعة العلاقة بينهما. وخصصت الفصل الثالث حول سياسة هارون الرشيد مع بلاد الترك والهند والصين. وجعلت الفصل الرابع حول سياسة هارون الرشيد مع إمارات المغرب العربي، وطبيعة علاقة الرشيد مع إخوانه الأمويين في الأندلس، والرد على الشبهات المثارة في ذلك.

وفي الخاتمة ذكرت أهم ما نستنتجه من حياة الرشيد وسياسته، وأتبعت ذلك ببعض الملاحق المتصلة، ثم ختمت البحث بذكر أهم المصادر والمراجع والدوريات والمجلات والمقالات التاريخية.

وختامًا.. سيظل أمير المؤمنين هارون الرشيد صفحة مضيئة من تاريخ الأمة الإسلامية، لها فضلها الحضاري في التاريخ الإنساني كله، ولا نبالغ. وإني لا أزعم أني وفَّيت الرشيد حقَّه في هذه السطور، غير أن هذا جهد استطاعتنا.

والحمد لله أولًا وآخرًا

«كَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ سِيرَةً، وَأَكْثَرِهِمْ غَزْوًا وَحَجًّا بنفسِهِ. وَفَضَائِلُهُ، وَمَكَارِمُهُ، وَمَآثِرُهُ، وَأَشْعَارُهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا».

ابن كثير: البداية والنهاية (14/ 27 – 45)

تمهيد

سطور من حياة الرشيد

هو أبو جعفر هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي[1]. ينحدر نسبه إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ، وهو من ولد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن الذي قال فيه ﷺ: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[2].

ولد هارون الرشيد في الري بطبرستان في أواخر ذي الحجة 148هـ/ 765م في خلافة جده أبي جعفر المنصور وولاية أبيه محمد المهدي على خراسان وطبرستان[3].

(1) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 447. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 230. ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، 1/ 75. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 318. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 273. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 27. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، 4/ 225.

(2) أحمد بن حنبل: المسند، شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر، رقم (2397)، 3/ 95.

(3) هناك خلاف بين المؤرخين في تاريخ ولادة هارون الرشيد بين شهور شوال وذي الحجة والمحرم، وبين أعوام 145 و 146 و 147 و 148 و 149 و 150، وأنا أرجح أن مولده لثلاث بقين من ذي الحجة سنة 148هـ فالكل يكاد يجمع أنه توفي 193هـ عن عمر يناهز 45 عامًا فتكون ولادته 148هـ. وأما البرامكة فتدَّعي أن الرشيد ولد في المحرم سنة 150هـ وقيل في المحرم سنة 149هـ. وأن الفضل بْن يَحْيَى البرمكي ولد قبله بسبعة أيام، فجعلت أم الفضل ظئرا لَهُ، وهي زينب بْنت منير، فأرضعت الرشيد بلبان الفضل وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد. انظر الطبري: السابق نفسه. ابن الجوزي: السابق نفسه. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5 / 156، 5/ 273. أبو الفداء الملك المؤيد: المختصر في أخبار البشر، 2 / 12. ابن كثير: البداية والنهاية، 14 / 27 – 28.

أسرة الرشيد

ولد هارون الرشيد في بيت علمٍ وأدب، بين أحضان أسرة السؤدد والخلافة وعلو الشأن والجاه، أبوه أمير المؤمنين محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي الهاشمي (158هـ - 169هـ)، كان خليفة عادلًا، يجلس للمظالم وبين يديه القضاة، فيزيل عنهم مظالمهم، ميَّالا للسنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله ﷺ، وكان شهمًا فطنًا كريمًا شديدًا على أهل الإلحاد والزَّندقة، وهو من أقام البريد بين المدينة المنورة ومكة واليمن بغالًا وإبلًا، ولم يقم هناك بريد قبل ذلك[1].

وأمه هي أم ولد الخيزران بنت عطاء الجرشية اليمنية، وهي أم أخيه موسى الهادي، وهي أم الخلفاء، محمودة السيرة ميمونة النقيبة، وفيها يقول أبو المعافي:

يَا خَيزُران هناكِ ثمَّ هُنَاكِ   أمسَى العبادُ يسوسهم أبناك

وكانت عاقلة لبيبة ديِّنة، كان دخلها في السنة ستة آلاف وستين ألف ألف درهم، فكانت تنفقها في الصدقات وأبواب البر[2].

وأما أخوه من أبيه وأمه فهو أمير المؤمنين موسى الهادي، وقد كان متيقِّظا غيورًا، كريمًا شهمًا أيِّدا، شديد البطش جريء القلب مجتمع الحسِّ، ذا إقدام وعزم وحزم، ملك بعد أبيه المهدي (169هـ - 170هـ)، وكان شديد الوطأة على الزنادقة والملاحدة مثل أبيه. وكان شجاعًا قويًا، روي أنه كان يثب على الدابة وعليه

(1) للاستزادة من أخبار الخليفة المهدي رحمه الله انظر: ابن حبيب: المحبر، 1/ 436. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 108. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، رقم (937)، 3/ 382. السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 201. الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص102.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، رقم (7299)، 16/ 9 - 10. ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، 1/ 194. الصفدي: الوافي بالوفيات، 27/ 118. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9 / 286 - 287. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، 27/ 6. ابن تغري بردي: مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، 1/ 132.

درعان، ولم تطل مدته في الخلافة حتى يكون له في أحوال الأمة أثر ظاهر[1].

وأما عن أخواته من النساء، فله: عليَّة بنت المهدي (160هـ - 210هـ)، كانت من أحسن خلق الله وجهًا، وأظرف النساء وأعقلهن، ذات صيانة وأدب بارع، تزوجها موسى بن عيسى العباسي، وكان الرشيد يبالغ في إكرامها واحترامها، ولها ديوان شعر، وكانت من أعف الناس، كانت إذا طَهُرت لازمت المحراب، وإذا لم تكن طاهرة غنَّت، وكان الرشيد لا يصبر عن غيابها، وكانت تدخل على الرشيد فيكرمها ويأمرها بالجلوس معه على سريره فتأبى. وكانت تقول: "ما حرم الله شيئًا إلا وقد جعل فيما أحل عوضًا منه، فبماذا يحتج العاصي؟..، اللَّهم لا تغفر لي حرامًا أتيته ولا عزمًا على حرام عزمته، ولا استفزعني لهوٌ إلا ذكرت نسبي من رسول الله ﷺ فقصرت عنه، ولا أقول ما أقول في شعري إلا عبثًا"[2].

وله أخته العبَّاسة بنت المهدي، تزوجها محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس سنة 172هـ، وهي أول بنت خليفة من بني هاشم نقلت من بلد إلى بلد، نقلها إلى البصرة، فتوفي عنها، وخلف عليها إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس والي الرشيد على مصر وفلسطين، وتوفي عنها، ثم أراد عيسى بن جعفر العباسي أن يخطبها فلم يتم ذلك، وكانت العباسة بارعة الجمال، وكان الرشيد يحبها ولا يكاد يفارقها، وتوفيت سنة 182هـ[3]. وهي من افترى عليها المفترون بالفاحشة مع جعفر البرمكي، وادَّعوا أن ذلك سبب نكبة البرامكة، وقد أرادوا بذلك

---

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 187. ابن حبيب: المحبر، 1/ 445. ابن قتيبة الدينوري: المعارف، 1/ 380. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 187. المسعودي: التنبيه والإشراف، 1/ 297.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 10/ 230 - 233. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 10/ 187 - 188. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، 3/ 123 - 126.

(3) ابن حبيب: المحبر، ص61. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 8/ 343، الصفدي: الوافي بالوفيات، 16/ 382 - 383.

أن يحطُّوا من مروءة الرشيد وعرضه، وهي منها براء.

وأما عن صفة الرشيد فقد كان رحمه الله تام الخلقة، أبيض، طويلًا، جميلًا، مليحًا، مُسمَّنًا، فصيحًا، جعدًا، قَد وَخَطَهُ الشَّيبُ[1].

زواجه وأولاده

تزوج هارون الرشيد من ابنة عمه أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور سنة 165هـ[2]، وأنجبت له ولده محمد الأمين في 16 شوال 170هـ، كما تزوج العبَّاسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر المنصور سنة 187هـ. وتزوج عدة نساء أخريات، وتوفي عن أربع منهن.

كما كانت له عدة جوار أنجبن له عدة أولاد منهم: عبد الله المأمون، وأمه اسمها مراجل، وهو أكبر أولاد الرشيد، إذ ولد المأمون ليلة بويع الرشيد بالخلافة يوم 14 ربيع الأول 170هـ، وبذا يكون أكبر من الأمين بستة أشهر. ومنهم محمد المعتصم، وأمه اسمها ماردة، ومنهم القاسم المؤتمن، وأمه اسمها قصف. وكان الرشيد يكنى بأبي موسى ثم عرف بأبي جعفر، وله كذلك من الجواري محمد وعلي وصالح، من أمهات أولاد. وله من البنات: سكينة وأمها قصف وهي أخت القاسم، وأم حبيب وأمها ماردة وهي أخت المعتصم، وأم محمد وهي حمدونة، وغيرهن من أمهات أولاد[3].

(1) البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 9. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1223.

(2) زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور الهاشمية العباسية (توفيت ببغداد سنة 216هـ)، زوج الرشيد وأحب الناس إليه في زمانها وأم ولده الأمين، وقيل: لم تلد عباسية خليفة إلا هي. وكان لها حُرْمة عظيمة وبرّ وصَدَقات، وآثار حميدة في طريق الحج، وإليها تنسب عين زبيدة. والمنصور جدُّها هو الذي لقّبها زُبَيدة لجمالها ونضارتها. ومن أخبارها أنّها أنفقت في حجتها بضعةً وخمسين ألف ألف درهم. وقيل: كان في قصرها من الأموال والحَشَم والخَدَم والآلات ما يقصُر عنه الوصف، من جُملة ذلك مائة جارية، كلٌّ منهنّ تحفظ القرآن، فكان يُسمع من قصرها كَدَوِيِّ النَّحْلِ من القراءة. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2/ 314 – 317. الذهبي: تاريخ الإسلام، 5/ 314. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 203.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 359 – 360. وقد ذكر الطبري أن للرشيد تسعة من الأولاد اسمهم: «محمد» أعظمهم اسماً محمد الأمين. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 48 – 49.

نشأة الرشيد وتعليمه

نشأ الرشيد في بيت المُلك والخلافة، وكان لذلك عظيم الأثر في تكوينه الشخصي والعقلي وطبيعته النفسية؛ حيث تربى تربية مترفة، وأُعِدَّ للمناصب القيادية في دولة أبيه وأجداده. فقد اهتم الخلفاء والأمراء العباسيّون بتعليم أولادهم ورعايتهم، فلم يترك خليفة بنيه إلا وقد عيَّن لهم أجلاء العلماء في الأدب والنحو واللغة والفقه، وغير ذلك من العلوم. ومنذ أن صار هارون فتيًّا عيَّن له أبوه المهدي مدرسًا يلازمه ويلقِّنه العلم، وبقي هذا المدرِّس بجانبه لم يفارقه حتى مات، وهو أبو الحسن علي بن حمزة الأسدي المعروف بالكسائي النحوي رحمه الله.

والكسائي هو إمام في اللغة والنحو، وقرأ القرآن على حمزة الزيات أربع مرات، واختار لنفسه قراءة هي إحدى القراءات السبع، وتعلم النحو على كبر سنه، ومن أجل ذلك حفظ له هارون الرشيد منزلته ومكانته حتى عهد له ولده الأمين يربيه ويفقهه، وكان الرشيد يعظِّمه، وفي ذلك يقول الجاحظ: "كان أثيرًا عند الخليفة، حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء والمؤانسين"[1].

وممن كان يشرف على تأديب الرشيد وتعليمه كذلك المفضَّل الضبِّي، وكان أحد الأئمة الفضلاء الثقات، وكان علامة في النسب وأيام العرب، راويةً للأدب والأخبار، موثّقا في روايته[2]. كذلك أخذ الرشيد علوم الفقه والحديث عن الإمام مالك بن أنس[3].

لقد استطاع المهدي أن يوكل تعليم هارون الرشيد إلى مؤدبين عديدين

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 13/ 348 - 349. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ترجمة رقم (753)، 4/ 1738. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجلُّ ملوك الدنيا، ص 17.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 340. القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، 3/ 298. . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 69.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 63 - 64.

تخصَّص كل واحد منهم في فرع من فروع المعرفة، وقد كان للكسائي اليد الطولى على جميعهم، وكان من مشاهير المفكرين في عصره، وأما متولِّي أموره وأعماله فهو يحيى البرمكي الذي كان هارون يدعوه: "أبتي"، وسيظل ملازمًا لهارون إلى أن يُنكب البرامكة[1].

وهكذا نشأ هارون وترعرع وشبَّ في ظروف ملائمة كل الملائمة لاستكمال مزاياه الشخصية، كان لهؤلاء العلماء الأجلاء أثر واضح في تربيته وتكوينه الثقافي والعلمي وذوقه الحضاري، مما انعكس إيجابًا في فترة حكمه، التي شهدت تقدمًا حضاريًا في شتى المجالات عامة والأدبية منها خاصة.

أخلاق الرشيد وشمائله

تتراءى لنا صورة الرشيد وشمائله من قول ابن خلدون: "فحاشا لله ما علمنا عليه من سوء، وأين هذا من حال الرَّشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السماك والعمري، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصُّبح لأوَّل وقتها"[2]. من هنا تتضح لنا صورة هارون الرشيد الحقيقية، أنها صورة الخليفة العالم العابد الزاهد المجاهد، وليست صورة الخليفة الماجن الذي يعاقر الخمر، ويجاري القيان، ويجلس لأرباب الغناء والموسيقى.

والمتأمل في كتب الأولين في تعرضهم لترجمة الرشيد يلحظ أنهم أجمعوا على تقديم خمس من صفاته، فنجد:

---

(1) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص 52 – 53. بتصرف.

(2) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 1/ 304. ولعل ابن خلدون يقصد بقوله: «ومكاتبته سفيان الثوري» سفيان بن عيينة؛ لأن سفيان الثوري مات سنة 161هـ، أي قبل خلافة الرشيد، ومعلوم أن الرشيد كانت بينه وبين سفيان بن عيينة (ت: 198هـ) مكاتبات ومحاورات.

الأولى: أنه يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا، إلا أن تعرض له علة.

الثانية: أنه كان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته.

الثالثة: أنه كان إذا حج، حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم، وإذا لم يحج، أحج ثلاثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة.

الرابعة: أنه كان يغزو عامًا ويحج عامًا. واتخذ قلنسوة مكتوب عليها: غاز حاج، وفيه يقول ابن أبي السعلى:

فَمَنْ يَطْلُبْ لِقَاءَكَ أَوْ يُرِدْهُ　　　فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ

الخامسة: أنه كان سخي اليد كريم العطاء، أسنى الناس عطية ابتداءً وسؤالًا، وكان لا يضيع عنده يد ولا عارفة، وكان لا يؤخر عطاءه، ولا يمنعه عطاء اليوم من عطاء غد[1].

ومن أجمل ما قرأت في وصف هارون الرشيد ما ذكره الإمام الماوردي في نصيحة الملوك، قوله: "وكان هارون الرشيد متدينًا شديد التعصب للإسلام والديانة، ظاهر الشهامة جلدًا في السياسة والحماية، ذابًا عن أركان الملة، كمشًا (الرجل السريع الجادُّ في أمره) في الدعوة، غزا الروم غير مرة بنفسه، وكتب إلى عظماء الكفرة بتهديده ووعيده، وحج إلى بيت الله ماشيًا وراكبًا، وقلَّ ما كان يخلو من غزوة أو حجة،.. وكان مولعًا بالفقهاء، مقرِّبًا للعلماء، مهتمًا بأمر دينه، حتى كان يوصف بالتقوى والخشية، فقال فيه أبو نواس:

إِمامٌ يخافُ الله حتى كأنّما　　　يَرَاهُ من التَّقْوَى صَباحَ مَسَاء"[2]

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 10 - 11. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 347. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 325 - 326. ابن عساكر: تاريخ دمشق، 73/ 287 - 288. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 392 - 393.

(2) الماوردي: نصيحة الملوك، ص81 - 82.

وذكر السيوطي في تاريخه أن أبا العتاهية قال لأبي نواس: البيت الذي مدحتَ به الرشيد، لودِدْتُ أني كنت سبقتك به إليه:

قد كنتُ خِفتُك ثم أمَّنَنِي مِنْ أن أخافَك خوفُك الله(1)

وكان الرشيد رحمه الله كثير البكاء من خشية الله تعالى، سريع الدمعة عند الذكر، محبًّا للمواعظ، قال عن ذلك منصور بن عمَّار: "ما رأيت أغزر دمعًا عند الذِّكر من ثلاثة: فضيل بن عياض، وأبي عبد الرحمن الزاهد، وهارون الرشيد". وقد وعظه الفضيل بن عياض والشافعي وسفيان بن عيينة وابن السماك، والعمري والبهلول، وغيرهم، وكان يتقبل الموعظة ويكثر البكاء(2).

وقد حكي عن الرشيد في حجَّاته مواقف جليلة، ظهر فيها بكاؤه وعظيم خشيته من الله، وشدة ورعه وزهده وتواضعه، من ذلك ما حكاه إبراهيم بن عبد الله الخرساني، قال: "حججْت مَعَ أبي سنة حج الرشيد، فَإِذا نَحن بالرشيد وَهُوَ وَاقِف حاسر حاف على الْحَصْبَاء، وَقد رفع يَدَيْهِ وَهُوَ يرتعد ويبكي وَيَقُول: "يَا رب! أَنْت أَنْت، وَأَنا أَنا، أَنا العوَّاد إِلَى الذَّنب، وَأَنت العوَّاد إِلَى الْمَغْفِرَة، اغْفِر لي". فَقَالَ لي: "يَا بني! انْظُر إِلَى جَبَّار الأَرْض كَيفَ يتَضَرَّع إِلَى جَبَّار السَّمَاء"(3).

وفي رواية أن الرشيد رحمه الله كان يقف حول البيت وينادي: يارب! أنت أنت، وأنا أنا! أنت العزيز وأنا الذليل!، فقال سفيان البلخي لولده: من هذا؟ فقال: يا أبتِ هذا جبار الأرض يتضرع لجبار السماء(4).

وروي أن الرشيد حج مرة، فدخل الكعبة وقام على أصابعه، وقال: "يا من

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 217 – 218.
(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 328. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 2/ 433 – 434.
(3) أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، 1/ 217 – 218.
(4) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الخامس (الدرر السنية في أخبار الدولة العباسية)، 5/ 125.

يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين، فإنّ لكلّ مسألة منك ردّا حاضرًا وجوابًا عتيدًا، ولكلّ صامت منك علم محيط باطن بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة، صلّ على محمد وآله، واغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيئاتنا، يا من لا تضرّه الذنوب، ولا تخفى عليه العيوب، ولا تنقصه مغفرة الخطايا. يا من خشعت له الأصوات بألوان اللغات، يسألونك الحاجات، إنّ من حاجتي إليك أن تغفر لي إذا توفّيتني وصرت في لحدي، وتفرّق عنّي أهلي وولدي. اللهم لك الحمد حمدًا يفضل كلّ حمد كفضلك على جميع الخلق. اللهم صلّ على محمّد صلاة تكون له رضى، وصل على محمد صلاة تكون له حرزًا، واجزه عنا الجزاء الأوفى. اللهم أحينا سعداء وتوفَّنا شهداء، واجعلنا سعداء مرزوقين ولا تجعلنا أشقياء محرومين"[1].

وكان الرشيد يقرِّب العلماء والفقهاء ويقبل بنصيحتهم وينزل عن رأيهم، وكان يتقبل الموعظة ويكثر البكاء، دخل عليه ابن السماك الواعظ يومًا، فقال له: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ تَمُوتُ وَحْدَكَ، وَتُقْبَرُ وَحْدَكَ، فَاحْذَرِ الْمُقَامَ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ، وَالْوُقُوفَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حِينَ يُؤْخَذُ بِالْكَظَمِ، وَتَزِلُّ الْقَدَمُ، وَيَقَعُ النَّدَمُ، فَلَا تَوْبَةَ تُنَالُ، وَلَا عَثْرَةَ تُقَالُ، وَلَا يُقْبَلُ فِدَاءٌ بِمَالٍ"، فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: "يا ابن السماك لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة"، فقام هارون الرشيد فخرج من عنده وهو يبكي. وقال له مرة: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ لَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ مَوْقِفًا، فَانْظُرْ أَيْنَ مُنْصَرَفُكَ: إِلَى الْجَنَّةِ أَمْ إِلَى النَّارِ؟"، فبكى الرشيد حتى كاد أن يموت.

واستسقى الرشيد يومًا وابن السماك جالسٌ عنده، فأُتي بقلة فيها ماء مبرَّد، فقال لابن السماك عظني، فقال: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِكُمْ كُنْتَ مُشْتَرِيًا هَذِهِ الشَّرْبَةَ لَوْ مُنِعْتَهَا؟" فقال: "بِنِصْفِ مُلْكِي". فقال: "اشْرَبْ هَنِيئًا". فلما شرب، قال: "أَرَأَيْتَ لَوْ مُنِعْتَ خُرُوجَهَا مِنْ بَدَنِكَ، بِكَمْ كُنْتَ تَشْتَرِي ذَلِكَ؟" قال: "بِمُلْكِي كُلِّهِ". فقال:

(1) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 4/ 19 – 20.

"إِنَّ مُلْكًا قِيمَتُهُ شَرْبَةُ مَاءٍ لَخَلِيقٌ أَنْ لَا يُتَنَافَسَ فِيهِ". فبكى هارون[1].

وذكر ابن الجوزي أن الرشيد قال لشَيبان الواعظ: عِظْني. قال: لأن تصحب مَن يخوّفك حتى يدركك الأمنُ، خيرٌ لك من أن تَصْحَب من يؤمّنك حتّى يُدركك الخوف. قال الرشيد: فسِّر لي هذا ؟ قال: من يقول لك أنت مسئول عَن الرعيّة فاتّق اللَّه، أنصَح لك ممَّن يقول: أنتم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم، وأنتم قرابة نبيّكم. فبكى الرشيد حتى رحمه مَن حوله[2]. وقال أبو معاوية الضرير: "ما ذكرت النبي ﷺ بين يدي الرشيد إلا قال: صلى الله على سيدي، وحدَّثته بحديثه ﷺ: "وَدِدْتُ أَنْ أُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلَ"، فبكى هارون حتى انتحب[3].

وروي عن الأصمعي قال: دخلت على الرشيد ودموعه تنحدر على خدَّيه، وهو ينظر في كتاب، فظللت قائمًا حتى سكن، فحانت منه التفاتة فقال: اجلس يا أصمعي. فجلست، فقال: أرأيت ما كان؟ فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين. فقال: أما إنه لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا، ثمّ رمى بالقرطاس إليّ، فإذا فيه شعر لأبي العتاهية بخطٍّ جليل:

هَلْ أَنْتَ مُعْتَبِرٌ بِمَنْ خَرِبَتْ ... مِنْهُ غَدَاةَ قَضَى دَسَاكِرُهُ
وَبِمَنْ أَذَلَّ الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ ... فَتَبَرَّأَتْ مِنْهُ عَسَاكِرُهُ
أَيْنَ الْمُلُوكُ وَأَيْنَ عِزُّهُمْ ... صَارُوا مَصِيرًا أَنْتَ صَائِرُهُ
يَا مُؤْثِرَ الدُّنْيَا لِلَذَّتِهِ ... وَالْمُسْتَعِدُّ لِمَنْ يُفَاخِرُهُ
نَلْ مَا بَدَا لَك أَنْ تَنَالَ مِنْ الدُّ ... نْيَا فَإِنَّ الْمَوْتَ آخِرُهُ

فقال الرشيد رحمه الله: والله لِكَأَنِّي أُخَاطَبُ بهذا الشعر دون الناس. فلم يلبث

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 623، 14/ 33، 37.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 18/ 250.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 11.

بعد ذلك إلا يسيرًا حتى مات[1].

وكان هارون الرشيد شديد الغيرة على الدين ولم يحابي فيها أحدًا من أقاربه حتى عمه، الذي كاد أن يبطش به، روى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده أن أبا معاوية الضرير دخل على الرشيد وعنده عمه عليٌّ، فجرى الحديث إلى أن خرج أبو معاوية إلى حديث الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن موسى لقي آدم، فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا من الجنة؟». وذكر الحديث، فقال عليٌّ عم الرشيد: «أين لقي آدم موسى؟»، قال: فغضب الرشيد، وقال: «النطع والسيف زنديق والله، يطعن في حديث رسول الله ﷺ»، قال: فما زال أبو معاوية يُسَكِّنه، ويقول: «كانت منه بادرة، ولَم يفهم يا أمير المؤمنين، حتى سكَّنه»[2].

وكان الرشيد شديد البطش بأهل البدع والأهواء والزنادقة كأبيه وجدِّه، ويحتسب ذلك قربة إلى الله تعالى، فقد جيء إليه برجل يقول بخلق القرآن فضرب عنقه، ثم قال: «قتلته؛ لأنه قال القرآن مخلوق، فقتله على ذلك قربة إلى الله عز وجل». وكان رحمه الله شديد الحب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قال أبو بكر بن عياش: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، انْظُرْ هؤلاء الذين يحبون أبا بكر وعمر ويقدمونهما فأكرمهم بعز سلطانك»، فقال الرشيد: «أو لستُ كَذَلِكَ؟ أَنَا وَاللَّهِ كَذَلِكَ أُحِبُّهُمَا وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُمَا، وَأُعَاقِبُ مَنْ يُبْغِضُهُمَا».

وروى الطبري أن الرشيد سأل أحد ولاته عن سيرته بين رعيته، بقوله: كيف تركت الناس؟ فقال: «يا أمير المؤمنين، أحسنتُ فيهم السيرة وأنسيتُهم سيرة العمرين». فغضب الرشيد واستشاط، وقال: «يا بن اللخناء، العمرين، العمرين، العمرين! هبنا احتملناها لعمر بن عبد العزيز، نحتملها لعمر بن الخطاب!».

وكان الرشيد يخشى الفقر، مع أنه كان يملك الدنيا وما فيها، إلا أنه رحمه الله

(1) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص116 – 117.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 3/ 135. 16/ 11 – 12.

علم حقيقة الدنيا وأنها فانية ولن تغني عنه شيئًا، قال ابن قتيبة: «حدَّثنا الرياشي سمعت الأصمعي، يقول: «دَخَلْتُ عَلَى الرَّشِيدِ وَهُوَ يُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ»، فقلت له في ذلك، فقال: «أَخْذُ الْأَظْفَارِ يَوْمَ الْخَمِيسِ مِنَ السُّنَّةِ، وَبَلَغَنِي أَنَّ أَخْذَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَنْفِي الْفَقْرَ»، فقلت: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَ تَخْشَى الْفَقْرَ؟ فَقَالَ: «يَا أَصْمَعِيُّ وَهَلْ أَحَدٌ أَخْشَى لِلْفَقْرِ مِنِّي؟»»(1).

وكان الرشيد عالمًا فقيهًا متدينًا، عرض له رجل من النُّساك، فقال: يا هارون، اتق الله، وأغلظ له في القول، فأمر الرشيد أن يُطعم الرجل من خاص طعامه، فلمَّا أكل وشرب دعا به، فقال الرشيد: يا هذا، أنصفني في المخاطبة والمسألة، قال: ذاك أقل ما يجب لك، قال: فأخبرني: أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون؟ قال: بل فرعون، قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، قال الرشيد: صدقت، فأخبرني فمَن خير؟ أنت أم موسى بن عمران؟ قال: موسى كليم الله وصفيه، اصطنعه لنفسه، وَاْئتمنه على وحيه، وكلمه من بين خلقه، قال الرشيد: صدقت، أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه إلى فرعون قال لهما: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يكنياه، وهذا وهو في عتوِّه وجبروته، على ما قد علمت، وأنت جئتني وأنا بهذه الحالة التي تعلم، أؤدي أكثر فرائض الله عليَّ، ولا أعبد أحدا سواه، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه، فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأشنعها وأخشن الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدَّبت، ولا بأخلاق الصالحين أخذت، فما كان يؤمنك أن أسطو بك! فإذا أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنيًا.

قال الزاهد: أخطأت يا أمير المؤمنين، وأنا أستغفرك، قال الرشيد: قد غفر لك الله. وأمر له بعشرين ألف درهم، فأبى أن يأخذها، فقال له الرشيد: لم نعطك هذا المال لحاجتك إليه، ولكن من عادتنا أنه لا يخاطب الخليفة أحد ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصله ومنحه، فاقبل من صلتنا ما شئت، وضعها حيث أحببت. فأخذ

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 353 – 354. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 32.

الرجل من المال ألفي درهم، وفرَّقها على الحجَّاب ومن حضر الباب[1].

وكان الرشيد يعظِّم السنَّة واقتفاء أثر النبي ﷺ في جمع أحواله، حتى في ابتداء مجلسه وانتهائه، فكان الرشيد إذا قال: سبحانك اللهم وبحمدك! قام سُمَّاره[2]. كما كان يعظّم حرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين، والكلام في معارضة النص، وبلغه عن بشر المريسي القول بخلق القرآن، فقال: «لئن ظفرت به لأضربنَّ عنقه»[3]. كما أمر بحبس ثمامة بن أشرس البصري المتكلِّم، وكان من رؤوس المعتزلة القائلين بخلق القرآن[4].

وكان هارون الرشيد يكره التبذير والإسراف عكس ما أشاعوا عنه، وهو منهما براء، روى ابن عساكر عن إبراهيم الْمَهْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ يَوْمًا عِنْدَ الرَّشِيدِ فَدَعَا طَبَّاخَهُ فَقَالَ: أَعِنْدَكَ فِي الطَّعَامِ لَحْمُ جَزُورٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَلْوَانٌ مِنْهُ. فَقَالَ: أَحْضِرْهُ مَعَ الطَّعَامِ فَلَمَّا وُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَخَذَ لُقْمَةً مِنْهُ فَوَضَعَهَا فِي فِيهِ فَضَحِكَ جَعْفَرٌ الْبَرْمَكِيُّ، فَتَرَكَ الرَّشِيدُ مَضْغَ اللُّقْمَةِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: مم تضحك؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين، ذكرت كلامًا بيني وبين جاريتي البارحة، فقال له: بحقي عليك لما أخبرتني به، فقال: حَتَّى تَأْكُلَ هَذِهِ اللُّقْمَةَ، فَأَلْقَاهَا مِنْ فِيهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَتُخْبِرَنِّي، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، بِكَمْ تَقُولُ إِنَّ هَذَا الطَّعَامَ مِنْ لَحْمِ الْجَزُورِ يُقَوَّمُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ. قَالَ: لَا وَاللَّهِ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ. قَالَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِنَّكَ طلبت من طباخك لَحْمَ جَزُورٍ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ فَلَمْ يُوجَدْ عِنْدَهُ، فَقُلْتُ: لَا يَخْلُوَنَّ الْمَطْبَخُ مِنْ لَحْمِ جَزُورٍ، فَنَحْنُ نَنْحَرُ كُلَّ يَوْمٍ جزور لأجل مطبخ أمير المؤمنين؛ لأنَّا لا نشتري من السوق لحم جزور. فَصُرِفَ فِي لَحْمِ الْجَزُورِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ أَرْبَعُمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَلَمْ يطلب أمير المؤمنين لحم جزور

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 358 - 359.

(2) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص119.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص210.

(4) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 8/ 20.

إلا هذا الْيَوْمَ.

قَالَ جَعْفَرٌ: فَضَحِكْتُ؛ لِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا نَالَهُ مِنْ ذَلِكَ هَذِهِ اللُّقْمَةُ. فَهِيَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ. قَالَ: فَبَكَى الرشيد بكاء شديدًا وأمر برفع السماط من بين يديه، وَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُوَبِّخُهَا وَيَقُولُ: هَلَكْتَ وَاللَّهِ يا هارون. وَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى آذَنَهُ الْمُؤَذِّنُونَ بِصَلَاةِ الظُّهْرِ، فَخَرَجَ فَصَلَّى بِالنَّاسِ ثُمَّ رَجَعَ يَبْكِي حتى آذنه المؤذنون بصلاة العصر، وَقَدْ أَمَرَ بِأَلْفَيْ أَلْفٍ تُصْرَفُ إِلَى فُقَرَاءِ الْحَرَمَيْنِ فِي كُلِّ حَرَمٍ أَلْفُ أَلْفٍ صَدَقَةً، وَأَمَرَ بِأَلْفَيْ أَلْفٍ يَتَصَدَّقُ بِهَا فِي جَانِبَيْ بَغْدَادَ الْغَرْبِيِّ وَالشَّرْقِيِّ، وَبِأَلْفِ أَلْفٍ يُتَصَدَّقُ بِهَا على فقراء الكوفة والبصرة، ثم خرج إلى صلاة الْعَصْرِ، ثُمَّ رَجَعَ يَبْكِي حَتَّى صَلَّى الْمَغْرِبَ، ثُمَّ رَجَعَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو يُوسُفَ الْقَاضِي فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَاكِيًا فِي هَذَا الْيَوْمِ؟ فَذَكَرَ أَمْرَهُ وَمَا صَرَفَ مِنَ الْمَالِ الْجَزِيلِ لِأَجْلِ شَهْوَتِهِ، وَإِنَّمَا نَالَهُ مِنْهَا لُقْمَةٌ.

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِجَعْفَرٍ: هَلْ كان ما تذبحونه مِنَ الْجَزُورِ يَفْسُدُ، أَوْ يَأْكُلُهُ النَّاسُ؟ قَالَ: بَلْ يَأْكُلُهُ النَّاسُ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِيمَا صَرَفْتَهُ مِنَ الْمَالِ الَّذِي أَكَلَهُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْأَيَّامِ الْمَاضِيَةِ، وَبِمَا يسره الله عليك من الصدقة، وَبِمَا رَزَقَكَ اللَّهُ مِنْ خَشْيَتِهِ وَخَوْفِهِ فِي هذا اليوم، وقد قال تَعَالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [**الرحمن**: 46]، فَأَمَرَ لَهُ الرَّشِيدُ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ اسْتَدْعَى بطعام فأكل منه فكان غداؤه في هذا الْيَوْمِ عَشَاءً[1].

ومع ما كان في الرشيد من الجدِّ والحزم، فكان كذلك يحب الضحك والمزاح فيما لا كذب فيه ولا استهانة بشرائع الإسلام، ومن أجل ذلك اتخذ له نديمًا يضحكه ويمزح معه، وهو «ابن أبي مريم المدِينِيُّ أو المدَنِيُّ»، كان مضحاكا فَكِهًا، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته، وكان ممَّن قد جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجان، وبلغ من خاصته بالرشيد أن

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 33 - 35.

بوأه منزلا في قصره، وخلطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه، فجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر، وقام الرشيد إلى الصلاة فألفاه نائما، فكشف اللحاف عن ظهره، ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملك، قال الرشيد: ويلك! قم إلى الصلاة، قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي.

فمضى وتركه نائما، وتأهب الرشيد للصلاة، فجاء غلامه فقال: أمير المؤمنين، قد قام إلى الصلاة. فقام فألقى عليه ثيابه، ومضى نحوه، فإذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: 22] فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله! فما تمالك الرشيد أن ضحك في صلاته، ثم التفت إليه وهو كالمغضب، فقال: يا ابن أبي مريم، في الصلاة أيضًا! قال: يا هذا وما صنعت؟ قال: قطعت عليَّ صلاتي، قال: والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاما غمَّني حين قلت: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: 22] فقلت: لا أدري والله! فعاد فضحك، وقال الرشيد: إياك والقرآن والدين، ولك ما شئت بعدهما[1].

ومازح الرشيد زوجته أم جعفر زبيدة، فقال لها: كيف أصبحت يا أم نهر؟، فاغتمت لذلك ولم تفهم معناه، فأنفذت إلى الأصمعيِّ تسأله عن ذلك، وقالت: إن أمير المؤمنين استدعاني، وقال: هلمي يا أم نهر، فما معنى ذلك؟، فقال لها: إن جعفرًا في اللغة هو النهر الصغير وأنت أم جعفر. فطابت نفسها[2].

ولم يُظهر خليفة- من قبل أو بعد - ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاط في مختلف حركاته، سواء أكانت في الحج أو الغزو، لقد كان جهاد الرشيد وحجه دائمين، فهو إن لم يكن في حج فهو في غزو، وبلغ من ورعه أنه حج ماشيًا لمنام رأى فيه رسول الله ﷺ وطلب منه أن يحج ماشيًا وأن يغزو، ففي النجوم الزاهرة

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 349.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2/ 315، 3/ 173.

أن هارون الرشيد رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال له: «يا هارون، إن هذا الأمر صائر إليك فحج ماشيًا، واغز، ووسِّع على أهل الحرمين»، فأنفق فيهم الرشيد أموالاً عظيمة ولم يحج خليفة قبله ولا بعده ماشيًا رحمه الله[1].

وقد أقام الرشيد للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه، وهي السنوات 170هـ، 173هـ، 174هـ، 175هـ، 177هـ، 179هـ، 181هـ، 186هـ، 188هـ. وكان الرشيد في جهاده لا يترك الخروج مع جنده، بل كان غالبًا في مقدمتهم، ولا يعتاد الراحة، ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب، وفي ذلك يقول أبو نواس:

لَقَد اتَّقيْتَ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ … وَجَاهدتَ نَفسَكَ فَوقَ جهْدِ المُتَّقِي

وأخفْـت أهل الشركِ حتى أنه … لتخافُك النُّطفُ التي لم تُخْلَقِ[2]

وكان الرشيد رحمه الله يخاف من أمر الخلافة ويعدها مما ابتلاه الله بها، فقد أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده، قال: «كان الرشيد يقول: «إنا من أهل بيت عظمت رزيتهم، وحَسُنَت بقيتهم، رزيتنا رسول الله ﷺ، وبقيت فينا خلافة الله»[3].

وكما أن الرشيد حفظ للعلماء والفقهاء مكانتهم، كانوا هم كذلك يبادلونه التقدير والمكانة ويدعون له في صلاتهم، ويعرفون حقه ومنزلته، فكان عبد الله بن عبد العزيز العمري يدعو له بقوله: «اللهم إن كان قد تسمى بالرشيد ليرشد، فأرشده، أو لغير ذلك فراجع به، اللهم إن له في الإسلام بالعباس على كل مسلم حقًا، وله بنبيك قرابة ورحمًا، فقرِّبه من كل خير، وبعِّده من كل شر، وأسعدنا به،

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 65.

(2) ويعلق ابن عبد ربه على هذا البيت في العقد الفريد، فيقول: وقد عاب الناس قول الحسن بن هانئ، فقالوا: كيف تخافه النُّطفُ التي لم تخلق؟ ومجاز هذا قريب إذا لحظ أن من خاف شيئًا خافه بجوارحه وسمعه وبصره ولحمه وروحه، والنطف داخلة في هذه الجملة، فهو إذا أخاف أهل الشرك أخاف النُّطفَ التي في أصلابها. انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد، 6/ 183.

(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 12.

وأصلحه لنفسه ولنا»[1].

وأخرج الخطيب البغدادي بسنده عن يحيى بن أبي طالب، قال: حَدَّثَنَا عثمان بن كثير الواسطي، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: «ما من نفس تَموت أشد عليَّ موتًا من هارون أمير المؤمنين، ولوددت أن الله زاد في عمره من عمري»، قال: فكبر ذلك علينا؛ فلما مات هارون، وظهرت تلك الفتن، وكان من المأمون ما حَمل الناس على قول القرآن مَخلوق، قلنا: الشيخ كان أعلم بِما تكلم به[2]. ولم ينس الرشيد نصيبه من الدنيا، بل كان مقبلًا عليها، آخذًا حظه منها. قال الأصمعي: «كان الرشيد يحب السمر ويشتهي أحاديث الناس[3]». وقال الجاحظ: «ولم يكن أحد من أصحابنا، من خلفائنا وأئمتنا، أحظى في الشعر من الرشيد»[4]، أي أكثر احتفالًا بالشعر وأهله.

وظائفه قبل الخلافة

كان هارون قد صار في العاشرة من عمره في خلافة أبيه المهدي (158 – 169هـ)، فلما بلغ الخامسة عشرة ظهرت عليه سمات الأمراء وذوي الخلافة، قوي البنية، حسن الخلق، مثقف الفكر، نابه العقل، وقد أعجب به المهدي، مما دعاه أن يرشحه لخلافة الأمة من بعده، وهذا الترشُّح يحتاج إلى إعداد جيد وتربية عملية قويمة، وكان أقصر طريق لذلك أن يوليه المهدي عظائم الأمور وقيادة الجيوش، فجعله أمير الصائفة سنة 163هـ، وقد توغل الرشيد في حدود الإمبراطورية البيزنطية، وفتح الله على يديه بعض حصونها، ثم عقد صلحًا مع أهلها، وعاد سالمًا غانمًا إلى بغداد.

---

(1) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 73/ 294.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 13 – 18.

(3) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص489.

(4) الجاحظ: الحيوان، 4/ 445.

وفي سنة 164هـ ولَّاه المهدي المغرب كله من الأنبار إلى أطراف إفريقية، فكانت الولاة ترسل من قِبَله، يقيم في بغداد وينيب عنه من يحكم هناك، والمسألة ليست صورية - كما يظن البعض - فإنه مسئول أمام أبيه، وقائده في المغرب مسئول أمامه يبلغه أمور الحكم ومشاكل الناس على فترات متعاقبة.

وفي سنة 165هـ جعله المهدي كذلك على رأس الجيش غازيًا البيزنطيين، وقد فتح الله على يديه وقفل راجعًا إلى بغداد منتصرًا، وقد أقيمت الأفراح والمهرجانات ابتهاجًا بهارون محقق النصر العظيم. وفي سنة 166هـ جعله أبوه ولي العهد بعد أخيه الهادي، وفي سنة 169هـ - وهي السنة التي توفي فيها المهدي - أراد أن يقدمه على الهادي، لِمَا ظهر من شجاعته وعلو شأنه، فحالت منية المهدي دون ذلك[1].

ولايته للعهد

كان موسى الهادي في نواحي جرجان بطبرستان يقود الجيوش لمحاربة الخارجين والمخالفين على الدولة، فلما مات المهدي أخذ الرشيد البيعة لأخيه على الجند، وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة، وكان ذلك في (22 محرم سنة 169هـ / 4 أغسطس سنة 876م).

كان الرشيد ولي العهد بمقتضى عهد أبيه المهدي، ولكن خَطَر للهادي أن يخلع أخاه ويعهد إلى ولده جعفر من بعده، وقد منَّاه بذلك قوَّاده والمقربون منه، فدسُّوا إلى الشيعة فتكلموا في أمر الرشيد وتنقصوه في مجلس الجماعة، وقالوا: لا نرضى به، وأمر الهادي أن لا يسار بين يدي هـارون بالحربة، فاجتنبه الناس، وتركوا السلام عليه. وكان يحيى بن خالد البرمكي يتولى أمور الرشيد بأمر الهادي،

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج8/ 145، 152. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 241، 253. الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص101. محمد رجب البيومي: هارون الرشيد الخليفة العالم والفارس المجاهد، ص62.

فقيل للهادي: "ليس عليك من أخيك خلاف، إنما يحيى يفسده". وقد كان هـارون طاب نفسًا بالخلع، فمنعه يحيى عنه، فلما أحضره الهادي، وقال له في ذلك، قال يحيى: "يا أمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هـانت عليهم أيمانهم، وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر بعده، كان ذلك أوكد للبيعة"، فقال الهادي: "صدقت"، وسكت عنه.

ومع ظهور اقتناع الهادي بصحة قول يحيى، لم يتركه مشيروه، بل ما زالوا يحرضونه على الرشيد حتى جدَّ فيه واشتد غضبه منه، وضيَّق الهادي على أخيه، فلما كان ذلك استشار هـارونُ يحيى في ذلك، فقال له يحيى: "استأذنه في الصيد، فإذا خرجت فأبعد، ودافع الأيام"، ففعل ذلك وأذن له، فلما غاب الرشيد أكثر مما استأذن، جعل الهادي يكتب إليه ويصرفه، فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر، فأظهر الهادي شتمه، وبسط مواليه وقواده في الرشيد ألسنتهم.

وقد قطع ذلك النزاع كله مرض الهادي الذي لم يمهله إلا ثلاثة أيام، ولما اشتد مرض الهادي أرسلت الخيزران إلى يحيى تأمره بالاستعداد، فأحضر يحيى كتابًا فكتبوا الكتب من الرشيد إلى العمال بوفاة الهادي، وأنه قد ولَّاهم ما كان ويكون، فلما مات الهادي بعيساباذ سيرت الكتب على البرد.

وقيل لما مات الهادي كان يحيى بن خالد بن برمك محبوسًا، وقد عزم الهادي على قتله، فجاء هـرثمة بن أعين - أحد كبار قادة الجيوش العباسية - إلى الرشيد وأخرجه وأجلسه للخلافة، فأرسل الرشيد إلى يحيى وأخرجه من الحبس واستوزره(1).

ولمَّا بويع هـارون الرشيد بالخلافة، قال إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانـت سَقِيمَةً   فلما وَلَى هـارونُ أَشْرَقَ نورها

(1) انظر تفاصيل ذلك في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 207 - 214. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3 / 490 - 500. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 265 - 274. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 22/ 122 - 126.

بيُمْنِ أمين اللَّه هـارون ذي الندى فَهارُونُ واليها، ويحيى وزيرها

خلافة الرشيد

بويع لهارون الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادي في (14 ربيع الأول سنة 170هـ - 14 سبتمبر 786م)، وله من العمر 22 سنة، ولم يزل خليفة إلى أن توفي في (3 جمادى الآخرة 193هـ - 24 مارس 808م) وهو ابن 45 سنة، فكانت مدة خلافته 23 سنة وشهرين و18 يومًا[1].

العصر الذهبي للخلافة الإسلامية

بلغت الخلافة الإسلامية في عصر الرشيد أوج نضارتها وجمال زهرتها، فما تنعَّم الناس بمثل ما تنعَّموا في أيام الرشيد، وما أجمل وصف السيوطي: "كانت أيام الرشيد كلها خير، كأنها من حسنها أعراس"[2]. فبخلافة الرشيد بدأ عصر زاهر في تاريخ الدولة العباسية، امتدَّ لما يزيد عن خمسة قرون، ارتقت فيه العلوم، وسمت فيها الآداب والفنون، وعمَّ الرخاء والأمن ربوع البلاد، وكانت دولة الرشيد مترامية الأطراف تمتد من وسط آسيا شرقًا وحتى المحيط الأطلنطي غربًا، في دولة مختلفة البيئات، متعددة العادات والتقاليد، معرَّضة للفتن والثورات في المشرق والمغرب، غير أن قيادته فرضت سلطانها فعمَّ الأمن والأمان.

ويزداد إعجابك بالرشيد حين تعلم أنه أمسك بزمام الخلافة وهو ابن اثنين وعشرين سنة، فاستطاع بشبابه أن يُرجع للدولة الإسلامية شبابها ونضارتها، فرحمه الله.

لقد كان عصر هـارون الرشيد واسطة العقد بالنسبة للخلافة العباسية أو قل بالنسبة للتاريخ الإسلامي الوسيط كلها، فقد اكتملت للدولة ألوان من العظمة

(1) ابن حبيب: المحبر، 1/ 39. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 242 - 246. أبو الفداء الملك المؤيد: المختصر في أخبار البشر، 2/ 18.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 212.

والقوة والمجد العلمي، وكانت الدولة مهيبة الجانب، فاحترمتها الدول المجاورة وهابتها، وفي الداخل كان الرشيد أقوى من كل الأحداث ومن الفتن التي ثارت هـنا وهناك، فكان الاستقرار طابع الدولة، والعظمة طابع الخليفة(1).

إنصاف المؤرخين لهارون الرشيد

وقد أنصف المؤرخون هـارون الرشيد أَيَّة إنصاف، لما رأوا وسمعوا وقرأوا عن عظيم سيرته ونبل أخلاقه، وتحروا الأمانة فيما نقلوا عن حياته، فكانت كلماتهم أصدق تعبيرًا في وصفه ووصف خلافته. ذكر المسعودي في مروج الذهب أن الخليفة القاهر بالله (شوال 320هـ - جمادى الأولى 322هـ) أمر أنيسه محمد بن علي العبدي الخرساني الأخباري بوصف الخلفاء العباسيين، فلما وصل إلى الرشيد، قال: "كان مواظبًا على الحج، متابعًا للغزو، واتخِاذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة..، فعمَّ الناسَ إحسانُه، مع ما قُرِن به من عدله، ثم بنى الثغور، ومَدَّن المدن، وحَصَّن فيها الحصون،..، وأحكم بناء الحرب، وغير ذلك من دور السبب والمواضع للمرابطين، واتبعه عماله، وسلكوا طريقته، وقَفَتْهُ رعيف مقتدية بعمله، مُسْتَنِدة بإمامته، فقمع الباطل، وأظهر الحق، وأنار الأعلام، وبرز على سائر الأُمم..، فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس، وكثير مما يجاوز النعت ويتفاوت فيه الوصف"(2).

ويقول الذهبي رحمه الله - وهو بلا ريب إمام النقَّاد ورجال الجرح والتعديل - عن الرشيد: "وكان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج، وجهاد، وغزو، وشجاعة، ورأي..، وكان أبيض، طويلًا، جميلًا، وسيمًا، إلى السمن، ذا فصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة، وله نظر جيد في الأدب والفقه، قد وخطه الشيب..، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على

(1) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - الخلافة العباسية، 3/ 142.
(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/ 251 - 252.

نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وعظ..، ومحاسنه كثيرة". وقال الذهبي أيضًا في ترجمته: "وكان من أمْيَز الخلفاء، وأجلّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج"[1].

وقال فيه ابن كثير: "كَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ سِيرَةً، وَأَكْثَرِهِمْ غَزْوًا وَحَجًّا بِنَفْسِهِ..، وَكَانَ يُحِبُّ الْفُقَهَاءَ، وَالشُّعَرَاءَ، وَيُعْطِيهِمْ كَثِيرًا، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ بِرٌّ وَلَا مَعْرُوفٌ، وَكَانَ نَقْشُ خَاتَمِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ..، وَفَضَائِلُهُ، وَمَكَارِمُهُ، وَمَآثِرُهُ، وَأَشْعَارُهُ كَثِيرَةٌ جِدًّا، قَدْ أَوْرَدَ الْأَئِمَّةُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا"[2].

وقال ابن دحية الكلبي (ت 633هـ): "وفي أيامه كملت الخلافة بكرمه، وعدله، وتواضعه، وزيارته العلماء في ديارهم"[3].

وفاة الرشيد

في ربيع الآخر سنة 192هـ قفل هـارون الرشيد عائدًا من الرقة إلى بغداد، يريد الشخوص إلى خراسان لمحاربة رافع بن الليث، الذي خرج على الخلافة في بلاد ما وراء النهر سنة 190هـ وقد عظم أمره، مما اضطر الخليفة أن يخرج له بنفسه، خرج الرشيد من بغداد في شعبان 192هـ واستخلف بالرقة ابنه القاسم، واستخلف ابنه الأمين على مدينة السلام، واصطحب معه ولده المأمون ووزيره الفضل بن الربيع، وجمعًا كبيرًا من كبار قواته ومستشاريه، وفي الطريق اشتدت العلة بالرشيد، ولكنه أكمل مسيره حتى بلغ طوس في صفر 193هـ فأقام بها، ثم بعث بولده المأمون إلى خراسان ووصى وزيره الفضل بن الربيع إن هـو مات أن يلحق بالمأمون.

ولما اشتد المرض بالرشيد، قال للفضل بن الربيع: ما تقول الناس؟ قال: يقولون: إن شأني أمير المؤمنين قد مات. فأراد الرشيد أن يرد على الإشاعة، فأمر

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 287 - 290. بتصرف. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1223.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 27 - 45. بتصرف.

(3) الزركلي: الأعلام، 8/ 62.

أن يسرج له فرسًا ليركبه ويخرج، فأسرج له، وحمل حتى وضع على السرج، فاسترخت فخذاه ولم يستطع الثبوت. فقال: أرى الناس قد صدقوا.

ثم جمعوا له الأطباء يعالجونه، فقال الرشيد:

إِنَّ الطَّبِيْبَ بِطِبِّـهِ وَدَوَائِـهِ لاَ يَسْتَطِيعُ دِفَاعَ مَقْدُوْرٍ أَتَـى

مَا لِلطَّبِيْبِ يَمُوْتُ بِالدَّاءِ الَّذِي قَـدْ كَـانَ يُبْرِي مِثْلَهُ فِيْمَا مَضَى

ولما أيقن من موته رحمه الله دعا بأكفان فاختار منها ما أراد، ثم قال: احفروا لي قبرًا قبل أن أموت، فلما فُرغ من حفر القبر، أنزل فيه قومًا فقرءوا فيه القرآن حتى ختموا، وهو في محفة على شفير القبر، وجعل ينظر إلى القبر، ثم قال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الْحَاقَّة: 28، 29] وَيَبْكِي، ويقول: "واسوءتاه من رسول الله ﷺ".

ثم دعا بأخي رافع بن ليث – وكان أخو رافع بن الليث ممن خرج على الخليفة وقبض عليه، فقال: "أزعجتموني حتى تجشَّمْتُ هـذه الأسفار مع علتي وضعفي". ثم قال: "لأَقْتُلَنَّكَ قتلة ما قتل مثلها أحد قبلك"، ثم أمر ففُصل عضوًا عضوًا، ومع ذلك لم يستطع الرشيد أن يقضي على ثورة رافع، وظل أمر رافع حتى سنة 195 هـ؛ حيث أطاع المأمون من غير قتال.

ثم دعا الرشيد من كان بعسكره من بني هـاشم، فقال: «إن كل مخلوق ميت، وكل جديد بَال، وقد نزل بي ما ترون، وأنا أوصيكم بثلاث: الحفظ لأمانتكم، والنصيحة لأئمتكم، واجتماع كلمتكم، وانظروا محمدًا وعبد الله، فمن بغى منهما على صاحبه، فردُّوه عن بغيه، وقبِّحوا له بغيه ونكثه». وأقطع في ذلك اليوم أموالًا كثيرة وضياعًا ورباعًا.

ويقال: إن آخر ما تكلَّم به الرشيد حين احتضر: «اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا من لا يموت، ارحم من يموت». وقد أفضت روحه إلى بارئها لثلاث

ليال خلون من ذي الحجة سنة 193هـ - 24 مارس 808 م، وهو ابن 45 سنة، وصلى عليه ابنه صالح.

قال ابن كثير: «وقد خلف الرشيد من الميراث ما لم يخلفه أحدٌ من الخلفاء، من الجواهر والأثاث والأمتعة، سوى الضياع والدور ما قيمته مائة ألف ألف دينارٍ، وخمسة وثلاثون ألف ألف دينارٍ (135 مليون دينارٍ). قال ابن جرير: وكان في بيت المال لمصالح الناس تسعمائة ألف ألف، ونيف (900 مليون دينارٍ ونيف)»[1].

فرحم الله الرشيد الخليفة العالم المجاهد،

وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(1) انظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 302 - 303. أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، 1/ 391 - 392. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 341 - 346. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 9/ 232. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 46 - 48. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص49 - 50.

فيما مضى لمحات سريعة ومقتطفات مختصرة من حياة أمير المؤمنين هـارون الرشيد، والآن جاء الدور للحديث عن أيام الرشيد، وأهم ملامح سياسته الداخلية والخارجية وأحوال الأمة الإسلامية في عصره، وأهم الجوانب الحضارية في عهده، خلافةً، وإدارةً، وفكرًا، وقضاءً، واجتماعًا، واقتصادًا، وغيرها مما يخص أحوال الخلافة وأمور الدولة.

«إن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق»

(ابن خلدون: المقدمة، 2/ 519)

الباب الأول: السياسة الداخلية

الفصل الأوَّل

الجوانب السياسية أيام الرشيد

- أولًا: وزراء هارون الرشيد.
- ثانيًا: كتَّاب هارون الرشيد.
- ثالثًا: الحجابة في عهد الرشيد.
- رابعًا: ولاة العهد لهارون الرشيد.

ألم تر أن الشمس كانت سَقِيمَة فلما وَلِي هارونُ أشْرَقَ نورها

الشاعر إبراهيم الموصلي. الطبري: تاريخ الرسل والملوك (8/ 233)

أولًا: وزراء هارون الرشيد

ظهرت الوزارة للمرة الأولى في العصر العباسي، وكانت مرتبة الوزير تأتي في المرتبة الثانية بعد الخليفة مباشرة، ولم تكن سلطات الوزير محددة في البداية، ولكنها اتضحت وتعددت في شكلها النهائي أواخر العصر العباسي الأول[1]. وما يعنينا هنا هو تناول الوزارة وأحوالها في عصر الخليفة هارون الرشيد رحمه الله، وأهم أعمال الوزراء وما آلوا إليه.

أولًا: علي بن يقطين

هو أبو الحسن علي بن يقطين بن موسى مولى بني أسد، ولد بالكوفة سنة 124هـ، وكان أبوه من وجوه دعاة الإمامية، وهو كذلك له ميول شيعية، وكان له شأن كبير في الدولة العباسية لمكانة أبيه، ولما أفضت الخلافة إلى المهدي استوزر عليّ بن يقطين وقدَّمه، وجعله على ديوان الزمام وديوان البسر والخاتم، فلم يزل في يده حتى توفى المهدي، وأفضى الأمر إلى الهادي فأقرَّه على وزارته، ولم يشرك معه أحدًا من أمره إلى أن توفى الهادي، وصار الأمر إلى هارون الرشيد فأقرَّه شهرًا ثم صرفه بيحيى بن خالد البرمكي. توفي عليّ بن يقطين ببغداد سنة 182هـ وصلى عليه ولي العهد الأمين بن الرشيد، وتوفي أبوه بعده في سنة 185هـ، ولعليّ بن يقطين كتاب: «ما سأل عنه الصادق من أمور الملاحم»، وكتاب: «مناظرته للشاك بحضرة جعفر»[2].

---

(1) أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص322 – 323.

(2) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد، 4/ 202 – 204. إسماعيل باشا الباباني البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، 1/ 667.

وللتعليق على وزارة علي بن يقطين، نقول:

أولًا: لم أجد في كتب التاريخ التي وقفتُ عليها مثل مروج الذهب للمسعودي وتاريخ الطبري وتاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن كثير، بل وكتب الشيعة كالفخري لابن طباطبا العلوي من تناول وزارة علي بن يقطين لهارون الرشيد، إلا أنه كان من رجال دولته ومشورته، وإنما عهد الرشيد للوزارة إلى يحيى بن خالد البرمكي. ولم يذكر هـذه الوزارة إلا ابن النجار في ذيله على تاريخ بغداد للبغدادي.

ثانيًا: هـناك علامة استفهام على وزارة علي بن يقطين لهارون الرشيد - كما قررنا - مع كونه شيعيًّا، ولعل الرشيد أراد أن تستقر أحوال دولته في بداية حكمه، فرأى الرشيد أن يرفق بالعلويين، وأن يزيل أثر سياسة الهادي العنيفة، فعند مجيئه للحكم بذل الأمان للطالبيين[1]، ولعل بادرة هـذا الأمان أن استوزر عليّ بن يقطين، ورفع الحِجر عمن كان منهم ببغداد سنة 171هـ، ويروي الفضل بن الربيع أن الرشيد كانت له ميول علوية، وإن صح ذلك فإن ميوله لم تكن تتجاوز حدود العاطفة[2]. على أن الصفا هـذا لم يطل، وحدثت حوادث كثيرة عكرت صفو هـذه العلاقة، منها خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن سنة 176هـ على نحو ما سنبينه من سياسة الرشيد مع العلويين[3].

ثانيًا: وزارة يحيى بن خالد البرمكي

لم يعظم مركز الوزارة وتستقر قواعدها إلا منذ أيام المهدي، وليس أدل على ارتفاع مكانة الوزير في دولة بني العباس بعد المهدي من الإشارة إلى المكانة التي تبوأها البرامكة في خلافة الهادي والرشيد، فقد قبضوا على أزمة الحكم، وأصبحت شئون الدولة في أيديهم يتصرفون فيها كما شاءوا إلى أن نكبهم الرشيد

(1) المقدسي: البدء والتاريخ، 6/ 101.

(2) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 110.

(3) انظر: ص161.

سنة 187هـ[1].

فإنه لما بويع هـارون الرشيد بالخلافة كان يحيى بن خالد البرمكي في السجن، فيقال إن الخيزران هـي التي أمرت بإخراجه من السجن، وقام هـو بدوره بالذهاب إلى هـارون وأعلمه بالخير، وهنَّأه بالخلافة، ويقال إن الرشيد هـو من أخرج يحيى من السجن، وأي من الروايتين صحت فإنها تدل على متانة الصلة بين الرشيد ويحيى البرمكي[2].

ولما أفضت الخلافة إلى هـارون استوزر يحيى بن خالد، وقال له: "يا أبتِ أنت أجلستني في هـذا المجلس ببركتك ويُمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر"[3]. وفوَّض الرشيد أمور دولته إليه، وقال له: "قد قلّدتك أمر الرعيّة وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى"، ودفع إليه خاتمه[4].

وأما عن حال الوزارة في عهد يحيى بن خالد البرمكي، فيقول ابن طباطبا: "فنهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتمّ نهوض، وسدّ الثغور وتدارك الخلل، وجبى الأموال وعمّر الأطراف، وأظهر رونق الخلافة، وتصدّى لمهمّات المملكة، وكان كاتبًا بليغًا، لبيبًا أديبًا سديدًا، صائب الآراء حسن التدبير ضابطًا لما تحت يده، قويّا على الأمور، جوادًا يباري الريح كرمًا وجودًا، ممدّحًا بكلّ لسان، حليمًا عفيفًا وقورًا مهيبًا"[5].

(1) السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، 3/ 255.

(2) انظر الرواية الأولى: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 212. الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص132 - 133. الرواية الثانية: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 230. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص63.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 280. الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص134.

(4) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 504.

(5) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 197.

ويمكننا القول: إن وزارة يحيى بن خالد البرمكي وأبنائه مثلت المرحلة الذهبية لفترة حكم الرشيد، فهم من حملوا أعباء الدولة وصرَّفوا أحوالها، فشيدوا وبنوا واهتموا بالعلم والعلماء ومكَّنوا للرشيد، فكانوا سيفه الذي يبطش به الثائرين على الخلافة وهيبة الدولة، وظل هـذا الحال إلى نكبهم الرشيد سنة 187هـ، على نحو ما سنذكره بالتفصيل في سياسة الرشيد مع الفرس[1].

ثالثًا: وزارة الفضل بن الربيع

بعد أن انقضى أمر البرامكة استوزر هـارون الرشيد أبا العباس الفضل بن الربيع، وكان الفضل حاجبه، ولمَّا ولي الوزارة تهوَّس بالأدب، وجمع إليه أهل العلم، فحصل منه ما أراد في مدة يسيرة، وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين إليه، فمن شعره في آل الربيع:

عبَّاس عبَّاس إذا اضطرم الوغى ... والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعٌ[2]

ولم تكن الوزارة في عهد الفضل بن الربيع على ما كانت عليه في عهد البرامكة، إذ اختلت الأمور، ولم يقْوَ الفضل على الإشراف على قصر الخليفة وعلى مملكته، إذ شغلته خدمة الخليفة، وتدبير شئونه الخاصة، فأضاع ما وراء ذلك من الشئون والأمور، فتعطلت المصالح واضطربت الأمور، وكانت الصحف التي ترد من الولايات لا تجد من يفضُّها ويجيب عنها، فقد ذكر الفضل بن مروان أن أمور البريد والأخبار في أيام الرشيد كانت مهملة، وأن الرشيد توفي وعندهم أربعة آلاف خريطة لم تفض، وكان الرشيد يرى ذلك فيتمثل بقول الشاعر:

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبِيكُمُ ... مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا[3]

(1) انظر: ص167.

(2) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 209. ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، 1/ 99.

(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص 207.: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 1/ 335. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية – الخلافة العباسية، 3/ 302، 352.

لقد حاول الفضل بن الربيع قدر المستطاع أن ينال مركزًا أو حظوة مثل ما نالته البرامكة، ولكن دون جدوى؛ فهو لم يكن على مستوى البرامكة في الكرم، ولا في ذكائهم، أو سعة نفوذهم ولا حسن تدبيرهم.

وأيًّا ما كان الأمر فإن الفضل بن الربيع شغل المكانة الأولى في بلاط الرشيد بعد اختفاء البرامكة عن المسرح السياسي، وإن لم يسد مكانهم، وبعد موت الرشيد أصبح من أبرز شخصيات حزب الأمين في الفتنة التي حدثت بينه وبين أخيه المأمون، وعيَّنه الأمين وزيرًا له[1].

(1) فايزة إسماعيل أكبر: وزراء العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثامن ـ المجلد الأول – مارس 2000م، ص29 – 30.

ثانيًا: كتَّاب هارون الرشيد

لما كثرت أعمال الوزراء في العصر العباسي الأول أصبح من الضروري تعيين موظفين يعاونون الوزير للإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شؤونها، ومن أشهر الكتَّاب في هـذا العصر كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضي، وكان كاتب الرسائل يتولى مكانة الملوك والأمراء عن الخليفة، وكثيرًا ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه[1].

كما كانت الملوك تقدم الكُتَّاب، وتعرف فضل صناعة الكتابة، وتُحظي أهلها، لما يجمعونه من فضل الرأي إلى الصناعة، ويقول: «هم نظام الأمور، وكمال الملك، وبهاء السلطان، وهم الألسنة الناطقة عن الملوك، وخزان أموالهم، وأمناؤهم على رعيتهم وبلادهم»[2]. وقد كان للكتَّاب أهمية خاصة ومنزلة رفيعة في قصور الخلافة، حتى إن الكثير منهم ترفَّع في منزلته حتى نال الوزارة نفسها، على ما كانوا يتمتعون به من الصفات والخلال.

وقد برز في عهد الرشيد كتَّاب كبار، نذكر منهم:

1 - **يحيى بن خالد البرمكي**: وكان كاتب الرشيد[3]، وعلت منزلته من الرشيد حتى أعطاه الوزارة وقلَّده أمور دولته وتصريف أحوالها.

2 - **جعفر بن يحيى البرمكي**: وكان كاتبًا بليغًا، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته، وتدورست بلاغاته. قال ثمامة بن أشرس: «كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 214.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص3.

(3) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ص197.

جمع الهدوءَ والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهامًا يغنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطق يستغني بمنطقته عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة»[1].

3 - **الفضل بن الربيع**: عدّه ابن عبد ربه في العقد الفريد من كتَّاب الرشيد بقوله: «كاتب هـارون الرشيد محمد المهدي: يحيى بن خالد البرمكي، ثم الفضل بن الربيع، ثم إبراهيم بن صبيح»[2]. وقال في موضع آخر: «وممن نبه بالكتابة بعد الخمول، واستحق اسمها الربيع والفضل بن الربيع، وذكر جماعة من الكتّاب»[3].

4 - **أبو القاسم يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب**: كان كاتبًا بليغًا، من أهل بيت شعر وأدب وبلاغة، وله رسائل مدوَّنة وشعر، وكان يكتب فِي ديوان الكوفة لبني أمية، وكان من خاصة عبد الله بن عليٍّ عمِّ المنصور، ثمَّ إنه كتب للسفاح وللمنصور ولهارون الرشيد. وولَّاه الرشيد كتابة الإنشاء، وعهد إليه يحيى بن خالد البرمكي بأن يكتب إلى الآفاق بالخبر، فكان أول من بشَّر هـارون الرشيد بالخلافة، يوم مات أخوه الهادي سنة 170هـ، وبشَّره في الساعة نفسها بولادة ابنه المأمون، وكان هـو الذي قام خطيبًا بين يدي الرشيد حين أُخذت البيعة له على المنبر بعيساباذ. وهو والد أحمد بن يوسف أبو جعفر الكاتب وزير المأمون. واختص بيحيى بن خالد بن برمك، فكان يكتب بين يديه ويخلفه على التوقيع وعلى دواوين الأزمة[4].

5 - **إسماعيل بن صبيح**: أول من اشتهر من كتَّاب الدولة العباسية وحذا حذو عبد الحميد الكاتب[5]، وكان كاتب الرسائل والتوقيع والسر وضياع الْخَاصَّة

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص158 - 159.

(2) ذكر ابن عبد ربه إبراهيم بن صبيح، والصواب إسماعيل بن صبيح.

(3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 247، 252. ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، 1/ 99.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 230231. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 561. الصفدي: الوافي بالوفيات، 29/ 121. الزركلي: الأعلام، 8/ 245.

(5) ابن سعيد المغربي: المقتطف من أزاهر الطرف، 1/ 82.

والعوافي لهارون الرشيد، وكان كاتبًا حافظًا بليغًا، وَكَانَ أحسن النَّاس خطًا وأسرعهم يدًا[1]. وكان يقول: «الخط في الإبصار سواد، وفي البصائر بياض»[2]. وهو الذي قال لهارون الرشيد: « إياك والدالة، فإنها تفسد الحرمة»، ومنها أُتي البرامكة[3]. وإسماعيل بن صبيح هـو من أمره الرشيد سنة 188هـ بعد نكبة البرامكة أن يكتب إلى جميع العمال بما عقد بين ولده: محمد وعبد الله والقاسم من العهد، وأخذه عليهم من الأيمان، فكتب في ذلك كتابًا مشهورًا قال في آخره: «وكتب إسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليال بقين من المحرم سنة ثمان وثمانين ومائة»[4].

6 – **منصور بن زياد الكاتب:** وقد قرَّبه يحيى بن خالد البرمكي، حتى كان الناس ربما توسلوا به في حوائجهم[5].

7 – ذكر الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب مجموعة من كتَّاب هـارون الرشيد غير ما ذكرنا، فقال: «وكان من كتابه يوسف بن سليمان، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن، ويحيى بن سليمان، ومحمد بن أعين، وعبد الله بن عبدة»[6].

(1) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 465. الصفدي: الوافي بالوفيات، 9/ 75.

(2) أبو منصور الثعالبي: الإعجاز والإيجاز، 1/ 110.

(3) ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، 1/ 103.

(4) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص214.

(5) السابق: ص135.

(6) السابق نفسه.

ثالثًا: حجَّاب هارون الرشيد

الحجابة هـي مصطلح أولَ ما ظهر في عصر الدولة الأموية، فلم يعرف الحُجَّاب ولا الحجابة في عصر الخلفاء الراشدين؛ لأنهم لم يمتنعوا عن مقابلة الناس بل كانوا يخاطبون الناس على اختلاف مراتبهم. فما إن انتقل الحكم إلى الأمويين اتخذ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه – ومن جاء بعده – الحُجَّاب بعد حادثة الخوارج مع علي ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم؛ وذلك خوفًا على أنفسهم من شر الناس، وتلافيًا لازدحامهم على أبوابهم وشغلهم عن النظر في مهام الدولة. فالمهمة الرئيسية للحاجب هـي إدخال الناس على الخليفة مراعيًا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم. وقد قلَّد الخلفاء العباسيون بني أمية، فاتخذوا الحُجَّاب وزادوا في منع الناس عن ملاقاتهم إلا في الأمور الهامة[1].

واسم الحاجب في الدولة دليل رقيها وحضارتها، فكان أعظم الملوك شأنًا لا بد له من ذكر الحاجب وذي الوزارتين، يعنون: السيف والقلم[2]. وكان الحاجب في بعض الأحيان يستبد بالنفوذ دون الوزير، وينظر في أمور الدواوين، ولا يُفصل في أعمالها إلا بعد موافقته[3].

يتبين لنا من ذلك أن مهمة الحاجب جدُّ خطيرة، وأن نفوذه ربما يتعدَّى نفوذ الوزراء، وقد ظهر ذلك جليًا في حُجَّاب العصر العباسي الأول، إذ ازداد نفوذهم

---

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، 2/ 215، بتصرف.

(2) حسين الحاج حسن: النظم الإسلامية، ص179.

(3) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص120.

يومًا بعد يوم حتى كاد الخلفاء يستشيرونهم دون غيرهم، مما أوجد نوعًا من الغيرة والحقد والحسد المتبادل بين الوزراء والحُجَّاب.

ومن أشهر من حجب لأمير المؤمنين هـارون الرشيد:

أولًا: بشر بن ميمون

ذكر خليفة ابن خياط في تاريخه وابن حبيب في المحبر أن أول من حجب لهارون الرشيد هـو بشر بن ميمون مولى هـارون الرشيد. وقد تابعهما في ذلك المسعودي[1]. ولـم تدم حجابته سوى سنتين حيث عزله الرشيد 172هـ.

ثانيًا: محمد بن خالد بن برمك

تولى محمد بن خالد بن برمك حجابة الرشيد سنة 172هـ[2]، وبذلك تعتبر هـذه السنة أول تمكُّن البرامكة في دولة الرشيد، فيحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد والمتصرف الأوحد في أمور الخلافة، وهذا أخوه محمد بن خالد بن برمك حاجب الرشيد والمتصرف في قصره وحجابته، فاجتمع للبرامكة الوزارة والحجابة ومن قبل الكتابة.

وقد حجب محمد بن خالد بن برمك لهارون الرشيد سبع سنوات حيث صرفها عنه هـارون الرشيد وولَّاها الفضل بن الربيع سنة 179هـ[3].

ثالثًا: الفضل بن الربيع

استحجب هـارون الرشيد الفضلَ بن الربيع سنة 179هـ، فقد كان الفضل بن الربيع من رجال الدَّهْر رَأْيًا وحزمًا ودهاءً ورياسة، وهو من أبرز حجَّاب الدولة العباسية وأشهرهم، وعلى يديه كانت وقعة البرامكة، فدائمًا ما كان الفضل يروم

(1) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 465. ابن حبيب: المحبر، 1/ 260. المسعودي: التنبيه والإشراف، 1/ 300.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص143.

(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 184. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 261. . ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 597.

التشبه بالبرامكة، ولكنه لم يكن يدرك اللحاق بهم، مما مكَّن للحقد والحسد والبغضاء في قلبه، فجعل يكيد لهم المكائد ويدس الدسائس فأوغر قلب الرشيد عليهم حتى أوقع بهم، ونال الحظوة والوزارة من بعدهم. وذلك سنة 187هـ، فاجتمع للفضل الوزارة والحجابة، وقد سار الفضل متمكنًا من هارون الرشيد إلى أن مات الرشيد سنة 193هـ، فقام الفضل بخلافة الأمين، وساق إليه خزائن الرشيد، وسلم إليه البرد والقضيب والخاتم، فأكرمه الأمين وجعل له الحجابة والوزارة وفوَّض له أمور الخلافة، فصار الفضل هو الكل لاشتغال الأمين باللعب واللهو، ولمّا تداعت دولة الأمين ولاح عليها الإدبار اختفى الفضل مدة طويلة، فلما بويع إبراهيم بن المهدي ظهر الفضل، وساس نفسه، فلم يدخل معهم في شيء، ولهذا عفا عنه المأمون إلى أن مات سنة 208هـ[1].

وهكذا فقد نحت الحجابة في عهد الرشيد منحى خطرًا عن وظيفتها الطبيعية - وهي حجب الناس عن الخليفة وترتيب دخولهم حسب منازلهم، فضلًا عن ترتيب أمور القصر - إلى التحكم في أمور الدولة ومشاركة الوزراء في تدبير الخلافة، فكثرت الخلافات وتعددت الوشاية بين الحجَّاب والوزراء، حتى انتصرت الحجابة بنكبة البرامكة، وانفراد الفضل بملك الرشيد حجابة ووزارة. فانفك عقد قوة الدولة وانفرط شملها عما كانت عليه في زمن البرامكة، على نحوٍ مهَّد باندلاع الفتنة بين أبناء البيت العباسي الواحد.

(1) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 465. ابن قتيبة الدينوري: المعارف، 1/ 384 - 385. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 0/ 185. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 172 - 173. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 37 - 40. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، 2/ 150 - 151.

رابعًا: ولاة العهد لهارون الرشيد

مع ما كان يعرف به الرشيد من رجاحة العقل ومع اتساع دائرة مستشاريه من القضاة والفقهاء ورجال الدولة والحكمة، إلا أنه وقع في خطأٍ كبيرٍ في حق الخلافة أدى في نهايته إلى انفراط عقد الأمة وسفك الدماء، يتمثل هـذا في القرار الذي اتخذه بشأن ولاية العهد لثلاثة من أولاده، ليس ذلك فحسب بل تقسيم الدولة فيما بينهم!.

ففي سابقة لم تحدث في تاريخ الأمة، عقد هـارون الرشيد ولاية العهد من بعده لثلاثة من أولاده؛ حيث اهتدى الرشيد سنة 175هـ أن يجعل ولاية العهد من بعده لولده محمد، فأخذ له بيعة القواد والجند ببغداد، وسماه: الأمين، وله يومئذ خمس سنين، فقدَّمه على المأمون، مع أن المأمون أكبر منه، ولكن يبدو أن ميله لزوجته زبيدة واطلاعه على ميل بني هـاشم لمحمد، جعله يؤثر محمد على عبد الله بن مراجل الفارسية.

وكان الرشيد يقول: "إني لأتعرف في عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي، فلو أشاء أن أنسبه إلى الرابعة فيَّ لنسبته[1]، وإني لأرضى سيرته، وأحمد طريقته، وأستحسنُ سياسته، وأرى قوته وذهنه، وآمن ضعفه ووهنه، وإني لأقدم محمدا عليه، وأعلم أنه منقاد لهواه، متصرف في طريقه، مبذر لما حوته يده، مشارك للنساء والإماء في رأيه، ولولا أم جعفر وميل بني هـاشم إليه لقدمت عبد الله عليه"[2]. وما كان للرشيد أن يقع في هذه السقطة الخطيرة، إذ كيف تعدل زوجته زبيدة ورضاها مصير الأمة والخلافة. ومع أن الرشيد لم يكن ليطمئن قلبه إلى هـذه البيعة، لما يعلمه من حال الأمين وطباعه، ولم يستشعر الراحة، فكان يقعد مرة ويضطجع مرة ويبكي مرة، وهو ينشد ويقول:

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 291.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 9.

قلد أمور عباد الله ذا ثقة ... موحِّد الرأي لا نكس ولا برمُ
واترك مقالة أقوام ذوي خطل ... لا يفهمون إذا ما معشر فهموا[1]

وكان البرامكة يعلمون مغبَّة هـذه البيعة، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون، مع أن الأول أحدث سنًّا وأقل كفاءة، وكان المأمون في حجر جعفر بن يحيى البرمكي، فأشار على الرشيد بأن يبايع لعبد الله بعد محمد[2]. وعلى هـذا أخذ الرشيد البيعة بولاية العهد لولده عبد الله بعد أخيه الأمين، وذلك سنة 182هـ، وولاه خراسان وما يتصل بها إلى هـمذان، ولقبه المأمون[3].

"وهذا من العجائب، فإن الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجدُّه المنصور بعيسى بن موسى، حتى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه، ثم هـو يبايع للمأمون بعد الأمين، وحُبُّك الشيء يعمي ويصم"[4].

وفي سنة 186هـ عـزم هـارون الرشيد على أداء مناسك الحج واصطحب أولاده محمد وعبد الله والقاسم، ومعه الفقهاء والعلماء والقضاة وكبار رجال الدولة، وكان القاسم بن الرشيد في حجر عبد الملك بن صالح، فلما بايع الرشيد للأمين والمأمون، كتب إليه عبد الملك بن صالح:

يـأيـهـا الـمـلـك الـذي ... لـو كـان نجمًا كـان سعـدا
اعـقـد الـقـاسـم بيعـة ... واقـدح له في الملك زنـدا
الـلـه فـرد واحـد ... فاجعل ولاة العهد فـردا

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 291.
(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 165.
(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 269.
(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 327.

فكان ذلك أول ما حض الرشيد على البيعة للقاسم، فبايع الرشيد للقاسم ابنه، وسمَّاه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم.

غير أن المسعودي يرى أن الرشيد أخذ البيعة للقاسم سنة 187هـ بعد المأمون، فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون كان أمره إليه، إن شاء أن يقرَّه أقرَّه، وإن شاء أن يخلعه خلعه، بينما يرى اليعقوبي أن الرشيد أخذ البيعة للقاسم سنة 189هـ بقَرْمَاسِينُ(1)، وكان بين البيعة للمأمون وبيعة القاسم ست سنين(2).

كتابة العهد وتعليقه على ستار الكعبة

ولما أنهى الرشيد مناسكه أعلن البيعة على الملأ لأبنائه الثلاثة في ثلاث وثائق رسمية، هـي عهد مأخوذ على الأمة كلها بأن تكون عند ما اشترط الرشيد لأولاده. ولما فرغ الرشيد من كتابة العقد أشهد أهل بيته ووزراءه وقواده ومواليه وكتّابه ومن كان في الكعبة معه، وكان جميع ذلك في البيت الحرام، ثمّ رأى أن يعلّق الكتاب في الكعبة، فلمّا رفع ليعلّق، سقط، فقال الناس: "هذا أمر سريع الانتقاض لا يتمّ"، ثم إن الرشيد في سنة 189هـ شخص إلى قرماسين ومعه المأمون، وأشهد على نفسه من عنده من القضاة والفقهاء أن جميع ما في عسكره من الأموال والخزائن والسلاح والكراع وغير ذلك للمأمون، وجدد له البيعة عليهم، وأرسل إلى بغداد فجدد له البيعة على محمد الأمين(3).

---

(1) قرماسين: موضع في طريق مكة. وهي غير قَرْمِيسِينُ: وهي مدينة بجبال العراق على ثلاثين فرسخًا من همذان عند الدّينور، ويقال لها كرمان شاهان. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، 4/ 330.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 3/ 155. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 293. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 344.

(3) انظر تفاصيل ذلك ونص العقود التي عقدها الرشيد في: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 291 – 293. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 275 – 281. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 527 – 528. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 110 – 119. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 343 – 344. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 634 – 635.

ولم يكتف الرشيد أن جعل البيعة من بعده لثلاثة من أولاده، بل قسم الدولة إلى ثلاثة أقسام: القسم الشرقي: وهو خراسان ويعهد به إلى المأمون، ويعتبر واليًا لأخيه الأمين. إقليم الجزيرة والعواصم: ويعهد به إلى المؤتمن. وتصبح سلطة الأمين مطلقة على ما يلي ذلك من الأقاليم كالعراق والشام وغيرهما.

فلما قسَّم الرشيد دولته بين أولاده الثلاثة قال بعض الناس: "قد أحكم أمر الملك"، وقال بعضهم: "بل ألقى بأسهم بينهم وسيختلفون"، وقالت الشعراء في ذلك، فقال بعضهم:

رأى الملك المهذب شر رأيٍّ ... بقسمته الخلافة والبلادا

أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا

فقد غرس العداوة غير آل ... وأورث شمل ألفتهم بدادا

فويل للرّعيّة عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا

ستجري من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا[1]

وهارون الرشيد وإن كان قد احتاط، فأخذ على أبنائه العهود والمواثيق أن يفي بعضهم لبعض، ويبرَّ بعضهم ببعض، ولكن ما قيمة هذا الاحتياط أمام سطوة الملك وسلطانه، ومطامع الإنسان التي لا حدَّ لها، وما قيمة هذه العهود والمواثيق وقد أثبت التاريخ في جلِّ مراحله أنها لا تعتبر عهودًا ومواثيق إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد، أما الأقوياء فإنما هي قصاصات ورق لا أكثر ولا أقل، وقد كان الخلفاء قبل الرشيد يحتاطون لكل بيعة فيها أخذٌ للعهود والمواثيق، ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياط أيام بني أمية ولا أيام بني العباس[2].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 275 – 277. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 527 – 528.

(2) أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، 1/ 131.

الفَصْلُ الثَّانِي

الجوانب الإدارية أيام الرشيد

- أولًا : النظام الإداري في عهد الرشيد.
- ثانيًا : سياسة هارون الرشيد في إدارة الدولة.
- ثالثًا : الدولة في أيام الرشيد وأشهر ولاتها.
- رابعًا : الدواوين في عهد هارون الرشيد.

”وفي أيامه كَمُلت الخلافة بكرمه، وعدله، وتواضعه، وزيارته العلماء في ديارهم“.

المؤرخ ابن دحية الكلبي. الزركلي: الأعلام، (8/ 62)

أولًا: النظام الإداري في عهد الرشيد

تبنت الخلافة العباسية أيام الرشيد - ومن سبقه - نظام الحكم المركزي، وأصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاة مطلقي السلطة، فكان ولاة الأقاليم يتبعون مباشرة الحكومة المركزية، وسلطتهم وصلاحيتهم محدودة، بعكس ولاة الأمويين كالحجاج بن يوسف وزياد بن أبيه، وكان الخليفة يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شئونها دون أن يعطيهم صلاحيات مدنية وقضائية واسعة، فلم يترك العامل في ولايته زمنًا طويلًا؛ ولذلك فإنه كان إلى جانب الوالي صاحب البريد والقاضي وصاحب بيت المال، واقتصر عمل الوالي غالبًا على الصلاة وقيادة الجند.

وفي أيام الرشيد كان إذا عُزل العامل طُلب منه أن يقدم بيانًا مفصَّلًا عن شئون ولايته، وكان أقل شك في صدقه كافيًا لمصادرة أملاكه جميعها[1]. وإن هذا النظام الذي تبنَّته الخلافة العباسية وأقرَّه هارون الرشيد كنظام لإدارة الخلافة كفيل بتحمل الخليفة المسئولية كاملة أمام الرأي العام، فالخليفة يتحمل تبعات كل قرار يتخذه، أو تصرف يقوم به أي عامل له.

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 216. أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص 326. بتصرف.

ثانيًا: سياسة هارون الرشيد في إدارة الدولة

كان هـارون الرشيد يتخير ولاته ويتتبع أخبارهم، وكان يحرص على تخير ولاته من أفاضل الناس وخيارهم، وكان له عيون[1] على كل والي يخبرونه بجميل صنيعهم أو قبيحه، فكان من سنَّة الرشيد في كل الأمصار أن يتخير ولاته وجباته وقضاته؛ ليأمن الناس وليعيشوا في عدل ورخاء، ولم يكن منقطعًا عن أخبارهم، فقد كان يحاسبهم، والشكوى الصحيحة من أي فرد من أفراد الأمة على والي البلد تقتضي العزل[2].

ولقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل ما دقّ وجلَّ من شئون الملك، ومن أشد الملوك بحثًا عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عنايةً، وأحزمهم فيها أمرًا، يصطنع الرجال ويحلم عن مساوىء تغتفر من رجاله، ويسعى في عمران البلاد ويكف الأذى عن الرعية، ويأخذ بأيدي العلماء والباحثين ويجتمع إليهم ويأنس بهم[3].

كما كان من صفة الرشيد رحمه الله العدل والإنصاف، وإقرار الأمن ولو كان الوالي من أهل بيته وأحب الناس إليه، وكان لا يألو عن محاسبة ولاته. فقد رويَ أن الرشيد ولَّى الفضل بن يحيى البرمكي خراسان فكتب صاحب البريد إلى الرشيد كتابًا يذكر فيه أن الفضل تشاغل بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى البرمكي، وقال له: "يا أبتِ اقرأ هـذا الكتاب، واكتب إلى الفضل كتابًا يردعه عن مثل هـذا". فمد يحيى يده إلى دواة الرشيد، وكتب إلى

(1) جعل الخلفاء العباسيون صاحب البريد عيونًا لهم على الولاة.

(2) شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص 121. بتصرف.

(3) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص170. محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، 2/ 213.

ابنه على ظهر الكتاب الذي ورد من صاحب البريد: "حفظك الله يا بني وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد، ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاود ماهـو أزين بك، فإنه من عاد إلى ما يزينه لم يعرفه أهل زمانه إلا به، والسلام"، وكتب تحته هـذه الأبيات:

انصب نهارًا في طلاب العلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيب

حتى إذا الليل بدا مقبلا ... وغتاب فيه عنك وجه الرقيب

فبادر الليل بما تشتهي ... فإنما الليل نهار الأريب

كم من فتى تحسبه ناسكا ... يستقبل الليل بأمر عجيب

ألقى عليه الليل أستاره ... فبات في لهو وعيش خصيب

ولذة الأحمق مكشوفة ... يسعى بها كلُّ عدوٍّ مريب

والرشيد ينظر إلى ما يكتب، فلما فرغ قال: "أبلغت يا أبتِ"، فلما ورد الكتاب على الفضل لم يفارق المسجد نهارًا إلى أن انصرف من عمله[1]. وهذا الموقف دليل على أن الرشيد لا يأخذه في الحق والعدل محاباة ولا قرابة، فكان استشعار المسئولية حاضرًا في ذهنه، فبمجرد أن وصله الكتاب حتى اتخذ قراره بتعديل تصرفه، وضرورة عدول الفضل عن الانشغال عن الرعية، وهو كذلك دليل على إيمان يحيى وورع الفضل.

ولم يكن الرشيد كذلك يألو اهتمامًا بكثرة تغيير الولاة واستبدالهم، ما دام الأمر خاصًا بإقرار الأمن واستقرار الولاية، فنجد أن الرشيد يعزل ويولي أكثر من مرة على الولاية الواحدة، ويظل مشغولًا بحالها حتى تستقر الأمور وتهدأ الأوضاع. وقد رأينا ذلك واضحًا عندما هـاجت العصبية في الشام سنة 176هـ فعزل عاملها

(1) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 6/ 2811 – 2812. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 28 – 29.

موسى بن عيسى ووجه إليها موسى بن يحيى البرمكي فاستقرت الأمور وهدأت الفتنة[1].

وكان الرشيد إذا اضطرب الأمر بإحدى ولاياته كان يغتمَّ لذلك، ويهمُّ بالخروج بنفسه في سبيل إقرار الأمن والعدل بين الناس، ففي سنة 180هـ هاجت العصبية بالشام بين أهلها، وتفاقم أمرها فقلق الرشيد واغتمَّ لذلك، وقال لجعفر بن يحيى: "إما أن تخرج أنت، أو أخرج أنا"، فقال له جعفر: "بل أقيك بنفسي"، فشخص في جلَّة القواد والكراع والسلاح وعقد له على الشام. فلما أتاهم أصلح بينهم وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم، ولم يدع به رمحًا ولا فرسًا، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة، وأطفأ الثائرة، وعاد إلى جعفر، واستخلف على الشام عيسى بن العكِّي فزاد الرشيد في إكرامه ومدحه الشعراء[2].

(1) انظر: ص56.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 262.

ثالثًا: الدولة في أيام الرشيد وأشهر ولاتها

بلغت الدولة الإسلامية أيام الرشيد أوج قوتها واتساعها، غير أن هارون الرشيد ورث الفتن والقلاقل في بلاد المغرب العربي، فلم تكن خلافته بداية التصدع في الخلافة، إلا أنه تطورت حركات الانفصال عن الدولة، وقد حاول الرشيد القضاء على هذه الحركات، ولكنَّ الرشيد تركها وشأنها وأصبحت إمارات منفصلة عن الخلافة العباسية وإن كانت تخطب باسمه على المنابر، ما عدا الأندلس.

والملاحظ أن تلك الحركات الانفصالية كانت في بلاد المغرب العربي فضلًا عن انفصال الأندلس منذ عهد جده المنصور، ومن تلك الحركات:

استقلال المغرب الأوسط - الدولة الرستمية (144 - 296هـ/ 761 - 908م).

استقلال المغرب الأقصى - دولة الأدارسة (172 - 375هـ/ 788 - 985م).

استقلال جنوب المغرب الأقصى - دولة بني مدرار بسجلماسة (140 - 297هـ/ 757 - 909م).

استقلال المغرب الأدنى - دولة الأغالبة (184 - 296هـ/ 800 - 909م).

أ - حدود الدولة في عهد الرشيد

كانت الدولة العباسية في عهد الرشيد تنقسم إلى عدة ولايات، وهي:

1	ولاية الكوفة والسواد.
2	ولاية البصرة وإقليم دلجة والبحرين وعمان.
3	ولاية الحجاز واليمامة.
4	ولاية اليمن.
5	ولاية الشام.

6	ولاية مصر.
7	ولاية أفريقية، وذلك حتى استقل بها إبراهيم بن الأغلب سنة 184هـ، ولم تتبع لهم إلا اسمًا.
8	ولاية خراسان.
9	ولاية السند.
10	ولاية الموصل.
11	ولاية فارس.
12	ولاية الأهواز.
13	ولاية الجزيرة وأرمينية وأذربيجان.
14	ولاية العواصم أو الثغور.

حيث قام هارون الرشيد سنة 170هـ بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين، وجعلها حيِّزا واحدًا وسميِّت العواصم وحاضرتها طرسوس، وكان الرشيد لا يولي هـذه الثغور إلا من يثق فيه ويأمن جانبه ودينه[1].

ب - أشهر ولاة هارون الرشيد

ذكر خليفة بن خياط في تاريخه ولاةَ الرشيد في الأمصار[2]، ونحن لن نفصل القول في ذكر جميع ولاة الأمصار على النحو الذي ذكره، وإنما نذكر الولاية

(1) وهذه الثغور هي: منبج ودُلوك ورَعْبان وقورص وأنطاكية وتيزين الثغور وسمَّاها الرشيد العواصم. وقد قيل: إن العواصم من حلب إلى حماه. وسمِّيت العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها في ثغورهم فتعصمهم، فتكون إذًا أجناد الشام ستة: قنّسرين والعواصم وحمص ودمشق والأردن وفلسطين. انظر: ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، 1/ 28.

(2) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 461 - 464. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 3/ 285 - 286.

وأشهر من وليها ممن لهم قربة عند الرشيد أو من البيت العباسي أو معدود من القادة العظام:

1 - مكة:

عبيد اللَّه بْن قثم - إِبْرَاهِيم بْن مُوسَى بْن عِيسَى بْن مُوسَى - الْفضل بْن عَبَّاس بْن مُحَمَّد بْن عَلِيّ - القاضِي مُحَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد بْن أَبِي سَلمَة حَتَّى مَاتَ هـارُون الرشيد.

2 - اليمن:

ولَّى الرشيد خاله الْغِطْرِيفَ بْنَ عَطَاءٍ - عبد اللَّه بْن مُصعب الزبيرِي - مُحَمّد بْن خَالِد بْن برمك - حَمَّاد الْبَرْبَرِي حَتَّى مَاتَ هـارُون الرشيد.

3 - البصرة:

مُحَمَّد بْن سُلَيْمَان بْن عَلِيّ - سُلَيْمَان بْن أَبِي جعفر - جَعْفَر بْن أَبِي جَعْفَر - عَبْد الصَّمد بْن عَلِيّ بْن عبد الله بن عَبَّاس - إِسْحَاق بْن عِيسَى ابْن عَلِيّ بْن عَبْد اللَّه بْن عَبَّاس فَلم يزل عَلَى الْبَصْرَة حَتَّى مَاتَ هـارُون الرشيد وَكَانَ يسْتَخْلف إِذا شخص عَبْد الْملك الْأَنْصَارِيّ إِمَام الْمَسْجِد.

4 - الكوفة:

الْعَبَّاس بْن مُوسَى بن عيسى - مَنْصُور بْن عَطاء الْخُرَاسَانِي - مُوسَى بْن عِيسَى حَتَّى مَاتَ أَمِير الْمُؤمنِينَ هـارُون الرشيد.

5 - خراسان:

جَعْفَر بْن مُحَمَّد بْن الْأَشْعَث - الْفضل بْن يحيى بْن خَالِد بْن برمك - عَلِيّ بْن عيسي بْن ماهان - هـرثمة بْن أعين حَتَّى مَاتَ أَمِير الْمُؤمنِينَ هـارُون الرشيد.

6 - سجستان:

عَبْد اللَّهِ بْن حميد بْن قَحْطَبَةَ - يَزِيد بْن جرير من قبل الْفضل بْن يحيى بْن خَالِد

- أَحْمَد بْن الْحصين بْن عَبْد الحميد الطَّائِي فَمَاتَ بهَا واستخلف رجلًا من أَهلهَا يُقَال لَهُ بْن سَلمَة ثمَّ عَليّ القومسي ثمَّ الحكم بْن سِنَان الْبَاهِلِيّ من قبل هـرثمة حَتَّى مَاتَ هـارُون الرشيد.

7 - **السند:**

اللَّيْث مولى أَمِير الْمُؤمنِينَ - البرنسي سَالم مولى أَمِير الْمُؤمنِينَ - دَاوُد بْن يَزِيد بْن حَاتِم فَلم يزل عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ هـارُون.

8 - **الجزيرة:**

مُحَمَّد بْن خَالِد بْن برمك - خُزَيْمَة بْن خازم - يزِيد بْن مزِيد - سُلَيْمَان بْن أَبِي جَعْفَر - مُحَمَّد بْن جميل - خُزَيْمَة بْن خازم الْولَايَة الثَّانِيَة حَتَّى مَاتَ هـارُون الرشيد.

9 - **مصر:**

جَعْفَر بْن يحيى بْن خَالِد - مُوسَى بْن عِيسَى - إِسْحَاق بْن سُلَيْمَان - هـرثمة بْن أعين - حُسَيْن بْن جميل مولى أَمِير الْمُؤمنِينَ - ابْن مَاعِز الْكَلْبِيّ.

10 - **أفريقية:**

يَزِيد بْن حَاتِم حَتَّى مَاتَ يَزِيد واستخلف ابْنه دَاوُد بْن يَزِيد ثمَّ عَزله سنة 172هـ وَولى روح بْن حَاتِم - هـرثمة بْن أعين - مُحَمَّد بْن مقَاتل العكي - إِبْرَاهِيم بْن الْأَغْلَب بْن سَالم فجَاء عهد من قبل أَمِير الْمُؤمنِينَ فَلم يزل واليًا حَتَّى مَاتَ هـارُون الرشيد.

11 - **الثغور والعواصم:**

ثابت بن نصر بن مالك - إسحاق بن سليمان بن عليّ - عبد الملك بن صالح- القاسم بن الرشيد.

12 - **أذربيجان وأرمينية:**

يزيد بن مزيد- أسد بن يزيد بن مزيد.

13 - **الموصل:**

خالد بن يزيد بن حاتم - محمد بن الفضل بن سليمان - الحكم بن سليمان.

والمتتبع لأسماء الولاة الذين رضي لهم الرشيد الولاية على أمصار الخلافة وثغورها - كما في كتب التاريخ والتراجم - أنهم من البيت العباسي نفسه أو من أنصار العباسيين أو من كبار الدعوة العباسية عند إنشائها أو من أولاد هـؤلاء جميعًا. وهم وإن كانوا في موضع ثقة الرشيد - حيث يأمن جانبهم - فإن الكثير منهم كانوا في موضع الكفاءة العالية في مواجهة تحديات الإمارة ومراعاة أحوال الرعية، فجمع الرشيد بذلك بين الثقة والكفاءة في الإدارة، وهو شيء يحمد عليه.

رابعًا: الدواوين أيام الرشيد

وأصل الديوان الدفتر أو السجل بالفارسية، وقد أطلقوا اسم الديوان على المكان أو الدائرة التي يحفظ فيها من باب المجاز، يقول القاضي أبو يعلى الفراء: "والديوان بالفارسية: اسم للشياطين، فسمي الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور ووقوفهم منها على الجلي والخفي، وجمعهم لما شذ وتفرَّق، ثم سُمِّيَ مكان جلوسهم باسمهم، فقيل ديوان"[1]. والديوان موضع لحفظ ما يتعلَّق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمَّال[2].

وأول من أنشأ الديوان عند المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثرت وارداتها؛ فاحتاج إلى ضبط أحوالها فأنشأ ديوان العطاء أو الخراج، كما ازداد عدد المحاربين وكثرت الجيوش واتسع نطاق الفتوحات فرأى من الضروري تقدير أعطيات الجند وتسجيل أسمائهم، فأنشأ ديوان الجند[3].

وقد تطورت الدواوين تطورًا كبيرًا في العصر الأموي، إلا أنها لم تأخذ شكلها النهائي إلا في العصر العباسي، وأهم هـذه الدواوين:

1 - ديوان الخراج.

2 - ديوان الرسائل.

3 - ديوان المستغلات أو ديوان الإيرادات المتنوعة.

(1) أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية، 1/ 237. حسين الحاج حسن: النظم الإسلامية، ص213.

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص259.

(3) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، 237. أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص 132. بتصرف.

4 – ديوان النفقات.

5 – ديوان الصدقات.

6 – ديوان الجند.

7 – ديوان الطراز.

8 – ديوان البريد.

9 – ديوان الخاتم.

وكان من حسنات الدولة الأموية أن قامت بتعريب الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان سنة 86هـ، وأمست اللغة الرسمية في السياسة والإدارة هي اللغة العربية.

غير أن ديوان البريد قد ضعف أمره منذ خلافة مروان بن محمد، قال القلقشندي: "ثم لم يزل البريد قائمًا، والعمل عليه دائمًا، حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينتقض، ولحبلها أن ينتكث، فانقطع ما بين خراسان والعراق، لانصراف الوجوه إلى الشّيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى انقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أميّة، وملك السّفّاح، ثم المنصور، ثم المهديّ، والبريد لا يشدّ له سرج، ولا تلجم له دابّة. ثم إن المهديّ أغزى ابنه هارون الرشيد الرّوم، وأحبّ أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتّب فيما بينه وبين معسكر ابنه بردًا كانت تأتيه بأخباره، وتريه متجدّدات أيّامه. فلما قفل الرشيد قطع المهديّ تلك البرد؛ ودام الأمر على هذا باقي مدّته ومدّة خلافة موسى الهادي بعده. فلما كانت خلافة هارون الرّشيد، ذكر يومًا حسن صنيع أبيه في البرد التي جعلها بينهما، فقال له يحيى بن خالد: لو أمر أمير المؤمنين بإجراء البريد على ما كان عليه، كان صلاحًا لملكه، فأمره به، فقرّره يحيى بن خالد، ورتَّبه على ما كان عليه أيام بني أمية، وجعل البغال في المراكز، وكان لا يجهّز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر، ثم استمر على هذا"[1].

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 14/ 413 – 414..

فلما جاءت الدولة العباسية واتسعت رقعتها وكثرت خيراتها، كثرت الدواوين وتنوعت اختصاصاتها مما دعا العباسيون إلى الاستعانة بخبرة الفرس الإدارية في تنظيمها وتوسيع صلاحيتها، ولم يكن للخليفة العباسي - في دولة اتسعت رقعتها إلى ما وصلت إليه في أيام الخليفة الرشيد، وأن تستقر البلاد وتستقيم الأمور بعد أن ازدادت سلطاته وتنوعت أعماله وكثرت مشاكله الداخلية والخارجية - من أن يوزع الأعمال، ومن هـنا جاءت الحاجة إلى إنشاء عدد من الدواوين، التي قامت بالأعمال نفسها التي تقوم بها الوزارات في عصرنا الحاضر.

ومن أشهر هـذه الدواوين التي أنشئت في العصر العباسي الأول:

1 - **ديوان البريد**: وأول من استخدم البريد في الإسلام هـو معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ومهمته تنظيم الاتصالات وضروب النقل وآلات بين العاصمة ومقاطعات الدولة، ونقل الأخبار السياسية والإدارية والدينية من ولاية لأخرى. وقد زاد اهتمام الرشيد بديوان البريد، حتى جعله عينًا له على ولاته وعماله، وكان يعزل العمال ويولي غيرهم على ما يأتيه إليه من أخبار البريد.

2 - **الديوان الخاص**: الذي استحدثه أبو جعفر المنصور؛ لحفظ أسماء الأشخاص الذين صودرت أموالهم، وسمي ديوان المصادرات.

3 - ديوان الأزمة: وقد أنشأه الخليفة المهدي سنة 162هـ[1]، ومهمتها الإشراف على الدواوين الكبيرة، وقد حوله العباسيون إلى ديوان حسابات عامة لبلاد الخلافة كلها، وذلك بما يشبه ديوان المحاسبة اليوم، أو الجهاز المركزي للرقابة المالية.

3 - **ديوان النظر في المظالم**: أنشأه الخليفة المهدي كذلك، فقد أفرد العباسيون للمظالم ديوانًا خاصًا، كان بمثابة المحكمة الاستئنافية العليا، تعرض عليها الأمور التي لم يقبل أصحابها بحكم القضاة، ومهمته كذلك النظر في المظالم والشكاوى التي تتشكى منها أفراد الرعية من ظلم ولاتها، وقد تولى جعفر البرمكي رئاسة هـذا

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص106.

الديوان في عهد الرشيد.

4 - **ديوان الصوافي**: وقد استحدثه هـارون الرشيد، وهي الأراضي التي تملكها الخزينة الرسمية، والخزينة الرسمية هـذه هـي خزينة الخليفة التي اصطفاها لنفسه. وقد اهتم هـذا الديوان كذلك بجميع أملاك الدولة من تأجير واستئجار أو شراء وبيع، وهو أشبه بدائرة الأملاك العامة اليوم.

5 - **ديوان الموالي والغلمان**: استحدثه المعتصم، وتسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده.

6 - **ديوان الجهبذة**: وهو خاص بالمحافظة على مصالح غير المسلمين.

وكان يعهد بإدارة كل ديوان إلى مدير يسمى الرئيس أو الصدر، أما التفتيش فكان يقوم به مفتشون يسمون بالمشرفين أو النظار[1].

وقد توفي هـارون الرشيد وعلى نفقاته وتدبير أموره الفضل بن الربيع، وعلى ديوان الرسائل وديوان السر وديوان الضياع وديوان الصوافي إسماعيل بن صبيح، وعلى ديوان الجند ابن الشخير الهذلي وعبد الله بن عبدة الطائي، وعلى ديوان الخراج بالسواد، سليمان بن عمران، وعلى ديوان خراج الشام ومصر وإفريقية والموصل وأرمينية وأذربيجان والمدينة ومكة واليمن، علي بن صالح، وعلى ديوان خراج الجزيرة محمد بن إسماعيل بن صبيح[2].

---

(1) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص131 - 140. بتصرف. حسين الحاج حسن: النظم الإسلامية، ص213 - 216. بتصرف. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي - السياسي والحضاري، ص221.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص223 - 224.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

النظام الحربي أيام الرشيد

- أولًا : الجيش أيام هارون الرشيد.
- ثانيًا : الشرطة أيام هارون الرشيد.
- ثالثًا : أشهر القادة العسكريين أيام هارون الرشيد.

"كان من أمْيَز الخلفاء، وأجلّ ملوك الدنيا، وكان كثير الغزو والحج".

الذهبي: تاريخ الإسلام (4/ 1223)

أولًا: الجيش أيام هـارون الرشيد

تميزت الخلافة العباسية منذ نشأتها أنها تمتلك جيشًا قويًا، كثير العدد والعدة، مجهزًا بأحدث الأجهزة الحربية والأسلحة الثقيلة لمقاومة الأعداء وحماية الدولة من الخارجين. ويعد هـارون الرشيد من أكثر خلفاء العباسيين اهتمامًا بالجيش وتسليحه وتربية القادة العظام الذين يردعون الخارجين ويقودون الجيوش جهادًا وينشرون الاستقرار في ربوع الخلافة كلها. وقد انتهج الرشيد سياسة غريبة في قيادة الجيوش؛ حيث قرَّب إليه العنصر الفارسي، وجعلهم في مواضع القيادة والصدارة، ولكن يبدو أن هـذه السياسة كان لها من المخاطر ما جعل الرشيد يستدركها قبل فوات الأوان.

فقد استمرت قيادة الجيش العباسي بيد العرب إلى أن تولى هـارون الرشيد الخلافة، فقرب البرامكة وأشركهم في قيادة الجيوش، فهذا يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد خلال الفترة من (170هـ إلى 173هـ)، وبعد سنة 173هـ دعي بالأمير بعد أن سيطر على إدارة الجيش، فاجتمعت له الوزارتان السيف والقلم، ثم أصبح أبناؤه فيما بعد أمراء، وهما: موسى بن يحيى ومحمد بن يحيى، وقد جعل الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي قائدًا للجند في خراسان، وفوضه تفويضًا كاملًا فيها سنة 178هـ، فاتخذ جندًا من العجم الأتراك سماهم (العباسية)، بلغ عددهم خمسمائة ألف رجل، ثم قدم بعشرين ألف رجل منهم إلى بغداد فسموا (الكرمينية)، ولما أحس الرشيد بخطر البرامكة (الفرس)، عاد إلى وضع قيادة الجيوش في يد القادة العرب من أمثال علي بن عيسى بن ماهان ويزيد بن مزيد الشيباني وهرثمة بن أعين، وكان جعفر بن يحيى البرمكي رئيسًا لحرس الرشيد فأخذ من الكرمينية ألف جندي كحرس للقصور، وكان الرشيد يجعل للقواد وأمراء الأجناد ليلة يسألهم عن الأخبار ويذاكرهم أمر الأمصار[1].

(1) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص 87 - 88. بتصرف.

عناصر الجيش العباسي

وأما عناصر الجيش العباسي أيام الرشيد فقد كانت مكونة من عناصر متعددة، منها: العرب والخرسانية والموالي والأتراك والأبناء والغلمان والشاكرية والمغاربة والصعاليك والزنج وغيرهم. ولعل أبرز هـذه العناصر التي ظهرت في أوائل عهد الرشيد عنصر الأبناء، فيقال: (أبناء أهل خراسان) و(أبناء الدولة) و(أبناء الشيعة)، ويطلق هـذا المصطلح بأشكاله المتعددة على ذوي الأصول الخرسانية، أي أبناء وأحفاد أهل خراسان جند الدعوة العباسية.

وقد سكن الأبناء بعض مدن العراق بالإضافة إلى بغداد، وقد وجد هـارون الرشيد في مدينة الأنبار عندما زارها سنة 180هـ عددًا من أبناء أهل خراسان يقطنونها، وقد حافظوا على وحدتهم وانسجامهم. وقد ورث الأبناء مراكز آبائهم في الدولة والجيش، إلا أنهم مالوا إلى الاستقرار والدّعة بدلًا من إخماد الفتن والثورات؛ ولذلك لما وجد الرشيد ميل الأبناء إلى الدعة والسكون اتجه إلى خراسان نفسها، وقد أوكل هـذه المهمة إلى الفضل بن يحيى البرمكي، الذي نجح في جلب عناصر جديدة (العباسية) موالي أمير المؤمنين، وقد أرسل منهم عشرين ألفًا إلى بغداد، فأرسلهم الرشيد إلى الحدود البيزنطية.

ويبدو أن ولاء الجند العباسية أو الكرمينية لآل برمك أزعج هـارون الرشيد فقام سنة 179هـ بعزل الفضل البرمكي عن خراسان وجعلها لعلي بن عيسى بن ماهان، ثم قام بتسريح الجند العباسية، وقد انضم جزء منهم بعد ذلك إلى ثورة رافع بن الليث. كما قام الرشيد بتسريح الجند العباسية الذين في بغداد إلى الحدود البيزنطية وأبقى فرقة عربية في بغداد لحفظ التوازن[1]. ويبدو من هـذا أن ميل الرشيد للبرامكة وتقليدهم زمام الحكم والجيش كان ميلًا عاطفيًا من الرشيد لمؤدبه ومربيه يحيى البرمكي، ولكن سرعان ما رجع عن ميل الهوى إلى ميل العقل

(1) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، 95 – 119. بتصرف.

وحفظ الملك.

ولم يقتصر الرشيد في عناصر جيشه على العرب والفرس فقط، بل نجد العنصر التركي حاضرًا وفي قصر الرشيد نفسه، فقد اتخذ الرشيد الترك في بلاطه ومنهم خادمه خاقان، وإخشيد، وأبو سليم فرج الذي ولاه الأهواز. بل واتخذ الرشيد فرقة من الأتراك من حرس الخليفة. كما اتخذ الرشيد حامية تركية مقيمة لإقرار النظام وقمع الفتن في مدينة زَرَنْج (قصبة سِجِسْتَانُ) سنة 180هـ[1]. وقد بلغ عدد الجيش العباسي مئات الألوف الذين يكوِّنون الجيش النظامي للدولة، وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام[2].

(1) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، 118 - 119. بتصرف.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 223.

ثانيًا: الشرطة أيام هارون الرشيد

من النظم الإدارية الهامة في العصر العباسي عامةً نظام الشرطة، والشرط جمع شرطة وشرطي، وهم أعوان السلطان لتتبع أحوال الناس وحفظهم، ولإقامة الحدود[1]. ويقول ابن خلدون: "وكان أصل وضعها في الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم في حال استبدادها أوّلا، ثمّ الحدود بعد استيفائها، فإنّ التّهم التي تعرض في الجرائم لا نظر للشّرع إلّا في استيفاء حدودها، وللسّياسة النّظر في استيفاء موجباتها، بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفّت به القرائن، لما توجبه المصلحة العامّة في ذلك، فكان الذي يقوم بهذا الاستبداد وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزّه عنه القاضي يسمّى صاحب الشّرطة، وربّما جعلوا إليه النّظر في الحدود والدّماء بإطلاق، وأفردوها من نظر القاضي، ونزّهوا هـذه المرتبة وقلّدوها كبار القوّاد وعظماء الخاصّة من مواليهم"[2].

وهكذا أنيط بنظام الشرطة حفظ الأمن في جميع أنحاء الخلافة العباسية، لذلك نرى أن صاحب الشرطة كان يُختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة، وهو أشبه بالمحافظ في هـذا العصر؛ لأنه عبارة عن رئيس الجند الذين يساعدون الوالي على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين.

ولم تكن مهمة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس، ولكن كان حكمها على أهل الريب، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة[3]. ومن أشهر أنواع الشرطة

(1) عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية، 1/ 22.

(2) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 2/ 635.

(3) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 221. بتصرف.

شرطة الحرس، وهم على أنواع: منهم الحرس الشخصي للخليفة وأقربائه، ومنهم حرس جسور المدينة، ودوائر الدولة الرسمية، ومنهم حرس الأبواب الرئيسية للبلد وأسواره، بالإضافة إلى الحرس الليلي لبغداد ومدن العراق الأخرى[1].

وقد ذكر خليفة بن خياط وابن حبيب واليعقوبي أبرز من تولى الشرطة أيام هارون الرشيد، وهم:

القاسم بن نصر بن الهيثم الخزاعي ثم عزله، وجعل خزيمة بن خازم ثم عزله، وجعل المسيب بن زهير ثم عزله، وأعاد خزيمة بن خازم ثم عزله، وجعل عبد الله بن مالك ثم عزله، وجعل عبد الله بن خازم ثم عزله، وأعاد خزيمة بن خازم ثم عزله، وأعاد عبد الله بن مالك ثم عزله، وأعاد عبد الله بن خازم ثم عزله، وجعل علي بن الحجاج ثم عزله، وجعل إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكي ثم قتله[2]، وجعل مكانه وهب بن إبراهيم وسماه عثمان بن عثمان ثم عزله، وجعل ابن الشخِّير حتى مات هـارون الرشيد[3].

والملاحظ من تتبع الأسماء أن الرشيد كان دائم العزل والتولية لرجال شرطته، وهذا وإن كان في ظاهره خللًا إداريًّا، إلا أن العذر له، فقد كان خزيمة بن خازم من كبار رجال دولته ومن عظماء قادته العسكريين الذين كان يعتمد عليهم اعتمادًا كليًا في قمع الخارجين والقضاء على الثورات والقلاقل في نواحي الثغور وغيرها،

(1) دريد عبد القادر نوري: الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، السنة الثانية عشرة – العدد 29 – 1986م، ص224.

(2) قتله الرشيد سنة 187 هـ؛ لأنه حزن على مقتل البرامكة ولا سيما جعفر بن يحيى البرمكي ثم خرج من حيز البكاء إلى حيز الانتصار لهم والأخذ بثأرهم، فكان إذا شرب النبيذ مع جواريه أخذ سيفه، ويقول: واجعفراه! واسيداه! والله لأقتلن قاتلك ولأثأرن بدمك. فعلم الرشيد بذلك من ابنه عثمان فأمر الرشيد بقتله. انظر: ابن كثير: البداية والنهاية 13/ 647 – 648.

(3) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 465. ابن حبيب: المحبر، 1/ 375. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف، 3/ 159. وقد اعتمدنا في ترتيب من تولى شرطة الرشيد على ما ذكره ابن حبيب في المحبر.

فلذلك كان يعزله عن شرطته ثم يوليه إمارة أرمينية وأذربيجان أو البصرة ليقيم الاستقرار في ربوعها. وأما عبد الله بن خازم فقد كان من كبار رجال دولة الرشيد كذلك، وقد ولاه طبرستان ورُويَان سنة 180هـ.

ثالثًا: أشهر القادة العسكريين أيام هارون الرشيد

كانت قيادة الجيش في العصر العباسي الأول من أهم مناصب الدولة، وقد تولى الخلفاء العباسيون الأوائل منصب قائد الجيش، مثل المنصور والمهدي والرشيد. ولا شك أن الرشيد كان من أعاظم القواد، ولا شك أن قادة جيشه ودولته كانوا كذلك.

ومن أشهر القادة العسكريين أيام الرشيد رحمه الله:

1 - هرثمة بن أعين

واحد من أهم الشخصيات العسكرية في التاريخ الإسلامي، وأحد عظماء القادة في دولة بني العباس قاطبة، وقد تميز بعقلية عسكرية وسياسية فذة، فهو درع خلفاء بني العباس في القضاء على حركات المتمردين والخارجين وخاصة في الثغور الإسلامية وبلاد إفريقية وخراسان. وكان هرثمة يلقب بـ (ذي الحكمين).

احتل هـرثمة بن أعين مكانة كبيرة في قلوب خلفاء بني العباس وقلب الرشيد خاصة، فلهرثمة جميلة على الرشيد لم ينسها له طوال أيامه، فهو صاحب الفضل الأول بعد الله تعالى في إتمام عقد الخلافة لهارون، فحين عزم الهادي على خلع الرشيد وبيعة ولده جعفر، كان هـرثمة بن أعين أول الرافضين لتلك البيعة، وقد عزم الهادي على قتل الرشيد ويحيى بن خالد البرمكي، إلا أنه عجلت به منيته، فجاء هـرثمة بن أعين وأقعد الرشيد على كرسي الخلافة، فدعا الرشيد بيحيى البرمكي واستوزره، وأمر بإنشاء الكتب إلى الأطراف بجلوسه للخلافة وموت الهادي[1].

ويبدو أن القائد هـرثمة بن أعين كان محبوبًا لدى الرشيد ومحل ثقته في أداء

(1) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 230. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 273.

واجباته ومهامه؛ لذا احتل عدة مناصب عسكرية وإدارية في آن، فقد ولاه الخليفة هارون الرشيد واليًا على مصر سنة 178هـ، ثم عينه واليًا على إفريقية سنة 179هـ، وتمكَّن من ضبط البلاد والقبض على المعارضين، أمثال ابن الجارود الذي عبث بأمن إفريقية، فتمكن هرثمة من القبض عليه وإرساله إلى الرشيد، وبذلك فرض الأمن والنظام في إفريقية، وجدد ما تخرب من المدن والموانئ والمنشآت. ومن جملة أعمال هرثمة بن أعين أنه بنى سور طرابلس الغرب من جهة البحر، والقصر المعروف بالمستنير، وكان الهدف من هذه الأعمال هو أنه كان مولعًا بالعمران، وكان يهدف إلى ترك أثر في كل مكان يليه في عمل، فضلًا عن ذلك كان يهدف إلى إعادة ثقة الناس بالدولة العباسية. ومن إنجازات هرثمة في القيروان - التي عُدَّت من محدثاته سنة 180هـ خلال مدة إقامته بالقيروان - أن قام بحفر بئر فيها ويسمى بئر روطة، ويعد هذا البئر من أقدم الآبار بالقيروان ولم يذكر اسم بئر روطة إلا في القرن الخامس الهجري، وكان البئر واسع الفم، لها سفرة رخام، غزيرة الماء، وأنشأ الرباط والتي ترتبط بالجهاد أو حراسة الثغور البحرية.

وبلغت القيروان أوج تطورها في عهد واليها هرثمة بن أعين (179 - 181هـ/ 793 - 795م)، حيث تولى هرثمة ولاية المغرب سنتين ونصف، إلا أنه اعتذر عنها، فاستقدمه الرشيد وجعله على حرسه، ثم ولاه غزو الصائفة سنة 191هـ وفي سنة 192هـ عزل علي بن عيسى بن ماهان عن خراسان وولاها هرثمة بن أعين، وظل بها حتى وفاة الرشيد سنة 193هـ[1].

ولما بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون، انحاز إلى المأمون، فقاد جيوشه

(1) انظر: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 256، 323. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 604، 14/ 6. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 88، ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1/ 89. سميعة عزيز محمود: القائد العباسي هرثمة بن أعين ودوره السياسي والعسكري في العصر العباسي الأول، جامعة ديالي، كلية التربية الأساسية، مجلة الفتح، المجلد - العدد 36، أكتوبر 2008م. ص91 - 93، بتصرف.

وأخلص له الخدمة حتى سكنت الفتنة بمقتل الأمين سنة 198هـ. وانتظمت الدولة للمأمون، فنقم المأمون عليه أمرًا، قيل: اتهمه بممالأة إبراهيم بن المهدي أو بالتراخي في قتال الطالبيين وأبي السرايا الثائر، فدعاه إليه المأمون وشتمه وضربه وحبسه. وكان وزير المأمون الفضل بن سهل يبغضه، فدس إليه من قتله في الحبس سرًا بمرو سنة 200هـ[1].

2 - يزيد بن مزيد الشيباني

فارس بني العباس ووالي غزواتهم أبو خالد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني[2]، واحد من أمراء العرب المعدودين، وقلائل الشجعان المعروفين، والأجواد المذكورين، وكان يزيد بن مزيد مع فرط شجاعته وكرمه من دهاة العرب.

ولد يزيد بن مزيد في الربع الأول من القرن الثاني الهجري، ونشأ وترعر في البادية وكانت أسرته أسرة عسكرية رفيعة المستوى على رأس رجالاتها القائد الشهير والشخصية البارزة معن بن زائدة عمه الذي كان يدنيه ويعتمد عليه ويقدِّمه على بنيه لما يرى فيه من فتوة وعصامية.

بدأت رحلة يزيد بن مزيد العسكرية في سن مبكرة، وذلك منذ خلافة المنصور العباسي؛ حيث كان رفيق عمه معن بن زائدة في حملاته العسكرية الرامية إلى إخضاع الخوارج في اليمن وسجستان، وفي عهد الخليفة المهدي علت رتبة يزيد حتى صار من خواص المهدي وأشهر قواده، واختاره لقيادة الحملة العسكرية التي جهزها سنة 160هـ للقضاء على فتنة يوسف الْبَرْمِ في الجنوب الشرقي من خراسان، وقد استطاع يزيد أسر يوسف وأرسله مقيدًا إلى المهدي مما عزز مكانته العسكرية في الدولة وجعله بطلًا فذًّا في أعين الناس.

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 542 - 543. الزركلي: الأعلام، 8/ 81.

(2) من الكتب الهامة في سيرة يزيد بن مزيد، كتاب: عبد الجبار الجومرد: غرة العرب من شيبان يزيد بن مزيد القائد الأعلى لدولة هارون الرشيد، بيروت - دار الطليعة 1961م.

كما كان يزيد بن مزيد رفيق الرشيد رحمه الله عندما أرسله أبوه المهدي إلى غزو الروم سنة 165هـ، وفيها تحدى يزيد بن مزيد الشيباني خصمه نقيطا قومس القوامسة (أي رئيس أركان الجيش الرومي)، والتقيا بين الجيشين وعلى مرأى من المعسكرين فبرزا فتجاولا على فرسيهما ساعات من النهار قُتل فيها حصان يزيد فهجم على خصمه فأرجله ثم تجالدا بالسيوف وتصارعا على الأرض حتى ظن الناس أنهما سيقتلان بعضهما البعض، ولكن يزيد أثخن صاحبه فقتله، وعندها أطبق المسلمون على الروم فلم تمض ساعة حتى انكشفوا عن الميدان هاربين وتبعهم يزيد حتى حاصر مدينة بنقمودية بلد الدمستق (وزير الدفاع الرومي) الذي كانت مستودعات السلاح والذخائر بين يديه فلم تطل مقاومته بل استسلم لـيزيد، وتبع يزيد بعد ذلك رحلته في بلاد الروم إلى أن ألقى مراسي جيشه حول أسوار القسطنطينية عاصمة البيزنطيين مقسِمًا أن يخربها أو تدفع الجزية لبيت مال المسلمين، وقد رضخت الملكة إيريني (أغسطة) الوصية على عرش ولدها الطفل (قسطنطين السادس بن أليون) للجزية، وكانت حملة يزيد بن مزيد الشيباني هذه على القسطنطينية أول حملة برية يصل فيها المسلمون بطريق البر إلى أسوار العاصمة الرومية. وقد عاد يزيد بجيشه ليستقبله المهدي في قصر الخلد (قصر الخلافة) في حفل استعراضي رائد كان أجمل ما فيه وأبهاه منظر الجموع الضخمة من أسرى المسلمين المستخلصين من سجون الروم بعد يأس وقنوط، فكان يومًا لم تشهد الأمة المسلمة أعظم سرورًا وابتهاجًا منه[1].

ومن أجل هذه الوقعة العظيمة وغيرها قال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن مزيد وهو خارج من عند المهدي، فأخذت بعنان دابته، وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد بكل بيت منها مائة ألف. قال: هات، لله أبوك، فأنشأت أقول:

يا أكرم الناس من عجم ومن عرب ... بعد الخليفة يا ضرغامة العرب

(1) انظر أخبار يزيد في تلك الحملة في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 152 – 153.

أفنيت مالك تعطيه وتنهبه ... يا آفة الفضة البيضاء والذهب

إن السنان وحدُّ السيف لو نطقا ... **لأخبرا عنك في الهيجاء بالعجب**

وبعد سنتين من رحلة يزيد بن مزيد إلى بلاد الروم انتدبه الخليفة المهدي عام 167هـ للعمل على إخماد ثورة اندلعت في طبرستان بزعامة (نداهرمز وشروين صاحبي طبرستان) من زعماء القبائل الجبلية الشرسة، فرحل يزيد إلى طبرستان مع قوة اختارها لرفقته بعناية وخبرة، وبعد مضي سنتين من الكر والفر استطاع يزيد بمكره ودهائه أن يوقع بهما شر هزيمة، ويعود بعدها سنة 169هـ إلى بغداد مقر الخلافة ليستجم من عناء تلك الرحلة القاسية.

وتتابع الأحداث الجسام في تاريخ الدولة العباسية حتى تؤول الخلافة إلى هارون الرشيد سنة 170هـ، ووقتها علت رتبة يزيد بن مزيد إذ كان من رجالات الدولة المعدودين أيام الرشيد، وقد سبقت مواقفه وشجاعته وطار ذكره بذلك في الآفاق، حتى صار من أخلص قواد الرشيد ومقربيه، وكان فيما وليه أيام الرشيد أعمال الموصل والجزيرة وإمارة اليمن ثم ولَّاه أرمينية سنة 171هـ، ثم عزله عنها واستعمل عليها أخاه عبيد الله بن المهدي سنة 172هـ؛ ليبقيه لمهامه العسكرية الكبرى.

وفي سنة 178هـ خرج الوليد بن طريف الشاري وكانت تلك أخطر ثورة للخوارج ضد العباسيين، فقد وصلت طلائع قواته إلى أسوار بغداد دار الخلافة نفسها، ولم تستطع الحملات المتعددة أن تنال من الوليد بن طريف حتى انتدب هارون الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني للقائه وكسر شوكته، فقال الشاعر:

لا تبعثن إلى ربيعة غيرها ... إن الحديد بغيره لا يفلح

وروي أن هارون لما جهز يزيد إلى حرب الوليد أعطاه ذا الفقار سيف النبي ﷺ، وقال: «خذه يا يزيد فإنك ستنصر به»، فأخذه ومضى، وفي ذلك يقول الشاعر مسلم بن الوليد في قصيدة يمدح فيها يزيد:

أذكرت سيف رسول الله سنته　　　وبأس أول من صلى ومن صاما

خرج يزيد بن مزيد راحلًا إلى الوليد بن طريف، وجعل يحايله ويماكره، وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد، فأغروا به الرشيد، وقالوا له إنه يراعيه لأجل الرحم، وإلا فشوكة الوليد يسيرة، وهو يواعده وينتظر ما يكون من أمره، فوجَّه إليه الرشيد كتابًا يقول فيه: «لو وجَّهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن متعصِّب، وأمير المؤمنين يقسم بالله، لئن أخَّرت مناجزة الوليد ليبعثنَّ إليك من يحمل رأسك إليه».

فلقي الوليد عشيَّة خميس في شهر رمضان سنة 179هـ، وبرز يزيد من بين الصفين ونادي: «يا وليد ما حاجتك إلى التستر بالرجال، أبرز لي؟!»، فخرج الوليد مفتخرًا بنفسه معتدًا بها، وتلاقى الرجلان على حذر شديد وطال بينهما الأخذ والرد ساعات طويلة من النهار القائظ حتى كلَّ فرساهما وأجهدا، وأدرك يزيد العطش وجف ريقه وهو صائم، حتى رمى بخاتمه في فيه وجعل يلوكه ويقول: «اللهم إنها شدَّة شديدة فاسترها»، وقال لأصحابه: «فداكم أبي وأمي، إنما هي الخوارج ولهم حملة فاثبتوا، فإنهم إذا انهزموا لم يرجعوا».

فكان كما قال، إذ حين بدأت المعركة حمل أصحاب الوليد عليهم حملة شديدة، فثبت يزيد ومن معه، ودارت رحى معركة قاسية، ثم نادى يزيدُ الوليدَ، وقال: «يا وليد، ما حاجتك إلى التستُّر بالرجال؟ ابرز إليَّ».

فبرز الوليد وهو يرتجز:

أنا الوليد بن طريف الشاري
قسورة لا يصطلي بناري
جوركم أخرجني من داري

وتقدَّم من يزيد وهو يضيف:

ستعلم يا يزيد إذا التقينا　　بشطِّ الزاب إيُّ فتىً يكون

ووقف المعسكران ينظران وينتظران نتيجة اللقاء بينهما، فتطاردا ساعة فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط على الأرض، وارتمي فوقه يزيد فأجهز عليه، ووجه يزيد برأس الوليد إلى الرشيد، وبكتاب الفتح مع ابنه أسد بن يزيد، وفي ذلك يقول أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المشهور، وكان منقطعًا إلى يزيد ومختصًا به:

سل الخليفة سيفًا من بني مطرٍ　　يمضي فيخترق الأجسام والهاما

لولا يزيد ومقدار له سبب　　عاش الوليد مع العامين أعواما

أكرم به وبآباءٍ له سلفوا　　أبقوا من المجد أيامًا وأياما

ولما وصل الخبر إلى الرشيد اعتمر في شهر رمضان، شكرًا لله على قتل الوليد بن طريف[1].

ولما انصرف يزيد بن مزيد إلى الرشيد قدَّمه ورفع مرتبته، وولَّاه أذربيجان، ثم كانت آخر الصفحات الناصعة للقائد العظيم يزيد بن مزيد عندما خرج سنة 183هـ لملاقاة الخزر ما وراء خراسان، فقد فتك خاقان الخزر بالمسلمين وأهل الذمة، وسبى أكثر من مائة ألف مسلم، وانتهك الخزر أمرًا عظيمًا لم يسمع بمثله في الإسلام، فولى الرشيد أرمينية يزيد بن مزيد مضافًا إلى أذربيجان، وقواه بالجند، ووجهه إليهم، وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءًا لأهل أرمينية. واستطاع يزيد بشجاعته وبسالته أن يطبق على خاقان الخزر في ملحمة ضارية تضعضع فيها جيش

(1) انظر تفاصيل ثورة رافع بن ليث في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 256، 261. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 304 - 306، 309. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 31 - 32، 6/ 326 - 328. اليافعي: مرآة الجنان، 1/ 310. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 3/ 213.

الخاقان وولّى هاربًا، وبعد سبعين يومًا أقام فيها يزيد مُصلحًا ما أفسده الخزر عاد يزيد مظفرًا منتصرًا[1].

ذلك كان بعضًا من أخبار يزيد بن مزيد الحربية، فقد كانت سمعته العسكرية وصيته الذائع خير معين له على عدوه، حتى قال صريع الغواني مسلم بن الوليد:

قد عوَّد الطَّيْرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها ... فهنَّ يتْبَعْنَه في كلِّ مُرْتَحَلِ

يعني: أنَّ الطَّير تنتظر أيام يزيد ومعاركه لتفترس أشلاء القتلَى في وقائعه. فلما سمع يزيد بذلك أمر حاجبه أن يبيع ضيعةً له ويعطي الشاعر خمسين ألفًا، فبلغ ذلك الرشيد فأرسل إليه بمال عظيم، وقال: زده خمسين ألفًا.

وقد علت شهرة يزيد بالشجاعة والكرم والمروءة؛ فوفد إليه الشعراء يمدحونه راغبين في عطائه. روي أن سلم الخاسر هجا يزيد بن مزيد، فقال:

ليت الأمير أبا خالد ... يزيد، يزيد كما ينتقص

فحلف يزيد بن مزيد أن يقتله إن وقع في يده، فقال سلم الخاسر يمدح يزيد بن مزيد:

إن لله في البرية سيف ... ين يزيدًا وخالد بن الوليد
ذاك سيف النبي في سالف الدهـ ... ـر وهذا سيف الإمام الرشيد
ما مقامي على الثماد وقد فا ... ضت بحور الندى بكفي يزيد[2]

وقال يزيد بن مزيد: أرسل إليَّ الرشيد يومًا في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي، فأتيته لابسًا سلاحي مستعدًا لأمرٍ إن أراده، فلما رآني ضحك إليَّ وقال: من الذي يقول فيك:

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 270. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 331. ابن عبد ربه: العقد الفريد، 1/ 213.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 490. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1008.

تراه في الأمن في درعٍ مضاعفة   لا يأمن الدهر أن يُدْعَى على عجل

فقلت: لا أعرفه يا أمير المؤمنين. فقال: «سوءةً لك من سيد، قوم يُمْدَحُ بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله!، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله، هو مسلم بن الوليد»، فانصرفت ودعوت به ووصلته ووليته[1].

وفي يزيد بن مزيد قال منصور النمري:

لو لم يكن لبني شيبان من حسب   سوى يزيد، لفاتوا الناس بالحسب

وكان يزيد بن مزيد يكنى في السلم بأبي خالد، وفي الحرب بأبي الزبير، قال مسلم بن الوليد الأنصاري:

لولا سيوف أبي الزبير وخيله   نشر الوليد بسيفه الضحَّاكا

ومع كل هذا وذاك من الجود والكرام والشجاعة فقد كتب له أن يموت خارج بلاده، فقد ولاه الرشيد أقاليم أرمينية وأذربيجان معًا التي دوَّخ الأعداء فيها فخرج بجنده إلى مدينة بَرْذَعَة في أقصى أذربيجان؛ لتكون مقر إقامته وذلك في النصف الثاني من عام 184هـ، ولم يطل مقامه كثيرًا فقد ختم حياته برحلة لا عودة فيها إذ فاجأه الموت عام 185هـ على فراشه[2].

ولما مات يزيد بن مزيد قام حبيب بن البراء خطيبًا، فقال: «أيها الناس، لا تقنطوا من مثله وإن كان قليل النظير، وهبوه من صالح دعائكم مثل الذي أخلص فيكم من نواله، والله ما تفعل الديمة الهطلة في البقعة الجدبة ما عملت فينا يداه من عدله ونداه»[3].

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 332 - 333.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 490. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 339.

(3) أبو إسحاق القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، 4/ 1149.

3 - خزيمة بن خازم التميمي

واحد من سادة العرب وممن لهم منزلة ومكانة في نفوس الخلفاء العباسيين، ومن أكابر القواد في عصر الرشيد والأمين والمأمون. قال الخطيب البغدادي: "وَأظن أصله خراسانيا إِلا أنه نزل بَغْدَاد وَأقام بِهَا إِلَى حين وَفاته"، وكان خزيمة بن خازم من بيت عظيم ذي مكانة في تاريخ الدعوة العباسية، فأبوه خازم بن خُزيمة التميمي من النُقباء السبعين المشاهير في دولة بني العباس، كما يعد هو القائد الأول بعد أبي مسلم الخرساني في وقت التأسيس، وكان بنو العباس إذا حلَّت بهم مصيبة ووقعت بهم كارثة استجلبوا خازم بن خزيمة أو ولدهُ خزيمة بن خازم، ولذلك عرف خزيمة بن خازم في بلاط العباسيين بـ (القائد)، حتى صار ذلك اللقب علمًا عليه في كتب المؤرخين.

وفي خزيمة وأهل بيته يقول الشاعر:

خُزيمةُ خيرُ بني خازم   وخازمُ خيرُ بني دارمِ
ودارِمُ خيرُ تميمٍ وما   مِثلُ تميمٍ في بني آدمِ
ولا ألوتُ الغُزَّ مِن هاشم   وهمْ سُيوفٌ لبني هاشمِ[1]

وقد حظي خزيمة بن خازم بمكانة كبيرة عند الرشيد منذ أول خلافته، وذلك أن موسى الهادي كان قد عزم على خلع الرشيد وعهد لابنه جعفر من بعده سنة 169هـ، فلمَّا مات الهادي سنة 170هـ، هجم خزيمة بن خازم فى ليلة وفاته فأخذ جعفرا من فراشه، وكان خزيمة في خمسة آلاف من مواليه معهم السلاح، فقال: "والله لأضربنَّ عنقك أو تخلعها"، فلمَّا كان الصبح ركب الناس إلى باب جعفر، فأتى به خزيمة فأقامه على باب الدار في العلو والأبواب مغلَّقة فأقبل جعفر ينادى:

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 9/ 301. السمعاني: الأنساب، 10/ 313. أبو عبيد البكري: سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، 1/ 697.

"يا معشر الناس، من كانت لي في عنقه بيعة فقد أحللته منها والخلافة لعمِّي هارون ولا حقَّ لي فيها"(1).

وكانت أول وقائع خزيمة بن خازم أيام الرشيد في أرمينية، فعندما مات المهدي انتفضت أرمينية إلى أن مات الهادي كذلك، فبعث إليهم الرشيد قائده خزيمة فقام بها سنة وشهرين، وضبطها أحسن ضبط فصلحت البلاد، وأعطي أهلها الطاعة. ثم ولَّاه الرشيد أذربيجان فبنى سورها وحصَّنها ومصَّرها وأنزلها جندًا كثيفًا(2).

كما كان خزيمة بن خازم قائد شرطة الرشيد سنة 172هـ ثم عزله عنها، وولَّاه البصرة والجزيرة، ولما خرج الخزر وأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة سنة 183هـ جعله الرشيد على نصيبين ليكون ردءًا ليزيد بن مزيد والي أرمينية وأذربيجان، وقد استطاع القائدان أن يصلحا ما أفسده خاقان الخزر وأعادا الهدوء للمنطقة.

كما ولي خزيمة بن خازم للرشيد قنسرين وحلب والعواصم في سنة 193هـ، وقيل إن ابنه القاسم بن هارون كان معه، ولما توفي الرشيد ولى الأمين أخاه القاسم على قنسرين والعواصم وولى خزيمة بن خازم الجزيرة وحدها، ثم عزل أخاه عن قنسرين سنة 194هـ وولاها خزيمة بن خازم، ثم إن الأمين ولى عبد الملك بن صالح الجزيرة والشام بعد أن أخرجه من حبس أبيه الرشيد بعد موته، فلما توفي عبد الملك بن صالح ولى خزيمة بن خازم قنسرين وحلب والعواصم سنة 197هـ(3).

ولمَّا عظم الخلاف بين الأمين والمأمون، وهمَّ الأمين أن يخلع أخاه المأمون كتب إليه خزيمة بن خازم: "يا أمير المؤمنين، لن ينصحك من كذبك، ولن يغشك من صدقك، لا تجريء القوَّاد على الخلع فيخلعوك، ولا تحملهم على نكث العهد

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 232 – 233.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص321. ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5/ 93.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 270. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 331. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، 7/ 3256. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1032.

فينكثوا بيعتك وعهدك، فإن الغادر مغلول والناكث مخذول"، ولمَّا لم ينتصح انحاز خزيمة إلى أصحاب المأمون، واشترك في حصار بغداد إلى أن قُتل الأمين، وكان خزيمة على قنسرين وحلب والعواصم فعزله عنها المأمون سنة 198هـ ووليها عبد الله بن طاهر، وظل خزيمة بن خازم مقيمًا في بغداد إلى وفاته يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة 203هـ بعد أن عمي[1].

4 - **موسى بن يحيى البرمكي**

أحد القادة الشجعان في العصر العباسي، ومن كبار أمراء الدولة، وإن كان يحيى بن خالد البرمكي وولده قد تفرَّد كل منهم بخصال وشمائل، فإن موسى بن يحيى كان شابًا شجاعًا كافيًا ذا دَهاء ورأي. يحكي القاضي يحيى بن أكثم قال: سمعت المأمون يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة، ولقد صدق القائل حيث يقول:

أولاد يحيى أربع ... كأربع الطبائع

فهم إذا اختبرتهم ... طبائع الصنائع

قال القاضي: فقلت له يا أمير المؤمنين، أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم، ففيمن الشجاعة فقال: في موسى بن يحيى، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند[2].

وعن يحيى وولده يقول المسعودي: "لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروه وبعد همته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه"[3].

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 9/ 301. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، 7/ 3256. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص219.

(2) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 221 – 222.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 304.

وقد نال القائد موسى بن يحيى البرمكي ثقة أبيه يحيى وخليفته الرشيد، ولشجاعته ونبله صار سيف هارون الذي يقرع به المخالفين، ودرعه الحصين ضد الخارجين، ومن دلائل هذه الثقة أنه في سنة 176هـ هاجت العصبية القبلية بين النزارية (القيسية) واليمانية، فقتل بينهما بشرٌ كثير، وكان العامل على الشام حين هاجت الفتنة موسى بن عيسى، فلم يستطع أن يقاوم الفتنة وعجز عنها، واضطرب الأمر بالشام وكثرت الدماء وتفاقم الأمر، فبعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى البرمكي وضم إليه من القواد والجنود جماعة، فأصلح بين أهلها، وسكنت الفتنة، وفي ذلك يقول بعض الشعراء يمدح موسى بن يحيى:

قَدْ هاجَتِ الشَّامُ هيْجًا ... يُشِيبُ رَاسَ وَلِيدِهِ
فَصَبَّتَ مُوسَى عَلَيْهَا ... بِخَيْلِهِ وَجُنُودِهِ
فَدَانَتِ الشَّامُ لَمَّا ... أَتَى نَسِيجُ وَحِيدِهِ
هَذَا الْجَوَادُ الَّذِي بَذّ ... كُلَّ جُودٍ بِجُودِهِ
أَعْدَاهُ جُودُ أَبِيهِ ... يَحْيَى وَجُودُ جُدُودِهِ
فَجَادَ مُوسَى بْنُ يَحْيَى ... بِطَارِفٍ وَتَلِيدِهِ
وَنَالَ مُوسَى ذُرَى الْمَجْـ ... ـدِ وَهُوَ حَشْوُ مُهُودِهِ
خَصَصْتُهُ بِمَدِيحِي ... مَنْثُورِهِ وَقَصِيدِهِ
مِنَ الْبَرَامِكِ عُودٌ ... لَهُ فَأَكْرِمْ بَعُودِهِ
حَوَوْا عَلَى الشِّعْرِ طُرًّا ... خَفِيفِهِ وَمَدِيدِهِ[1]

(1) انظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 251 – 252. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 518. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 18. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 582 – 584.

ولما نكب هارون الرشيد البرامكة سنة 187هـ كان موسى بن يحيى في بلاد السند، فبقي بها وقد عرف الأمين والمأمون له فضله وشجاعته، كما كان موسى مقدَّمًا عند ولاة السند جميعًا، حتى عندما عاد غسان بن عباد ببشر بن داوود المهلبي سنة 216ه مستأمنًا إلى دار السلام، لم يجد من يخلفه على ثغر السند أكفأ من موسى بن يحيى البرمكي، فقام بالأمر وأحسن إلى الناس.

والذي يظهر من وفيات الأعيان أنه قبل رجوع غسان إلى العراق سنة 216هـ كتب إليه المأمون بتولية موسى بن يحيى ثغر السند، فتولاه، واستطاع بدهائه وشجاعته أن يقتل راجه بالا ملك الشرقي من تلك الأطراف وقد أعجز ولاة السند من قبله، وكان قد امتنع عن الحضور إلى معسكر غسان فيمن حضر من الملوك. وحسنت سيرة موسى بن يحيى البرمكي وأثَر أثرًا حسنًا في ولايته، فاستمر حتى مات سنة 221هـ، وقام ولده عمران بن موسى البرمكي بالأمر من بعده[1].

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ص428. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 568. عبد الحي بن فخر الدين الحسني الطالبي: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، 1/ 53، 56 – 58. الزركلي: الأعلام، 7/ 331.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

سياسة الرشيد ضد الثورات الداخلية

- **أولًا : ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار.**
- **ثانيًا : ثورات الخوراج :**

أ - ثورة الوليد بن طريف الشاري.

ب - ثورة العطاف بن سفيان الأزدي.

- **ثالثًا : ثورة أبي النداء.**
- **رابعًا : ثورة الخرمية.**
- **خامسًا : ثورات البربر في إفريقية.**
- **سادسًا : ثورات اليمن.**
- **سابعًا : ثورة الخزر.**

”ما من نفس تَموت أشد عليَّ موتًا من هـارون أمير المؤمنين، ولوددت أن الله زاد في عمره من عمري“

الفضيل بن عياض. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، (16/ 13 – 18)

إن حياة الرشيد لم تكن كما يُتصور في الأذهان، حياة قصور ودواوين، حدائق ومقاصير، لقد عرفت أيام الرشيد من الاضطرابات والقلاقل ما ندر أن يجتمع مثله لخليفة واحد، وعرفت من الصراعات ما حمل ثقل الماضي برمَّته وناء بكلكله عن حكم الرشيد، يضغط عليه ويكاد يحدُّ من انطلاقه، والرشيد بحيوية دائمة الشباب وعنفوان إرادة لا تلين، وحب لقيادة الجيوش كبير، ورغبة صادقة في السهر على راحة الناس، وتأكيد هيبة الملك ونيل رضا الله، عاش وجهًا آخر للخلافة غير وجه الترف في القصور ومع الجواري، فانتقل ما شاء له القدر أن ينتقل بين العواصم والثغور، بين الرقة والري والحجاز والشام، يقود غزوة هنا، ويقمع ثورة هناك، ويقضي على فتنة أو مؤامرة، يحج إلى بيت الله ويستخيره في قراراته، مخلِّفًا في قصوره ليالي الأنس والطرب[1].

فقد شهدت أيام الرشيد العديد من الثورات والاضطرابات، غير أنها لم تكن واسعة أو تمثل تهديدًا كبيرًا للدولة، بقدر ما كانت شهوة ملك أو اعتراض عن سوء إدارة من حكام الأقاليم، ولم يتهاون بها الرشيد ولم يضعف أو يلين بل قاومها وكان يخرج بنفسه لقمعها[2].

(1) سعدي ضناوي: موسوعة هارون الرشيد، 2/ 249.

(2) لن نتناول الحديث عن ثورات العلويين، فسوف نستعرضها بالتفصيل في حديثنا عن سياسة الرشيد تجاه العلويين. انظر ص161.

أولًا: ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار

ولَّى الرشيد عامله علي بن عيسى بن ماهان على خراسان، فسار فيهم بالظلم والجور والعسف، وجمع أموال الناس بغير حق، وكان في المقابل يرسل إلى الرشيد ببغداد الأموال طائلة والهدايا ليرضى عنه، لكن الأهالي – وقد ضجروا من سياسة علي بن عيسى – شكوا أمرهم إلى الرشيد، فخرج الرشيد سنة 189هـ وعسكر في الري ليتحقق من ذلك بنفسه، وقد عزم على الخروج لمحاربته عندما أحس الرشيد أنه ينوي الثورة عليه، ولكن علي بن عيسى بن ماهان علم بقدوم الرشيد، فأسرع إلى ملاقاته بالهدايا الثمينة، كما أغدق على رجال حاشيته، فاطمأن الرشيد من جانبه، ثم عاد هـذا الوالي إلى سيرته الأولى في الظلم والاستبداد، وغلا في نكايته بمن استغاثوا إلى الخليفة.

وتشاء الأقدار أن يقوم رجل من سمرقند يدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار، بالتغرير بامرأة غنية والزواج منها بعد أن طالت غيبة زوجها، ولما عاد زوجها ووجد ما اقترفه رافع بن ليث رفع الأمر إلى الخليفة الرشيد، الذي أرسل إلى علي بن عيسى بن ماهان – والي خراسان – يأمره أن يفرق بينهما، وأن يقيم العقوبة على رافع بن ليث ويقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مقيدًا على حمار، حتى يكون عظة لغيره، فقام كل من والي خراسان وعامل سمرقند بتنفيذ أوامر الرشيد وحبس رافع وجلده، ولكنه فرّ من السجن واستغاث بولد علي بن عيسى ليتوسط عند أبيه، فكان له ما أراد وأمّنه ورده إلى بلده سمرقند شريفًا معززًا.

إلا أن رافع بن ليث ثأر لنفسه من عامل المدينة وقتله، واتبعه كثير من أهالي سمرقند وما وراء النهر وأيدوه في ثورته وذلك سنة 190هـ، فأرسل إليه علي بن عيسى بن ماهان ابنه عيسى فقتله رافع ببلخ، فانسحب علي بن عيسى من بلخ إلى

مرو، خوفًا من رافع أن يستولي عليها.

وهناك رواية أخرى أن رافع بن ليث هـجم على بيت علي بن عيسى بن علي بن ماهان وقتله، واستولى على ما به من أموال، وقد وجد الناس أموالًا عظيمة قد دفنها ابن علي بن عيسى في بستان له بلغت ثلاثين مليونًا من الدراهم جمعها ظلمًا وعسفًا من الناس. فلما بلغ الخبر الرشيد عزله وولى مكانه هـرثمة بن أعين وذلك سنة 191هـ، وقد أمر الرشيد هـرثمة أن يرد المظالم إلى أهلها وأن يحكم بينهم بالعدل وأن يعطي كل ذي حق حقه، فقبض هـرثمة على علي بن عيسى وأهله وصادر أموالهم، وبعث بهم إلى الرشيد، وقد فرح الناس بهرثمة وتخليصهم من ظلم علي بن عيسى.

ومع أن الناس تخلصوا من ظلم علي بن عيسى إلا أن الرشيد لم يتخلص من ثورة رافع بن ليث، فقد عظم أمره حتى أنه في سنة 191هـ دخل في طاعته وتحت ثورته أهالي نسف وبخارى وفرغانة وخوارزم والأتراك. وقد اهتم هـرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه، فشخص يريد خراسان في ربيع الآخر 193هـ، إلا أن الرشيد لم يستطع أن يقضي على رافع فقد وافته المنية بطوس، وظل أمر رافع حتى سنة 195هـ حيث أطاع المأمون من غير قتال[1].

وهكذا ظلت ثورة رافع بن ليث تؤرق الرشيد وتذهب عنه النوم والراحة حتى وفاته، وقد كان الرشيد كفيلًا أن يريح نفسه من هـذه الهموم والدماء لو كان استعجل بخلع علي بن عيسى بن ماهان، وفي المقابل فإن الأسباب التي دعت رافع بن ليث إلى الثورة هـي أسباب واهية لا تستدعي ثورة عارمة كهذه، لولا أن يكون في قلبه حب رياسة وطمع في سلطة، فكانت واقعة زواجه وتغريم الرشيد له كالقشة التي قصمت ظهر البعير، فحركت في جوانح نفسه حب الظهور والخروج عليه.

---

(1) انظر تفاصيل ثورة رافع بن ليث في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 319 – 320، 323، 340. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 647، 14/ 9 – 10، ابن قتيبة الدينوري: المعارف، 1/ 382.

ثانيًا: ثورات الخوراج

تعتبر أهم المشاكل الداخلية أيام الرشيد مشكلة عودة ثورات الخوارج، وثورات الخوارج تقوم على أساس نظري وهو العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهم يمثلون النزعة البدوية التي تكره الخضوع لأي سلطة، ولعل الضربات الموجعة التي أصابتهم من أبي مسلم الخراساني أضعفت قواهم، التي لم يستجمعوها ولم تنشط حركتهم إلا في زمن الرشيد. ومن أهم ثورات الخوارج في عهد الرشيد:

أ - ثورة الوليد بن طريف الشاري

خرج الوليد بن طريف الشاري من بني تغلب على هـارون الرشيد سنة 178هـ مُحَكِّمًا، يعني يقول: "لا حُكْمَ إِلا للَّه"، وكان خروجه بمنطقة الجزيرة الفراتية في العراق، فقتل عامل الرشيد إبراهيم بن خازم بن خزيمة، وجعل نصيبين مركزًا لثورته، وتعد حركة الوليد بن طريف الشاري من أكبر الحركات الخارجية وأخطرها، فقد سانده في ثورته أعداد كبيرة من الناس، وسيطر على أرمينية وأذربيجان، وعاث فيهما فسادًا، وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان[1]. ويبدو أن الوليد بن طريف الشاري خرج على الرشيد لزيادة الضرائب والشعور بالظلم، حيث يقول:

أنا الوليد بن الطريف الشاري … أخرجني ظلمكم من داري

وبعد أن نجح الوليد بن طريف في إنزال الهزيمة بعدة جيوش أرسلها الرشيد لقتاله كثر أتباعه واشتدت شوكته ثم عاد إلى الجزيرة سنة 179هـ، فوجه الرشيد إليه يزيد بن مزيد الشيباني، وهو من وائل فبينه وبين ابن طريف رحم، فقال الوليد:

---

(1) يقصد بها: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، 2/ 290.

ستعلم يا يزيد إذا التقينا   بشط الزاب أي فتى يكون

فجعل يزيد يختاله ويماكره، فكتب إليه الرشيد كتاب مُغضَبٍ، وقال له: "لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به، ولكنك مداهن، متعصب، وأقسم بالله إن أخرت مناجزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك". فشمَّر يزيد بن مزيد للوليد بن طريف وجهز جيشه ثم لقي الوليد بن طريف وهو مغتر بقوته، فقتله وجماعة كانوا معه، وتفرق الباقون، واحتز يزيد بن مزيد رأس الوليد بن طريف وأعطاها للرشيد، فقال الشاعر:

وائل بعضها يقتل بعضا   لا يفل الحديد إلا الحديد

فلما وصل الخبر إلى الرشيد اعتمر في شهر رمضان، شكرًا لله على قتل الوليد بن طريف[1].

ب - ثورة العطاف بن سفيان الأزدي

خرج العطاف بن سفيان الأزدي في سنة 187هـ على الرشيد، وكان من فرسان أهل الموصل. واجتمع عليه أربعة آلاف رجلًا وجبى الخراج، وعجز عامل الرشيد على الموصل محمد بن العباس الهاشمي عن رد العطاف، وسيطر العطاف على الموصل كلها وهو يجبي الخراج، وأقام على ذلك سنتين.

فلما عظم أمره خرج الرشيد إلى الموصل فهدم سورها بسببه، وأقسم ليقتلن من لقي من أهلها، فأفتاه القاضي أبو يوسف، ومنعه من ذلك، فلما وصل الرشيد إلى قرية جهينة أراد العطاف مع أربعة آلاف فارس أن يبيتوا عسكر الرشيد ليلًا للفتك به، ولكن شيوخ الموصل ناشدوه وحذروه سوء العاقبة.

ثم خرج العطاف إلى أرمينية وخرج جماعة من أهل البلد إلى الرشيد، واتصلوا

(1) انظر تفاصيل ثورة رافع بن ليث في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 256، 261. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 304 - 306، 309. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص 504 - 505.

بالقاضي أبي يوسف، الذي أشار على أهل البلد أن يجهزوا بأذان العشاء الآخرة على سطوح منازلهم، فلما سمع هـارون كثرة الأذان، قال لأبي يوسف: «ويحك هـؤلاء مؤمنون»، فدخل الرشيد المدينة وأمَّن أهلها وولَّى حرب الموصل وخراجها يحيى بن سعيد الخرشي[1].

ولم تقتصر ثورات الخوارج على هـذين الثوريتين فقط، بل شهد عصر الرشيد ثورات خارجية بين فترة وأخرى، فقد خرج الفضل بن سعيد الحروي سنة 171هـ، ولكنه لم يلبث أن قتله أبو خالد المروروذي[2]. وفي سنة 180هـ خرج خراشة الشيباني بالجزيرة الفراتية فتصدى له مسلم بن بكار العقيلي فقتله[3].

وفي سنة 191هـ خرج رجل يسمى ثروان بن سيف على الرشيد بسواد العراق، فوجه إليه الرشيد طوق بن مالك، فهزمه طوق، وجرحه وقتل عامة أصحابه، وظن طوق أنه قد قتل ثروان، فكتب بالفتح، وهرب ثروان مجروحًا[4].

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 314. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص506. بتصرف.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 280. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 566.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 266. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 604.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 323. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 5. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 379.

ثالثًا: ثورة أبي النداء

خرج رجل يسمى أبو النداء مع ألف من قطاع الطرق على هـارون الرشيد سنة 191هـ بمنطقة أَيْلَة (العقبة اليوم)، على ساحل البحر الأحمر بالبلقاء في الأردن، وأغاروا على قرى الشام، وانضم إليه من جذام وغيرها جماعة كبيرة وأفسدوا غاية الإفساد.

وبلغ أبو النداء المذكور من النهب والقتل مبلغًا عظيمًا، حتى بلغ الرشيد أمره، فجهز إليه جيشًا من بغداد لقتاله بقيادة قائده يحيى بن معاذ، الذي تمكن بمهارة عسكرية أن يوقع هـزيمة نكراء بأبي النداء ويقضي على حركته، وحُمل أبو النداء أسيرًا إلى الرشيد بالرّقة وقتل فيها[1].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 323. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 170 – 171. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص 500. بتصرف

رابعًا: ثورة الخرمية

خرجت الخُرَّميَّة[1] في أذربيجان سنة 192هـ، فوجه إليهم الرشيد قائده عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي في عشرة آلاف، فقتل وسبى وأسر، ووافَى الرشيد بقرماسين، فأمره بقتل الأسرى، وبيع السبي[2].

(1) الخرمية أو البابكية: أتباع بابك الخرمي، ظهر في جبل الْيَدَيْنِ بأذربيجان، وَكثر بهَا أتباعه، واستباحوا المحرمَات وقتلوا الكثير من المسلمين، وقد حاربهم الخلفاء العباسيون عشرين سنة إلى أن أخذ بابك الخرمي وصلب بسر من رأى في زمن المعتصم سنة 223هـ، وهم طائفة تؤمن بعقيدة التناسخ، والاعتقاد بوجود إلهين، أحدهما للنور والآخر للظلمة، والقول بإباحة النساء. انظر: الإسفراييني: الفرق بين الفرق، 1/ 251، 268.

(2) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، 1/ 391 - 392. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 339. ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 9. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي - الدولة العباسية، 1/ 167.

خامسًا: ثورات البربر في أفريقية

استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتي 178هـ و 181هـ، كما أخذت في التقلص عن الحكم الإسلامي، وغدت كفة النصر ترجح في جانبهم حينًا وفي جانب العباسيين حينًا آخر، ففي أول خلافة الرشيد توفي القائد الكبير يزيد بن حاتم المهلبي، وكان قد ضبط أمور البربر وأصلح حالهم، فلما مات لم يستطع من جاء بعده من ضبط الوضع فثارت الفتن، وكان يقودها الخوارج.

وتوالى تعيين الولاة أو إخراجهم من قبل الثوار حتى أرسل الرشيد قائده هـرثمة بن أعين سنة 178هـ، فآمن الناس وسكنهم، وبنى القصر الكبير بالمنستير سنة 180هـ، وبنى سور مدينة طرابلس مما يلي البحر، ولم تخرج عليه ثورة واحدة، سوى ثورة عياض بن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي، وجمَّعا الجموع لقتال هـرثمة، فسرَّح إليهما يحيى بن موسى من قواد الخراسانية ففرق جموعهما، وقتل كثيرًا من أصحابهما، ورجع إلى القيروان.

لكن يبدو أن هـرثمة بن أعين بثاقب نظره وطول خبرته رأى أن انتصار العباسيين على البربر أمرٌ لا سبيل لتحقيقه، فاستعفى الرشيد من ولاية إفريقية فقبل الرشيد، وولَّاها لإبراهيم بن أغلب ليكون سببا في تهْدأت نار العداوة في قلوب البربر من ناحية، ولتكون حجر عثرة أمام توسع دولة الأدارسة الناشئة من ناحية أخرى[1].

(1) انظر ثورات البربر في إفريقية في: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 302. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 4/ 249. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 109 – 110. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، 2/ 47.

سادسًا: ثورات اليمن

لم تكن بلاد اليمن هـي الأخرى بمنأى عن الحركات الثورية الخارجة، فكان لها نصيب من هـمِّ الرشيد واهتمامه، ففي سنة 179هـ خرج الهيصم بن عبد المجيد الهمداني اليماني ضد حماد البربري عامل الرشيد على اليمن، وكان قد جار على أهل اليمن وغلظ عليهم، وكان مع الهيصم عمر بن أبي خالد الحميري مقيمًا بعشتان، وكان معه الصبَّاح بناحية يقال لها حراز، وقد استطاع أن يقضي حماد البربري عليها، فأسر عمر بن أبي خالد والصباح وأرسل بهما إلى الرشيد فقتلا، واتصلت المعارك بين حماد والهيصم لأكثر من تسع سنين، قُتل فيها نيف وعشرون ألفًا من الناس، أُسر في نهايتها الهيصم اليماني وابنه وابن أخيه، فأرسلهم حماد البربري إلى الرشيد فصلبوا جميعًا في الرقة سنة 192هـ[1].

(1) ابن حبيب: المحبر، 1/ 488. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 3/ 144.

سابعًا: ثورة الخزر

ففي سنة 183هـ خرج الخزر بسبب ابنة خاقان[1] من باب الأبواب، فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة، وسبوا أكثر من مائة ألف مسلم، وانتهكوا أمرًا عظيمًا لم يسمع بمثله في الإسلام، فولى الرشيد أرمينية يزيد بن مزيد مضافًا إلى أذربيجان، وقواه بالجند، ووجهه إليهم، وأنزل خزيمة بن خازم نصيبين ردءًا لأهل أرمينية.

وقيل: إن سبب خروج الخزر أن سعيد بن سلم قتل المنجم السلمي، فدخل ابنه بلاد الخزر، واستجاشهم على سعيد، فخرجوا ودخلوا أرمينية من الثلمة، فانهزم سعيد، وأقاموا نحو سبعين يومًا، فوجه الرشيد خزيمة بن خازم ويزيد بن مزيد، فأصلحا ما أفسد سعيد، وأخرجا الخزر، وسدَّا الثلمة[2].

هذه كانت أشهر الحركات الثورية أيام الرشيد، وقد لاحظنا أنها كانت حركات فردية أو ذات مطامع شخصية، ثم ما تلبث أن تتلاقى هـذه المطامع مع ظروف معينة كظلم حاكم أو عسف والي، فيجد الثائر له أعوانًا، إلا أن هـارون الرشيد وقف في وجهها موقفًا حازمًا وقاطعًا، حتى كان رحمه الله يترك لهوه ولعبه ويفرغ جهده لقمع مثل هـذه التصرفات؛ إقرارًا للأمن وتثبيتًا لدعائم الخلافة واعترافًا بثقل الأمانة وتبعات المسئولية.

---

(1) كانت ابنة خاقان ملك الخزر قد حملت إلى الفضل بن يحيى البرمكي سنة 182هـ، فماتت ببرذعة (وهي آخر حدود أذربيجان)، وعلى أرمينية يومئذ سعيد بْن سلم بْن قتيبة الباهلى، فرجع من كان معها إلى أبيها، فأخبروه أن ابنته قتلت غيلة، فحنق لذلك، وأخذ في الأهبة لحرب المسلمين. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 269.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 270. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 331.

الفصل الخامس

النظام القضائي

- أولًا: القضاء أيام الرشيد.
- ثانيًا: منصب قاضي القضاة.
- ثالثًا: قضاة الرشيد.
- رابعًا: الحسبة أيام الرشيد.

”كان يشترك اشتراكًا فعليًا في تصريف شؤون الحكم، ونال شهرة واسعة بعدله في قضائه“

ول ديورانت: قصة الحضارة (13/ 92)

أولًا: القضاء أيام الرشيد

يمثل القضاء في الإسلام صورة مشرقة في التاريخ الإسلامي، وركنًا رئيسًا من أركان الدولة المسلمة؛ لذلك كان موضع اهتمام ورعاية كثيرين من الخلفاء والأمراء، فدور القضاء تحكيم الشرع وإقرار العدل بين الناس.

والقضاء هـو فصل الخصومات وقطع المنازعات، وعرَّفه الشافعية بأنه فصل الخصومة بين خصمين فأكثر بحكم الله تعالى، أي إظهار حكم الشرع في الواقعة. وسمي القضاء حكمًا؛ لما فيه من الحكمة التي توجب وضع الشيء في محله، لكونه يكف الظالم عن ظلمه، أو من إحكام الشيء[1].

تطورات القضاء حتى أيام الرشيد

شهد القضاء - في العصر العباسي الأول عامة وعهد الخليفة الرشيد خاصة - تطورًا كبيرًا عن العصور السابقة له، فنال استقلاله وتحددت معالمه وأصبح لرجاله ميزات خاصة عن فئات المجتمع. وقد استفادت الخلافة العباسية من الإدارة والتنظيم القضائي الذي قام به بنو أمية، وأضافوا إليه أشياء كثيرة تتوافق مع التطور والتوسع، فكان تطور القضاء تبعًا لتطور الحياة وتطور العلوم عامة، والفقه خاصة.

ومن هـذه التطورات[2]:

1 - اتساع سلطة القاضي وأعماله: إذ عليه الفصل في الدعاوى والأوقاف والنفقات، وتنصيب الأوصياء، وأضيف إليه أحيانًا الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال وغيرها.

(1) وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثانية - 1985م، 6/ 480.

(2) محمد الزحيلي: تاريخ القضاء في الإسلام، ص225 - 242. بتصرف. أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص162 - 163. بتصرف.

2 – نشوء المذاهب الأربعة: وهي: مذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام مالك ومذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام أحمد بن حنبل. وقد أدى ظهور هـذه المذاهب إلى ضعف روح الاجتهاد في الأحكام؛ حيث كان القاضي يصدر أحكامه وفق أحد هـذه المذاهب الأربعة، فكان القاضي في العراق يحكم وفق مذهب أبي حنيفة، والشام والمغرب وفق مذهب الإمام مالك، وفي مصر وفق المذهب الشافعي، وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلاد أناب عنه قاضيًا يحكم بمذهب المتقاضيين.

3 – ظهور الاصطلاحات الفقهية: كما وضعت الكتب في صفات القاضي وعمله ومجلسه.

4 – الاستقلال التام للقضاء: فقد استحْدث الخليفة هـارون الرشيد منصب قاضي القضاة، وقام بتعيين القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة في هـذا المنصب، مما كان له عظيم الأثر في تأكيده على استقلال القضاء، فكان أبو يوسف يختار القضاة في العراق والأمصار ويعرضها على الرشيد، فيعين الرشيد من أشار به أبو يوسف، ثم فوّض قاضي القضاة بتعيين القضاة ومتابعتهم ومراقبتهم والإشراف عليهم وعزلهم، ولم يبق للخليفة شأن في ذلك ولا الولاة. وهنا أصبح استقلال القضاء كاملًا عن السلطة التنفيذية المتمثلة في الخليفة والقواد والأمراء، ولم يبق للخليفة شأن في ذلك ولا الولاة.

5 – امتناع الكثير من الفقهاء والعلماء عن تولي القضاء: وكان أول من فعل ذلك ابن عمر رضي الله عنه في العصر الراشدي، وزاد الأمر في العهد الأموي، إلا أنه تفاقم واشتد في العصر العباسي وخاصة في عصر الرشيد، مما اضطر الخلفاء والولاة إلى إكراه بعض العلماء على تولي القضاء؛ للاستفادة من علمهم واحترام الناس لهم وتوفر الثقة فيهم، وتحري الخلفاء العدل الذي يرونه سيتحقق على أيديهم. وكان من أسباب الامتناع رهبة العلماء من النصب لما ورد من أحاديث

صحيحة ترهب منه. وكذلك الزهد في الدنيا والانشغال بالعلم والخوف من تدخل الخلفاء والأمراء والولاة في عملهم؛ ولذلك كان يشترط بعض الفقهاء على الخلفاء والولاة عدم التدخل في شئونهم.

وقد كان عدل الرشيد في القضاء من العلامات البارزة في خلافته، شهد بذلك ول ديورانت بقوله: "غير أن ولعه بالعلم والفن لم يلهه عن مهام الملك، فقد كان يشترك اشتراكًا فعليًا في تصريف شؤون الحكم، ونال شهرة واسعة بعدله في قضائه"[1].

ومن أشهر من امتنع عن تولي القضاء في عهد هـارون الرشيد:

وكيع بن الجراح والإمام الشافعي:

فقد روي أن هـارون الرشيد دعا الشافعي وحفص بن غياث ووكيع بن الجراح فدخلوا عليه ليوليهم القضاء، فأما الشافعي، فقال: "السلام عليكم"، وطرح نفسه كأنه مفلوج، فقال الرشيد: "خذوا بيد الشيخ، لا فضل في هـذا"، وأما وكيع فقال: "والله يا أمير المؤمنين ما أبصرت بها منذ سنة، ووضع إصبعه على عينه وعنى إصبعه"، فأعفاه الرشيد، وأما حفص فقال: "لولا غلبة الدَّيْن والعيال ما وليت"[2].

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين، 13/ 92.

(2) وكيع: أخبار القضاة، 1/ 27. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 9/ 69. وقد كان حفص بن غياث حافظًا عالماً تقيًا.

ثانيًا: منصب قاضي القضاة

الأمر الجديد الذي برز في القضاء الإسلامي لأول مرة هو ظهور منصب قاضي القضاة، الذي استحدثه الخليفة هارون الرشيد ببغداد سنة 170هـ أو ما بعدها. وسب ظهور هذا المنصب الجديد هو اتساع رقعة الدولة الإسلامية، وانشغال الخليفة بالمهام الجسيمة في الخلافة، وشيوع مبدأ توزيع الأعمال والاختصاصات على عدد من الأشخاص، فاحتاج الخليفة إلى من ينوب عنه في هذا المكان الخطير، فيخفف عن كاهله أعباءه وينوب عنه في تسيير القضاء ورعاية القضاة، فاستحدث الرشيد هذا المنصب (قاضي القضاة) لأول مرة في التاريخ الإسلامي، وأطلق الرشيد هذا اللقب الجديد على قاضي الخليفة في بغداد الإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب أبي حنيفة، ومؤلف كتاب الخراج، والذي استمر يشغل هذا المنصب حتى وفاته سنة 182هـ، وكان الرشيد يجله ويحترمه ويقدر علمه وفقهه، وقد أسند الرشيد إليه تعيين القضاة في المشرق والمغرب.

ويعتبر منصب قاضي القضاة بمثابة وزير العدل اليوم، ويؤكد الاستقلال التام للقضاء عن الخلفاء والأمراء والولاة، وانقطعت تبعية القضاة للولاة سياسيًا وإداريًا، وصاروا يتبعون قاضي القضاة فقط. وكان قاضي القضاة قاضيًا للمشرق والمغرب، وهو قاضي القضاة على التحقيق، والقضاة يعملون في الإجراءات فقط باقتراحه. وقد كان الرشيد لا يعين قاضيًا ببلاد العراق أو الشام أو مصر أو خراسان إلا من أشار به القاضي أبو يوسف، واعتنى به ورشحه.

وقد اعتنى القاضي أبو يوسف بالقضاة وأشرف عليهم، وهو أول من بدَّل لبس القضاة، وميزهم بلباس خاص، وجعل لباسهم عمامة سوداء على قلنسوة

طويلة ومعها الطيلسان؛ وذلك ليتم التعرف عليهم من أفراد الشعب، وعمل على تخصيص مرتبات ثابتة للقضاة من الدولة تتناسب مع الأحوال والبيئات. وكان لقاضي القضاة في بغداد ديوان يعرف بديوان قاضي القضاة، ومن أشهر موظفي الديوان: الحاجب، الكاتب، عارض الأحكام، خازن ديوان الحكم[1].

(1) محمد الزحيلي: تاريخ القضاء في الإسلام، ص242 - 244. بتصرف.

ثالثًا: قضاة الرشيد

ذكر خليفة بن خياط ثَبَتًا بقضاة الرشيد في بعض الأمصار، ومنهم:

قَضَاء الْبَصْرَة

عَبْد الرَّحْمَن بْن مُحَمَّد المَخْزُومِي ثمَّ عَزله، وَولى عُمَر بْن حبيب الْعَدوي سنة 172هـ ثمَّ عزل سنة 181هـ، وَولى معَاذ بن معَاذ ثمَّ عزل سنة 191هـ، وَولى مُحَمَّد بْن عَبْد اللَّهِ الْأَنْصَارِيّ ثمَّ عزل سنة 192هـ، وَولى عَبْد اللَّهِ بْن سوار بْن عَبْد اللَّهِ العَنبري فَمَاتَ الرشيد وَهُوَ قَاض.

قضاء الكوفة

أقرّ عَلَيْهِ الرشيد الْقَاسِم بْن معَن ثمَّ عَزله، وَولى نوح بْن دراج مولى النخع ثمَّ عَزله، وَولى شَرِيك النخعي القاضي ثمَّ عَزله، وَولى حَفْص بْن غياث، ثمَّ الْحسن بْن زِيَاد اللؤْلُؤِي[1].

قضاء مصر

المُفضَّل بْن فَضالة، ثم محمد بْن مَسْرُوق الكِنْديّ، ثم إِسْحَاق بْن الفُرات، ثم عبد الرحمن بْن عبد الله العُمَريّ[2].

قضاء المدينة ومكة

عبد الله بن محمد بن عمران، ثم سعيد بن سليمان بن نوفل، ثم أبو البختري وهب بن وهب.

قضاء الحيرة

القاسم بن معن

(1) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 464 – 465.

(2) الكندي: الولاة والقضاة، 1/ 278 – 285.

قضاء بغداد

سعيد بن عبد الرحمن الجمحي، ثم الحسين بن الحسن بن عطية الحوفي[1]. وكان قاضي القضاة ببغداد أبو يوسف ثم لما مات سنة 182هـ ولّاه الرشيد لأبي البختري وهب بن وهب[2]. كما أن الواقدي صاحب المغازي قدم بغداد فولاه الرشيد قضاء الجانب الشرقي ببغداد[3]، كذلك ولي يوسف بن القاضي أبو يوسف قضاء الجانب الغربي ببغداد في حياة أبيه إلى أن توفي سنة 193هـ[4].

وكان الرشيد يتخير قضاته ويتحرى فيهم الدين والخلق والثقة والعلم والفقه والزهد في الدنيا، وإن المتتبع لهذه الأسماء من القضاة في مشرق خلافته ومغربها ليجدهم كالنجوم في سماء العلا فقهًا وعلمًا وورعًا، لقد كان ما بذله الرشيد في إصلاح القضاء وتطويره كفيلًا أن يكون شهادة حق في ورعه ونزاهته وحرصه على العدل بين رعيته. فقد روي أن الرشيد أحضر رجلًا ليولِّيه القضاء، فقال له: إني لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه. قال الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة. ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قلَّ خطؤه. وأنت رجل تشاور في أمرك ومن شاور كثر صوابه، وأما الفقه فسينضم إليك من تتفقَّه به. فولي فما وجدوا فيه مطعنًا[5].

---

(1) شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، 124 - 125.

(2) خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 388 - 389.

(3) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 10/ 170.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 11/ 661.

(5) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، 1/ 71 - 72.

رابعًا: الحسبة في عهد الرشيد

الحسبة هـي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه، ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله. وقال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 104][1].

نشأة نظام الحسبة

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من وضع نظام الحسبة، وكان يقوم بعمل المحتسب، وإن لم يستعمل بلفظ الحسبة، حيث يرى بعض الباحثين أن لفظ الحسبة لم يظهر إلا في العصر العباسي الأول في عهد الخليفة المهدي العباسي (158 – 169هـ)، فقد ذكر الطبري أن المهدي أمر عبد الجبار المحتسب أن يأتيه بجماعة من الزنادقة ففعل، وأتاه بهم، فقتل جماعة منهم وصلبهم، وأتي بكتب مِن كُتبهم فقطعت بالسكاكين[2].

كما يرى البعض أن الحسبة ظهرت في عهد هـارون الرشيد وأنه أول من أقام المحتسب، لكي يطوف بالأسواق ويفحص الموازين والمكاييل من الغش عندما اتسع نطاق التجارة في بغداد. وتذكر بعض المصادر العربية الإسلامية أن لفظ الحسبة ظهر قبل ذلك منذ عهد أبي جعفر المنصور، ذلك عندما عيَّن عاصم بن سليمان الأحول محتسبًا وأوكل إليه مراقبة الموازيين والمكاييل[3]، كما ولّى المنصور يحيى بن عبد الله على حسبة بغداد

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية، 1/ 349.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 184.

(3) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 39.

والأسواق عام (157هـ/ 773م)[1].

فوجود المحتسب في عهد المنصور ينفي الآراء التي رأت أن هـذه الوظيفة ظهرت لأول مرة في عهد المهدي، وأنه هـو مؤسس نظام الحسبة كما ينفي القول بأن الرشيد هـو أول من أقام المحتسب لكي يطوف الأسواق ويفحص الموازين والمكاييل، فالواضح من المصادر أن وظيفة المحتسب وجدت في عهد المنصور، فأصبح صاحب السوق يسمي المحتسب، وقد تطورت هـذه الوظيفة تطورًا كبيرًا حتى صارت من أهم الأمور التي اهتم بها الخلفاء والولاة بعد ذلك[2].

وقد كان بين الحسبة والقضاء صلة وثيقة، إذ أن سلطة القاضي موزعة بينه وبين المحتسب وقاضي المظالم، فوظيفة القاضي فض المنازعات المرتبطة بالدين بوجه عام، ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام والجنايات أحيانًا، مما يستدعي الفصل فيها إلى السرعة، ووظيفة قاضي المظالم الفصل فيما استعصى من الأحكام على القاضي والمحتسب[3].

أعمال المحتسب

وأعمال المحتسب كثيرة تشمل نواحي أدبية ودينية وعمرانية وأخلاقية، ويمكن أن نجمل أعمال المحتسب في النواحي التالية:

1 - مراقبة التجار وأرباب الحرف.

2 - مراقبة الأسعار والموازين والمنكرات الاقتصادية مثل عقود الربا والميسر.

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 7/ 653.

(2) محمد فياض الفياض: حرفة المحتسب في العصر العباسي، مجلة الباحثون - العدد 68 - فبراير 2013م.

(3) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 245. بتصرف.

3 – مراقبة الأخلاق العامة.

4 – مراقبة العبادات.

5 – مراقبة الأبنية والطرقات.

وكان للمحتسب دارٌ يقيم فيها تسمى دار الحسبة، ويصرف منها جميع أعماله[1].

(1) أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص174 – 177. بتصرف.

الفصل السادس

السياسة الاقتصادية

- النظام المالي أيام الرشيد

- **أولًا : موارد بيت المال :**

  أ - الخراج.

  ب - خمس الغنائم.

  جـ - الصدقات.

- **ثانيًا : قائمة الخراج أيام هارون الرشيد.**

- **ثالثًا : النفقات.**

- **رابعًا : الزراعة.**

- **خامسًا : الصناعة.**

- **سادسًا : التجارة الداخلية.**

- **سابعًا : التجارة الخارجية.**

- **ثامنًا : الاعتناء بموسم الحج.**

"سمَّى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها..

أيام العروس"

المسعودي: مروج الذهب (4/ 251 – 252)

النظام المالي أيام الرشيد

تعتبر الحضارة الإسلامية هـي الرائدة والأولى بين حضارات الإنسانية في مجال تنظيم موارد الدولة ومصروفاتها، فأنشأت ما يعرف ببيت مال المسلمين، وذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد عملت الخلافة العباسية منذ البداية على تحقيق التوازن في السياسة المالية بين الإيرادات والمدفوعات، فقسمت الميزانية العامة إلى قسمين: قسم الاستخراج ويعني الإيرادات (المدخول)، وقسم المصروفات ويعني (المدفوعات)، فهي لذلك حرصت منذ إنشائها على إنشاء بيت المال؛ ليقوم على صيانة أموال المسلمين وحفظها والإنفاق منها على وجوه الإنفاق السليمة، مما جعل بيت المال أشبه بوزارة المالية في عصرنا الحاضر[1].

وقد بلغت خزائن بيت مال المسلمين من الخير الكثير والنعيم الوافر ما لم تتوفر لغيرها من دول المسلمين، فقد كانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التي كانت تجبى من الضرائب، وقد بلغت في أيام الخليفة هـارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار (42،000،000 دينارًا)، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب. وكان لهذا الخير العميم، أن سمى الناس أيام الرشيد لنضارتها، وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس[2]. وصدقوا.

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حال الزراع ونفاق التجار، فإننا لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هـارون الرشيد بلغ 272 مليون درهم (272،000،000 درهمًا)، وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة (4،500،000 دينارًا).

(1) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي – السياسي والحضاري، 235 – 236. بتصرف.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/ 252.

وقد بلغ ما حُمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحوًا من خمسمائة ألف درهم من الفضة (500،000 درهمًا)، وعشرة آلاف دينارٍ من الذهب (10،000 دينارًا). وكان المال الذي يأتي من موارد الدولة ينفق على صالح الدولة، فتدفع منه رواتب القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال، وأعطيات الجند واستصلاح الأراضي وشق الترع والأنهار، وكذلك النفقة على المسجونين، وعلى المعدات الحربية والعطايا، والمنح التي يمنحها العلماء والأدباء[1]. وذكر الطبري– وإن كان في تقديره مبالغة – أن هـارون الرشيد مات وفي بيت المال تسعمائة ألف ألف ونيف (900 مليون دينارًا ونيف) وهذا رقم لا يعدله في زمانه رقم[2].

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، 2/ 248.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 364.

أولًا: موارد بيت المال

كان الرشيد رحمه الله يحب أن يسود العدل بين رعيته، ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين، وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذي سنَّه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده؛ حتى لا يقع حيف على الرعية، فيثقل الجور كاهلهم ويخلف عمرانهم، وحتى يكون بيت المال قائمًا بما يجب من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها، فكتب إلى قاضيه الأكبر أبي يوسف رحمه الله رسالة ضمنها أسئلة، وطلب منه أن يجيب عنها، فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام، وكتب جوابه عن تلك الأسئلة في رسالة عظيمة الشأن، سميت بكتاب (الخراج).

ويمكن أن نجمل موارد بيت مال المسلمين كما حددتها الشريعة الإسلامية، وهي: الخراج والجزية والزكاة والفيء والغنيمة والعشور. وهي التي شكلت أهم موارد بيت المال في عهد الدولة العباسية[1].

وبما أن موارد بيت مال المسلمين تعد من المال العام الذي هو أشد حرمة من المال الخاص، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188]، فقد وضع القاضي أبو يوسف شروطًا فيمن يتولى مال المسلمين، ومن أعظمها اختيار أصحاب الدين والخلق والعلم والكفاءة والنزاهة والأمانة.

يقول أبو يوسف موجِّها كلامه لهارون الرشيد: "رأيتُ أن تتخذ قومًا من أهل الصلاح والدين والأمانة فتوليهم الخراج. ومن وليت منهم فليكن فقيهًا عالمًا مشاورًا لأهل الرأي عفيفًا، لا يطلع الناسُ منه عَلَى عورةٍ، ولا يخاف فِي الله لومة

(1) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة العباسية، ص159 – 160.

لائمٍ، ما حفظ من حقٍ وأدى من أمانةٍ احتسب به الجنة، وما عمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت، تجوز شهادتُهُ إن شهد، ولا يُخاف منه جورٌ في حكمٍ إن حكم. فإنك إنما توليه جباية الأموال وأخذها، .. فإذا لم يكن عدلًا ثقةً أمينًا فلا يؤتمن عَلَى الأموال، .. لَا يَكُونَ عَسُوفًا لأَهْلِ عَمَلِهِ وَلَا محتقرًا لَهُم وَلَا متسخفًا بهم،..، اللين للمسلم، والغلظة على الفاجر، والعدل على أهل الذمة، وإنصاف المظلوم، والشدة على الظالم، والعفو عن الناس،..، وأن تكون جبايته للخراج كما يرسم له، وترك الابتداع فيما يعاملهم به، والمساواة بينهم في مجلسه ووجهه، حتى يكون القريب والبعيد والشريف والوضيع عنده في الحق سواء، وترك اتباع الهوى؛ فإن الله مَيَّزَ من اتقاه وآثر طاعته وَأَمَّرَهُ على من سواهما"[1].

أ - الخراج

الخراج هـو مقدار من المال أو الحاصلات، يفرض على أراضي الأعاجم التي ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام، وأبقاها بأيدي أهلها، أو صالحهم عليها وصيَّرهم ذمة، ويخرج من ذلك أنواع من الأرض لا يوضع عليها الخراج، وإنما تكون أرض عشرية وهي كل أرض العرب غير بني تغلب، وكل أراضي الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعًا، وكذلك كل أرض من أراضي الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين.

على هـذا، فكلمة الخراج تجمع ثلاثة أشياء:

1 - وظيفة الأرض الخراجية.

2 - جزية أهل الذمة.

3 - ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب[2].

(1) القاضي أبو يوسف: الخراج، ص120.

(2) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص 163 - 164. أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، ص 221 - 222. بتصرف.

وقد كان الخراج يؤخذ من الجزء الأكبر من أراضي السواد[1]، ولذلك اهتم الخلفاء العباسيون بجبايته وبتنظيمه، وظهر ذلك جليًّا في عهد هارون الرشيد رحمه الله، الذي طلب من قاضيه أبا يوسف أشهر فقهاء عصره وصاحب الإمام أبي حنيفة أن يكتب كتابًا جامعًا: "يَعْمَلُ بِهِ فِي جِبَايَةِ الْخَرَاجِ، وَالْعُشُورِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْجَوَالِي، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِيهِ وَالْعَمَلُ بِهِ. وَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ رَفْعَ الظُّلْمِ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالصَّلاحَ لأَمْرِهِمْ"[2]. فكتب أبو يوسف القاضي كتاب الخراج، وضح فيه الأسس الصحيحة لجباية الخراج وتنظيمها، وقد تبيَّن من كتاب الخراج لأبي يوسف أن موارد بيت مال المسلمين تنقسم بحسب ما يجب أن تصرف فيه إلى: الأول: الخراج. الثاني: خمس الغنائم. الثالث: الصدقات.

ومن يتصفح كتاب الخراج لأبي يوسف يجد أنه يتميز بخصائص عدة، تميِّزه عن غيره من كتب الخراج الأخرى، ومنها:

أَولا: أَنه يَشْمَل توصيات إصلاحية للخليفة.

ثَانِيًا: يتناول كثيرًا من المشاكل الإدارية والمالية والسياسية والاجتماعية، ويداوي كل هـذه المشاكل بما يناسبها من الأحكام الشرعية والاجتهادات العقلية.

ثَالِثا: أَنه سلك طَرِيقًا جَدِيدًا ذَا أهمية بَالِغَة، هـوَ أَنه حينما أَرَادَ أَن يَبْنِي حكمًا

---

(1) قال ياقوت الحموي: «يراد به رستاق العراق وضياعها، التي افتتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، سمي بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار؛ لأنّه حيث تاخم جزيرة العرب التي لا زرع فيها ولا شجر، كانوا إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزروع والأشجار، فيسمونه سوادًا، .. وهم يسمون الأخضر سوادًا والسواد أخضر»، وحدوده بين حرثي والعلث شمالًا إلى الخليج العربي جنوبًا، ومن حلوان شرقًا إلى القادسية غربًا. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، 3/ 272. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 203، هامش (1).

(2) القاضي أبو يوسف: الخراج، ص13. الجوالي مفرد جالية، وَهِي لَفْظَة تطلق فِي الأَصْل على أَيَّة جَمَاعَة تنْتَقل من وطنها إِلَى وَطن غَيره، وَمن هُنَا أطلق على أهل الذِّمَّة الَّذين أجلاهم عمر عَن جَزِيرَة الْعَرَب، ثمَّ نقل اللَّفْظ إِلَى الْجِزْيَة الَّتِي أخذت مِنْهُم.

جَدِيدًا حاول أَن يحصل على عمل حكمه من رسول الله ﷺ أَو من سيدنا عمر رضي الله عنه، وطبق هـذه القاعدة فِي كل مشكلة واجهها، فَإِن لم يحصل على شَيْء من السّنة أَو من تطبيقات عمر، اعْتمد على آراء أبي حنيفَة وَابْن أبي ليلى. ثمَّ يجْتَهد بِرَأْيِهِ، من أجل ذَلِك كَانَ كتاب الْخراج لأبي يُوسُف منبعًا عظيمًا ومصدرًا غزيرًا فِي إنشاء الدولة: إداريًا وماليًا[1].

وأما عن طريقة جباية الخراج، فقد عرف العصر العباسي الأول ثلاث طرق لجباية الخراج، وهي:

1 – **المحاسبة**: وهي إما أن تكون نقدًا أو نوعًا أو هـُما معًا.

2 – **المقاسمة**: وهي ضريبة نوعية تؤخذ على المحصول.

3 – **المقاطعة**: وهي ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة[2].

فكان الخراج يُجبَى نقدًا على مساحة الأرض سواء زرعت أم لم تزرع حسب الأسس التي وضعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان يسمى بخراج الوظيفة، وظل معمولًا به إلى أن استُبدل بنظام المقاسمة.

وقد اختلفوا في أول من بدأ بنظام المقاسمة، فنقل البلاذري عن يحيى بن آدم: "وأما مقاسمة السواد، فإن الناس سألوها السلطان في آخر خلافة المنصور، فقبض قبل أن تقاسموا، ثم أمر المهدي بها، فقوسموا فيها دون عقبة حلوان"[3]. أما الماوردي فيرى أن المنصور هـو من بدأ بالمقاسمة، فيقول: "ولم يزل السواد على المساحة والخراج إلى أن عدل بهم المنصور رحمه الله في الدولة العباسية

(1) القاضي أبو يوسف: الخراج، مقدمة المحقق، ص4.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، 2/ 226.

(3) البلاذري: فتوح البلدان، 1/ 267.

عن الخراج إلى المقاسمة؛ لأن السهر نقص، فلم تفِ الغلات بخراجها، وخرب السواد، فجعله مقاسمة"[1].

ففي زمن أبي جعفر المنصور كان نظام المقاسمة يقضي بأن يدفع الزارع جزءًا من غلة الأرض ويبقي له ما يكفيه، أما المساحة التي لا تزرع فلا يدفع عنها. وفي عهد المهدي العباسي طبق نظام المقاسمة وفق نسبة معينة دون اعتبار لمساحة الأرض، فبلغت نسبة المقاسمة 1/ 2 (النصف) على الأراضي التي تروى بالجر (سيحا)، وثلث المحصول على الأراضي التي تروى بالآلات (بالرش). ولم يشمل نظام المقاسمة النخل والكرم فبقيتا على نظام المساحة، ولكن روعي في تقدير ضريبته قربه من الأسواق[2].

وأما هـارون الرشيد فقد كانت سياسته الاقتصادية قائمة على تخفيف العبء على الرعية وعدم ثقل كاهلهم من الضرائب وغيرها، فقام بعدة إصلاحات خاصة بجباية الخراج، حيث أمر بإلغاء ضريبة العشر التي تجبى من أهل العراق، بالإضافة إلى نسبة النصف المقررة وبحكم نظام المقاسمة[3].

وعليه فالرأفة وتخفيف الأحمال كانت سمة سياسة الرشيد الإصلاحية في علاقته مع الفلاحين، فعدلت نسبة المقاسمة فأصبحت 2/ 5 (خُمْسَيْنِ) على الأرض التي تروى بالجر (سيحا)، و3/ 10 (ثلاثة أعشار) على الأراضي التي تروى بالآلات (بالرش). كما قام بتطبيق نظام المقاسمة على الأشجار المثمرة مثل النخل والكرم بدلًا من خراج الوظيفة، وحدد كمية الضريبة عليها بالثلث. كما ألغى

(1) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص262.

(2) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص262. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص204.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 236. وقد كان المهدي أضاف ضريبة العشر فوق النصف- أي بعد المقاسمة؛ بسبب الحاجة الشديدة إلى المال. انظر: محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، ص231.

الرشيد المبالغ المتأخرة على المزارعين، والتي عرفت بالبقايا، وأوجب الرأفة في جمعها؛ حتى لا يلحق بالمزارعين أي غبن. كما عمل بنصيحة أبي يوسف بإلغاء الرسوم الإضافية، ومساعدة الحكومة الزراع في كري القنوات الرئيسية.

وقد كان هـارون الرشيد شديدًا في مراقبة عماله، ومتى تأكد ظلمهم لم يتوان لحظة في عزلهم، كما فعل بعلي بن عيسى بن ماهان واليه على خراسان، الذي سار في أهل خراسان بالظلم والجور وجمع الأموال بغير وجه حق، حتى وصلت ميزانية ولده فقط ثلاثين مليونَ درهمٍ، فلما بلغ الخبر الرشيد عزله وولَّى مكانه هـرثمة بن أعين وذلك سنة 191هـ، وقد أمر الرشيد هـرثمة أن يرد المظالم إلى أهلها وأن يحكم بينهم بالعدل وأن يصادر أموال علي بن عيسى وأهله جميعًا، فكان مقدار ما استصفى هـرثمة من أموال علي بن عيس ثمانين ألف ألف (80 مليون درهمٍ)[1].

وقد كان أهل الخراج يعامَلون معاملة قاسية ويذَاقون صنوفًا متنوعة من العذاب من بعض الجباة، ولم تكن هـذه المعاملة وليدة عصر الرشيد، ولكنها استحدثت في عصور من سبقه من خلفاء الأمويين والعباسيين، وكان أعظم ما لاقاه الناس سنة 184هـ بعدما رجع الرشيد من الرقة إلى بغداد، فأخذ الناس ببقايا ما عليهم من الخراج، فولى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم بن سام فطالبهم بصنوف من العذاب، ويضرب الناس ويحبسهم، ومرض الرشيد في هـذه السنة، فدخل إليه الفضيل بن عياض، فشكا له ما لاقى الناس من العذاب والحبس، فقال: «ارفعوا عنهم، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من عذب الناس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة»، فأمر الرشيد بأن يرفع العذاب عن الناس[2].

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 319 – 320، 323 – 324، 340. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 647، 14/ 9 – 10.

(2) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 3/ 146. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 272. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 626.

كما خرج أهل الحوف - وهم مسلمون عرب من القيسية واليمنية - على ليث بن الفضل والي مصر لهارون الرشيد، لما رأوه من ظلم عمال الخراج وعسفهم، فتظلَّم الناس إلى الليث فلم يسمع منهم، فالتقى ليث مع أهل الحَوف في رمضان 186هـ فهزمهم، ورجع ليث إلى الفُسطاط، ورجع أهل الحَوْف إلى منازلهم ومنعوا الخراج، وخرج ليث إلى أمير المؤمنين هـارون لمستهل المحرَّم سنة 187هـ، فسأَل أمير المؤمنين أن يبعث معه بالجُيوش إليها، وذكر أَنَّهُ لا يقدِر على استخراج الخَراج من أهل الحَوْف إلا بجيش يُبعث بِهِ معه، وكان محفوظ بْن سُليمان بباب الرشيد، فرفع محفوظ إلى أمير المؤمنين يضمَن لَهُ جباية خَراجها عَنْ آخره بلا سُوط ولا عصا، فولَّاه أمير المؤمنين الخَراج[1].

ويبدو أن جمع الخراج بالتعذيب كان شائعًا، مما دفع أبو يوسف أن يوصي هـارون الرشيد بضرورة الكفِّ عن هـذا، لما فيه من المعصية وغضب الله تعالى، يقول: «وَلَا يضربين رَجُلٌ فِي دَرَاهِمِ خَرَاجٍ وَلا يُقَامُ عَلَى رِجْلِهِ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُمْ يُقِيمُونَ أَهْلَ الْخَرَاجِ فِي الشَّمْسِ وَيَضْرِبُونَهُمُ الضَّرْبَ الشَّدِيدَ وَيُعَلِّقُونَ عَلَيْهِمُ الْجِرَارَ وَيُقَيِّدُونَهُمْ بِمَا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ، وَهَذَا عَظِيمٌ عِنْدَ الله شنيع فِي الْإِسْلَام»[2].

وخلاصة القول:

أن الدولة في زمن الرشيد كانت تحرص في جباية الخراج على تحري العدل بين الرعية ومراعاة الشرع وإزاحة الظلم من غير إضرار بمالية الدولة أو أهل الخراج.

ب - خمس الغنائم

تشمل الغنيمة كل ما أصاب المسلمين من عساكر أهل الشرك وما أجلبوه من المتاع والسلاح والكراع (كل أنواع الخيل)، وجعل منها أبو يوسف ما أصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز وهو الذهب والفضة الذي خلقه الله يوم خلقت،

(1) الكندي: الولاة والقضاة، 1/ 108 - 109.

(2) القاضي أبو يوسف: الخراج، 122.

وما يستخرج من البحر من حلية وعنبر، ويقسم الإمام أبو يوسف أربعة الأخماس على القائمين سواء في ذلك أهل الديوان والمتطوعون، يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه، وخالف في ذلك رأي شيخه أبي حنيفة الذي جعل للفارس سهمان وللراجل سهم. وقد خيَّر أبو يوسف الرشيد أن يختار ما يراه صالحًا للرعية وأخْيَر للأمة.

وأما مصارف الغنائم، فقد حددها الله تعالى بقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **[الأنفال: 41]**.

فأما ما يتعلق بسهم الرسول وذوي القربى فقد مال أبو يوسف رحمه الله إلى رأي الشافعي، أن سهم الرسول ﷺ يصرف في مصالح المسلمين، وسهم ذوي القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابني عبد مناف دون بني أخويهم عبد شمس ونوفل، ويسوي في العطاء بين الأغنياء والفقراء؛ لأن سبب الاستحقاق القرابة[1].

جـ - الجزية

تعتبر الجزية من أهم موارد بيت مال المسلمين، وهي تؤخذ من أهل الذمة ممن في السواد وغيرهم من أهل الحيرة وسائر البلدان من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ما خلا نصارى بني تغلب وأهل نجران خاصة، مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، وقد فرضت على الرجال القادرين، وهي مقابل الزكاة عند المسلمين، فمقدار الجزية 48 درهمًا على الأغنياء، و24 درهمًا على متوسطي الحال، و12 درهمًا على الفقراء[2].

(1) القاضي أبو يوسف: الخراج، 28 – 33. الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة العباسية، ص 161 – 162. بتصرف.

(2) القاضي أبو يوسف: الخراج، ص 135 – 136.

فهذه وغيرها من موارد بيت مال المسلمين تمثل مصدر قوة للدولة الإسلامية، وهي مصدر كبير لقوة اقتصادها ووفرة خزائنها. وهكذا كانت خلافة الرشيد في غاية العظمة والفخامة والغنى، حتى يحْكى أَنه كَانَ يستلقي على قَفاهُ، وَينظر إلى السحابة الحاملة للمطر، ويقول: "اذهبي إِلَى حيث شئتِ، يأتيني خراجك"[1].

وصفوة القول

إن خزائن العباسيين كانت تفيض من الأموال التي كانت تجبى من هـذه الموارد، حتى بلغت أيام هـارون الرشيد ما يقرب من 42 مليون دينارٍ، عدا الضريبة العينية التي كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب، لقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال في كل سنة نحو خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة (500،00،000 درهمًا من الفضة)، وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب (10،000،000 دينارًا من الذهب)[2].

(1) القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، 1/ 194.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 227.

ثانيًا: قائمة الخراج أيام هارون الرشيد

أورد الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب تقريرًا عن قائمة الخراج في عهد أمير المؤمنين هـارون الرشيد، لأبي الوزير عمر بن مطرف الكاتب عرضه على يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد، لما يُحمَل إلى بيت المال من جميع النواحي، من المال والأمتعة، يقول الجهشياري:

"وجدت في كتاب عمله أبو الفضل محمد بن أحمد عبد الحميد الكاتب، في أخبار خلفاء بني العباس، بخط أبي الفضل، يقول: أنفذ إلي أبي القاسم جعفر بن محمد بن حفص رقعة، أنسخها من دواوين الخراج، الكاتب ذكر فيها أن أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب من أهل مرو، وأنه كان يتقلد ديوان المشرق للمهدي، وهو ولي عهد، ثم كتب له في خلافته، ولموسى ولهارون، وأنه عمل في أيام الرشيد تقريرًا عرضه على يحيى بن خالد، لما يحمل إلى بيت المال بالحضرة من جميع النواحي، من المال والأمتعة"، ونسخته:

	أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدينار	مقدار الجباية بالدرهم	الأمتعة والعروض
1	أثمان غلات السواد		80 مليونًا و780 ألف درهمٍ.	
	أرض السواد		14مليونًا و800 ألف درهمٍ.	- الحلل النجرانية: 200 حلة. - الطين للختم (طين أحمر لختم الرسائل): 240رطل.

يكون مجموع خراج أرض السواد: 95 مليونًا و 580 ألف درهمٍ.

2	كسكر		11 مليونًا و600 ألف درهمٍ.	
3	كور دجلة		20 مليونًا و800 ألف درهمٍ.	
4	حلوان		4 مليونًا و800 ألف درهمٍ.	
5	الأهواز		25 مليونَ درهمٍ.	السكر: 30 ألف رطل.
6	فارس		27 مليونَ درهمٍ.	- ماء الزبيب الأسود: 20 ألف رطل. - الرمان والسفرجل: 250 ألفًا. - ماء الورد: 30 ألف قارورة. - الأنبجات: 15 ألف رطل. - الطين السيرافي: 50 ألف رطل. - الزبيب بالكر الهاشمي: ثلاثة أكرار.
7	كرمان		4 مليونًا و200 ألف درهمٍ.	- المتاع اليمني والخبيصي: 500 ثوبًا. - التمر: 20 ألف رطل. - الكمون: 100 رطلًا.

8	مكران		400.000 ألف درهمٍ.	
9	السند وما يليها		11مليونًا و500 ألف درهمٍ.	- الطعام بالقفيز الكيرخ: مليون قفير. - الفيلة: ثلاثة فيلة. - الثياب الحبشية: 2000 ثوبًا. - الفوط: 4000 فوطة. - العود الهندي: 150منَا. - ومن سائر أصناف العود: 150 منَا. - النعال: 2000 زوج، - وذلك سوى القرنفل والجوز بوا.
10	سجستان		4 مليونًا و600 ألف درهمٍ.	- الثياب المعينة: 300 ثوب. - الفانيذ: 20 ألف رطل.
11	خراسان		28 مليون درهمٍ.	- نقر الفضة، الأمناء: 2000 نقرة. - البراذين: 4000 برذونًا. - الرقيق: 1000 رأسًا. - المتاع: 27 ألف ثوب. - الإهليلج: 300 رطلًا.

12	قنسرين والعواصم	490 ألف دينارٍ.		
13	حمص	320 ألف دينارٍ.		– الزبيب: 1000 راحلة.
14	دمشق	420 ألف دينارٍ.		
15	الأردن	26 ألف دينارٍ.		
16	فلسطين	320 ألف دينارٍ.		– ومن جميع أجناد الشام من الزبيب: 300 ألف رطل.
17	مصر	مليون و920 ألف دينارٍ.		
18	تنيس ودمياط والأشمون من أعمال مصر	هـذه وقفت للنفقات		
19	برقة		مليون درهمٍ.	
20	إفريقية		13 مليون درهمٍ.	– من البسط: 120 بساطًا.
21	اليمن	8 مليونًا و70 ألف دينارٍ. سوى الثياب		
22	مكة والمدينة	300 ألف دينارٍ.		
23	جرجان		12 مليون درهمٍ.	– الإبريسم: 1000 منا.

24	قومس		مليون و500 ألف درهمٍ.	- نقر الفضة، الأمناء: 1000 نقرة. - الأكسية: 70 كساءً. - الرمان: 40 ألف رمانة.
25	طبرستان، والرويان، ودنباوند		6 ملايين و300 ألف درهمٍ.	- الفرش الطبري: 600 قطعة. - الأكسية: 200 كساء. - الثياب: 500 ثوبًا. - المناديل: 300 منديلًا. - الجامات: 600 جامًا.
26	الري		12 ألف درهمٍ.	- الرمان: 100 مليون رمانة. - الخوخ: 1000 رطلًا.
27	أصفهان، سوى خمتش ورساتيق		11 مليون درهمٍ.	- العسل: 20 ألف رطل. - الشمع: 20 ألف رطل.
28	همذان ودستبي (بين الري وهمذان)		11 مليونًا و800 ألف درهمٍ.	- الرب والرمانين: 1000 منا. - العسل الأروندي: 20 ألف رطل.
29	ماهيُّ البصرة (نهاوند) والكوفة (الدينور)		20 مليونًا و700 ألف درهمٍ.	

30	شهرزور وما يليها		24 مليون درهمٍ.	
31	الموصل ما يليها		24 مليون درهمٍ.	- العسل الأبيض: 20 ألف رطل.
32	الجزيرة، والديارات، والفرات		34 مليون درهمٍ.	
33	أذربيجان		4 مليون درهمٍ.	
34	موقان وكرخ		300 ألف درهمٍ.	
35	جيلان			- من الرقيق: 100 رأسًا. - البز والطيلسان: (لم يذكر في الأصل). - من العسل: 12 زقا. - من البزاة: 10 بزاة. - من الأكسية: 20 كساءً.
36	أرمينية		13 مليون درهمٍ.	- البسط المحفورة: 20 بساطًا. - الرقم: 580 قطعة. - المالح المنبوذ ماهيّ: 10 آلاف رطل. - الطريخ: 10 آلاف رطل. - اليزاة: 30 بازيا. - البغال: 200 بغلًا.

وذكر الجهشياري أن جملة التقدير من العين: 5 مليون دينار، وأن قيمتها بالدراهم بحساب سعر الصرف للدينار الواحد 22 درهمًا، تساوي: 125 مليونًا 532 ألف درهمٍ. وأن مقدار الورق: 404 مليونًا و708 ألف درهمٍ.

فيكون مجموع الورق مع قيمة العين: خمس مائة ألف ألف، وثلاثين ألف ألف، وثلاث مائة ألف، واثني عشر ألف درهم (530 مليونًا و312 ألف درهمٍ)[1].

وبالنظر إلى قائمة الجهشياري الخاصة بتقدير ما كان يحمل من جميع النواحي إلى بيت المال ببغداد، نلاحظ التالي:

1 – أن هـذه القائمة عرضت على يحيى بن خالد البرمكي زمن الرشيد، وعليه فإن زمن القائمة يعود إلى الفترة الواقعة بين عامي 170 إلى 187هـ، وهي الفترة الذي وزر يحيى البرمكي للرشيد.

2 – هـناك بعض الأخطاء الحسابية الواردة في قائمة الجهشياري في جملة التقدير من العين، فقد ذكرت أن قيمة 5 مليون دينار بالدراهم تساوي 125 مليونًا 532 ألف درهمٍ، وهذا خطأ حسابي؛ لأن مجموع ضرب 5 مليون × 22= 110 مليونًا فقط لا غير.

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 227 – 235.

ثالثًا: النفقات

كانت الولايات داخل الدولة العباسية تنفق من جبايتها في وجوه الإنفاق المستحقة فيها، وتحمل ما يفضل من الجبايات إلى الحاضرة، وإذا لم تف الجبايات بوجوه النفقات- وهذا يحدث نادرًا - كانت الدولة تحمل ما عندها من الأموال إلى الولاية.

ومما يلاحظ أن الدولة منذ عهد هارون الرشيد أخذت تعهد إلى من تتوسم بهم الكفاية والقدرة على ضبط الأمور وحفظ الأمن، فتعهد إليهم بالولاية وتجعلها باقية فيهم، ومثال ذلك ولاية إفريقية (تونس) التي عهد الرشيد بولايتها إلى إبراهيم بن الأغلب وظلت باقية في ولده من بعده، وقد تعهد إبراهيم للرشيد أن يحمل إليه أربعين ألف دينار في كل سنة[1].

أوجه النفقات

ومع هذا الاتجاه الذي جعل كامل النفقة وإدارتها من مسؤوليات الولاية، فإن بيت المال في بغداد ظل يتحمل مسؤوليات كبيرة وعديدة، منها:

1 - العطاء:

كان العطاء أهم وجوه النفقات في الدولة، وكان الجند بين الطاعة والولاء أو العصيان والتمرد معقودة قلوبهم في الأغلب على إخراج العطاء لهم وزيادته أو تأخيره وتنقيصه. ففي سنة 171هـ أغزى هارون الرشيد الصائفة بقيادة هرثمة بن أعين، وأمره بعمارة طرسوس وبنائها وتمصيرها، وأشخص إليها المقاتلة من أهل

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 318. محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، ص276.

خراسان وهم ثلاثة آلاف رجل فوردوا طرسوس، ثُمَّ أشخص المقاتلة الثانية وهم ألفا رجل: ألف من أهل المصيصة، وألف من أهل أنطاكية عَلَى زيادة عشرة دنانير عشرة دنانير لكل رجل في أصل عطائه[1].

وفي سنة 170هـ حج هـارون الرشيد فأعطى أهل الحرمين عطاءً كثيرًا، وقسم فيهم مالًا جليلًا، وفي سنة 186هـ حج هـارون الرشيد وأخرج معه ابنيه محمّدًا الأمين، وعبد الله المأمون، وليّي عهده، فبدأ بالمدينة وأعطى أهلها ثلاثة أعطية، كانوا يقدمون إليه فيعطيهم عطاءً، ثمّ إلى محمّد فيعطيهم عطاءً ثانيًا، ثمّ إلى المأمون فيعطيهم عطاءً ثالثًا. ثمّ صار إلى مكّة، فأعطى أهلها عطاءً. فبلغ ذلك ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار (مليون و50 ألف دينارٍ)[2].

2 – **النفقات العسكرية:**

وإلى جانب العطاء، كانت الدولة تنفق في حفظ الأمن والقضاء على الثورات في الداخل، والذب عن الحريم وحماية البيضة ونشر الإسلام وقتال الأعداء، قال الرشيد لما ولي الخلافة: "لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحامل باقي ذلك، للدفع عن حريمكم، وما لعله أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال، حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها، والحال التي كانت عليها"[3]. وقد استدعت العلاقات مع الأعداء، بخاصة الروم البيزنطيين، أن تظل الدولة تشهر على تحصين الثغور وبناء المدن والمعاقل، وشحنها بالمقاتلة وترميمها وبناء الأسوار وتوفير الأسلحة المختلفة[4].

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ص170.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 234، 275. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 527. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 343 – 344.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 231.

(4) محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، ص283.

3 - أعطيات بني العباس

كانت الدولة العباسية تصرف لأفراد البيت العباسي عطاءً راتبًا، وكانوا موضع برِّ الخلفاء وصلتهم، ولم يكن العطاء يقتصر على بني العباس فقط، وإنما شمل الطالبين أيضًا، ففي سنة 170هـ أمر هـارون بسهم ذوي القربى، فقسم بين بني هـاشم بالسوية[1].

ولم تقتصر أبواب النفقات في الدولة العباسية على ما سبق، فهناك أبواب أخرى كثيرة، منها: نفقات دار الخلافة وبناء المدن الجديدة والتوسعة على الناس، ووجوه التنمية الاقتصادية في البلاد، كاستصلاح الأراضي وحفر الأنهار وجلب المحاصيل، وغير ذلك.

(1) الطبري:تاريخ الرسل والملوك، 8/ 234. محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، ص290.

رابعًا: الزراعة

اعتنت الدولة العباسية بالزراعة اعتناءً كبيرًا؛ لأنها كانت تعطي مردودًا لخزينة الدولة العامة يقدَّر بـ30٪ من الواردات، من أجل ذلك أحيا العباسيون نظام الري القديم ونظموه، وحفروا الترع وحفروا قنوات جديدة وخاصة في منطقة بغداد، فمن أعمال الري نهر أبي الأسد عند البطيحة، حفره أبو الأسد قائد المنصور، ونهر الصلة الذي حفره المهدي في أعمال واسط، ونهر الريان الذي حفرته الخيزران، ونهر القاطول (نهر أبي الجند كان مقطوعًا من دجلة) الذي حفره هارون الرشيد لقيام ما يسقى منَ الأرضين بأرزاق جنده، وأنفق عليه عشرين ألف ألف (20 مليونًا) درهم. ونهر الميمون الذي حفره وكيل لأم جعفر زبيدة[1].

وقد اهتم الخلفاء بالمحافظة على نظام الري، وكانوا يوجهون عناية خاصة لحفظ السدود من الانفجار ومنع خطر الفيضان. فلا عجب في أن أصبح السواد مغطى بشبكة من القنوات، مكتسبًا بالمزارع والقرى. أما أرباض بغداد فامتدت إليها جمع القنوات، مما مكَّن أهلها من غرسها بالنخيل، بعد أن كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد[2].

وكان الرشيد يعمل جاهدًا على تأليف المزارعين ليعمروا أراضيهم، كما ألّف مزارعي فلسطين؛ لتعمير الأرض التي تعطلت بالطاعون الذي أصاب الناسَ هناك، وجعلها من ضياع الخلافة لتعلق إشراف الدولة عليها، والإنفاق من أموالها

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص134. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص203.

(2) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 204. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي – السياسي والحضاري، ص240.

في إصلاحها وزراعتها. وقد ترك قوم من المزارعين في فلسطين زراعة الأرض وهجروا ما بأيديهم من الضياع، فخفف الرشيد عنهم من خراجهم، وأحسن المعاملة إليهم حتى رجعوا[1].

الحاصلات الزراعية

يعد أكثر المحاصيل الزراعية انتشارًا في الدولة العباسية البُرُّ (حب القمح) وخاصة في الجزيرة أعالي ما بين النهرين، وأما العراق (أسافل ما بين النهرين) فإنتاجها الشعير، في حين كانت مصر - وجهة الفيوم منها بالخصوص - والشام وإفريقية والمغرب الأوسط من كبريات الأقاليم المنتجة للقمح. والأرز المجلوب من الهند والمعروف بالعراق فكان منتشرًا في مصر وجهة البحر الميت، وكان يوجد منه أيام هـارون الرشيد مزارع شاسعة ببلاد ما وراء النهرين.

وأما الزيتون فكانت غراسته شائعة شيوعًا كبيرًا بالشام وإفريقية والمغرب الأوسط. وأما النخل فقد انتشر بجنوب الشام وغربي الصحراء وجنوب الجزائر وتونس. ومن الزراعات الكبرى أيضًا زراعة القصب السكري، المستورد كذلك من الهند عـن طريق خوزستان، فكانت مصر من مراكز إنتاجه واستهلاكه تليها جزيرة صقلية وبلاد ما بين النهرين، وقد اعتنت الخلافة العباسية بزراعة الفواكه وبقول أخرى منها: شجر البرتقال والموز والليمون، والتفاح والخوخ والبطيخ والرمان.

وأما زراعة النباتات الزراعية فقد تنامت بدورها أيضًا، ويأتي في مقدمتها القطن، وكان يزرع في بلاد ما وراء النهر وإيران وجنوب العراق. وأما القُنَّب المستعمل في صنع الملابس الخشنة وقلاع السفن وحبالها، فقد كان يزرع في آسيا الوسطى وجنوب العراق والأندلس.

وأما عن مردود هـذه الزراعات على خزينة الدولة، فقد كان مردود الزراعات بالبلاد الإسلامية أرفع منه بأوروبا الغربية فنسبته في إنتاج البُرِّ بمصر مثلًا في عهد

(1) محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، ص301.

هـارون الرشيد كانت 1/ 10 مقابل 2 أو 1/ 5،2 في أوروبا على عهد شارلمان، ومردودات من هـذا القبيل لن تُبلغ في فرنسا إلا في القرن الثامن عشر الميلادي / الثاني عشر الهجري[1].

وما كانت الدولة لتصل إلى هـذا الحد من الرخاء لولا سياسة التخفيف التي انتهجها هـارون الرشيد تجاه الفلاحين، فقد كانت عاملًا رئيسًا في هـذا الازدهار التي شهدته الزراعة في عهده، كذلك كان لا يألو جهدًا في حل مشاكل الفلاح وأزماته، ويعطي لهم اهتمامًا مع ما يحمله من هـموم الخلافة وأعباء الدولة.

حتى روي أن الرشيد وضع على أهل السواد العُشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف، وترك بعض أهل الضياع في فلسطين أرضهم فوجه إليهم أحد كبار قواده فدعا قومًا من أكرتها ومزارعها إلى الرجوع إليها، على أن يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم، فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف، وجاء قوم منهم بعد، فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه وهم أصحاب الردود. فكان الرشيد يسد كل خلل في مملكته ويهتم كل الاهتمام أن يخفف عن الفلاحين، وكان رجاله لا يألونه نصحًا؛ لأنه يهتم لكل ما ينفع[2].

(1) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، 265 – 268. بتصرف.

(2) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، 2/ 213 – 214.

خامسًا: الصناعة

كان للصناعة نصيب كبير من اهتمام الدولة العباسية، حيث اهتموا باستخراج المعادن، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان. واستخرجوا الخزف والمرمر من تبريز، والملح والكبريت من شمالي فارس، والقار والنفط من بلاد الكرج. كما اشتهرت الشام بصناعة الزجاج وضرب به المثل في الصفاء والرقة، حتى يقال: "أرق من زجاج الشام"، و"أصفى من زجاج الشام". واشتهرت صناعة الورق في بغداد ودمشق وطبرية وطرابلس والشام وسمرقند، حتى قيل: "إن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر وبغداد"[1].

أما صناعة النسيج فكانت هـي الصناعة الكبرى في الدولة العباسية، فهي في ذاك العصر أحسن ما ينتجه الشرق الأوسط كمالًا وجودة وتنوعًا، فمنها ستائر إيران الخفيفة، وشفوف دلتا النيل وأنسجته الكتانية الرقيقة، ووشائح خراسان وكابول الرفيعة، التي كانت تصدَّر حتى بلاد الصين، وستائر أنطاكية وبغداد، وزرابي أرمينية الفاخرة، ومن وشاء الشام إلى قطنيات مصر، فكان يوجد كل ما يصلح لإكساء البشر كان ينتجه الفضاء الإسلامي[2]. وكان ببغداد عدد كبير من دور الصناعة، وقد قيل إنه كان بها أربعمائة رحًى مائية، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف. وكان لكل حرفة سوق خاص، كسوق الحدادين والنجارين وسوق البزازين[3].

وقد تنوع الإنتاج الصناعي بحسب المواد الأولية المستخدمة في الصناعة، وحاجات الناس المختلفة، والخبرات والمهارات المكتسبة عند الحرفيين

(1) أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، 364 - 365. بتصرف.

(2) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، 271.

(3) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 245.

والصناع، وقد اجتهد الصناع والحرفيون على تلبية حاجات الناس الأولية؛ لذلك كانت صناعة النسيج والحياكة من أهم الصناعات وأكثرها نشاطًا في ذلك الوقت.

فكانت بلاد ما وراء النهر مثل بخارى وخوارزم وفرغانة وأشروسنة وسمرقند تنتج الثياب الصوفية والقطنية والخز وهو نسيج من الصوف والحرير، وكانت كابول تنتج ثياب القطن، التي يعمل منها البسنيات الفاخرة والشرابيات الثمينة، ونيسابور تعمل الثياب الملحمية والطاهرية والثياب البيض والعمائم والملاحم، وكانت قزوين وطبرستان تنتج الثياب القطنية والكتانية والإبريسمية. وكانت بغداد تشتهر بالمنسوجات والثياب الحريرية والثياب العتابية الحريرية والأزر والعمائم والمناديل، ودمشق بالديباج، ومصر بالأكسية والوشي.

كذلك اهتم الصناع والحرفيون على تلبية حاجات الناس الأولية من الأثاث للمنازل والبيوت، فكانت طبرستان تصنع الفرش، وأرمينية وأذربيجان تصنع البسط والرقاق، وجرجان الستور، وفارس المقاعد والمصليات، والعراق السجاد والستور، ومصر تصنع الستور والخيام. وهناك صناعة الحلي والزينة، مثل الخواتيم والأقراط وغيرها، وكانت تتخذ فصوص الخواتيم من الياقوت والزبرجد والعقيق، وكذلك انتشرت الصناعات المعدنية كالآلات والأدوات المختلفة، مثل السهام والأسلحة والسكاكين والموازين والإبر وغيرها[1].

ونؤكد أن هـذا النبوغ الصناعي الذي شهدته الدولة العباسية- خاصة عهد الرشيد - نابعًا من الاستقرار السياسي وشيوع الأمن، وتشجيع الخلفاء والإبداع العلمي الذي وصلت إليه العقول المسلمة في هـذه العصور. كما كان لهذا الازدهار مظاهر، لعل منها: انتشار الغنى بين الناس، وزيادة موارد الدولة وخزينة بيت مال المسلمين، مما كان له رد فعل إيجابي على الرعية من جهة، وعلى عظمة هـيبة الدولة خارجيًا وداخليًا من جهة أخرى.

(1) ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، ص308 - 414. بتصرف.

سادسًا: التجارة الداخلية

كما اعتنت الدولة العباسية بالزراعة والصناعة كان اعتناؤها كذلك بالتجارة، فاهتمت بتسهيل طرق التجارة، فأقاموا الآبار والمحطات في طريق القوافل، وأنشأوا المناثر في الثغور، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من غارات لصوص، وكان لذلك أثر بالغ في تشجيع التجارة الداخلية والخارجية[1].

ازدهار التجارة الداخلية

كانت العناية البالغة والاهتمام الكبير من العباسيين بالزراعة ومنتجاتها والصناعة والتصنيع وشيوع الأمن والاستقرار لها أثر بالغ في تشجيع التجارة الداخلية، فضلًا عن اتساع رقعة الدولة على الخريطة الجغرافية وشمولها أبرز المواقع والأسواق التجارية في العالم، بل إن الطرق التجارية الرئيسية بين الشرق والغرب تمر بالدولة العباسية، فكانت تحت مظلتها مصر والشام والعراق وإفريقية وبلاد ما وراء النهر والهند والسند وبلاد الكرخ. وأنهار النيل ودجلة والفرات وسيحون وجيحون، والبحرين الأبيض والمتوسط والخليج العربي وغيرها من ممرات التجارة البرية والبحرية.

وقد شجع الخلفاء العباسيون التجارة تشجيعًا غير مباشر - وخاصة في عصر الرشيد - بما أدخلوه من مظاهر الترف إلى بلاطهم، وذلك بتمهيد الطرق والاهتمام الكبير ببغداد عاصمة الخلافة حتى أصبحت سوقًا تجاريًا من الطراز الأول، وكانت دمشق مركزًا هـامًّا للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات إلى بلاد العرب ومصر. وأصبح الفرات ودجلة شريانين تجاريَّين هـامَّين داخل الدولة العباسية[2].

(1) السابق، 2/ 255.

(2) السابق نفسه، 2/ 255.

المراكز التجارية

كانت أنطاكية ببلاد الشام أهم المراكز التجارية في الخلافة العباسية، فضلًا عن الفرما والإسكندرية ودمشق، حيث شهدت جميعها نشاطًا تجاريًا واسعًا، أما بغداد فقد سارت أكبر الأسواق العالمية التجارية، تتحدد أثمان كثيرة من السلع فيها، وزاد من أهميتها كونها حاضرة الخلافة العباسية وملتقى كثير من الطرق التجارية[1].

كما فكَّر الخليفة هـارون الرشيد في شق قناة تصل ما بين البحرين المتوسط والأحمر، وكانت فكرة الرشيد فتح البحر عند السويس حتى يقترب المجال عند المغرب إلى عمان فسيراف ففارس فأطراف العراق، ولا سيما أن على البحر المتوسط سواحل إفريقية وتونس ومصر وطرابلس والأندلس إلى الغرب والجنوب وسواحل صقلية والفرنجة إلى الشمال وسواحل الروم والشام إلى الشرق، وهي بلدان كثيرة الخيرات وافرة الغلات، إلا أن وزيره يحيى بن خالد البرمكي أخافه من أن الروم قد يسلكوا هـذه القناة التي توصلهم إلى الحرمين في الحجاز، مما يمكنهم في طعن المسلمين في مقدساتهم وقطع طريق الحج، فعدل عن ذلك[2].

وهذا الخبر إن دلَّ فإنما يدل على قمة التفكير الإبداعي الذي تمتع به هـارون الرشيد رحمه الله، وأن هـارون الرشيد أول من فكَّر في حفر قناة السويس، وهذه الفكرة لم تخامر إلا ذهنًا متفتحًا، متمتعًا بسعة الأفق والرؤية الثاقبة، وأن الرشيد كان يتمتع بالعبقرية العلمية، فلم يكتمل حفر قناة السويس إلا في 1286هـ/ نوفمبر 1869م، أي بعد ما يزيد عن ألف عام ويزيد، ولم يكن يمنع الرشيد من استكمال هـذه الفكرة سوى خوفه على أمن المسلمين وحرماتهم ومقدساتهم.

---

(1) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص246.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 2/ 204. ل ديورانت: قصة الحضارة، 13/ 109. جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص108.

الأسواق.. النشاط التجاري الداخلي

وكان النشاط التجاري الداخلي يتركز في الأسواق التي تقام في كل مدينة، فقد كان لكل طائفة من التجار سوق يختص بها، حيث يمكثون إلى ما بعد الظهر ثم يعودون إلى منازلهم في المساء. واتخذت الأسواق أسماء السلع التي تبيعها، فهناك دار بيع الفاكهة والخضار، تسمى دار البطيخ، وهناك سوق الصاغة وآخر للسراجين، وآخر للزجاجين. أما الفنادق فقد خصصت للتجار الغرباء وكانت أشبه بالأسواق الكبيرة، وكان التجار يضعون بضائعهم في أسفلها وينامون في أعلاها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية[1].

كما اهتمت الدولة بمجال آخر من مجالات التنمية والاستثمار، وهو إقامة الحوانيت والمحلات التجارية، ووضع غلة معينة عليها تجبيها من شاغليها إجارة عنها، وقد استزاد الرشيد في تلك الأسواق، وكانت تجبى مع الصوائف. ولم تقتصر إقامة الحوانيت والأسواق ووضع الغلات عليها ببغداد، وإنما كان أسلوب من أساليب الاستثمار التي اتبعتها الدولة[2]، فقد ورد أن هارون الرشيد اتخذ في قزوين حوانيت ومستغلات، قال محمد بن هارون الأصبهاني: "اجتاز الرشيد بهمذان وهو يريد خراسان، فاعترضه أهل قزوين وأخبروه بمكانهم من بلد العدو وعنائهم في مجاهدتهم وسألوه النظر لهم وتخفيف ما يلزمهم من عشر غلاتهم في القصبة، فسار إلى قزوين ودخلها وبنى مسجد جامعها..، وابتاع بها حوانيت ومستغلات، وأوقفها على مصالح المدينة وعمارة قبتها وسورها، فهي تنفق عليها ويبنى منها ما استمرّ بغلّتها إلى هذا الوقت"[3].

(1) أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص371.

(2) محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، ص304.

(3) ابن الفقيه: البلدان، ص559. ياقوت: معجم البلدان، 4/ 343.

سابعًا: التجارة الخارجية

لم تكن التجارة الخارجية في الدولة العباسية بأقل رواجًا ونشاطًا من التجارة الداخلية، حتى بلغت البضائع الإسلامية إلى بلاد العالم شرقًا وغربًا. ففي عهد الرشيد كان الخليج العربي هـو السبيل التجارية الوحيدة نحو المحيط الهندي وسيلان وماليزيا والهند الصينية والصين، وقد ظل تفوق موانيء الخليج في عهد الرشيد على غيره من الموانيء تفوقًا مطلقًا. وبعد أن كان العرب يجوبون البحار الواقعة على ساحل الهند أصبح من النادر أن يجوبوا الخليج العربي/ الفارسي؛ لأنهم أخذوا يقومون برحلات طويلة إلى بلاد الصين، وقد اتخذ العرب ميناء سيراف مرسى لهذه السفن التي كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرها من هـذه الجهات وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين.

وقد استطاع العرب منذ أواخر القرن الثاني الهجري– فترة حكم الرشيد – أن يستقروا في ميناء كانتون أو ما يعرف عند العرب بميناء خانفو[1]، وكان لهم – بسبب تساهل إمبراطور هـذه البلاد وكرمه – قاض إسلامي يحكم بينهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية ويؤمهم في الصلاة، كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل في داخل هـذه البلاد؛ ابتغاء التجارة مع أهلها.

وقد تمتعت الدولة العباسية بكثرة الموانئ العظيمة التي كانت سبيل التجارة الخارجية إلى بلاد الغرب والشرق، منها:

ميناء البصرة: وقد كان مركز معاملات مالية يلتقي فيه النصارى واليهود والفرس والعرب والهنود.

(1) إلى الجنوب من مدينة شنغاي الحالية بجمهورية الصين الآن.

ميناء سيراف: الواقع على الساحل الجنوبي من إيران، والمتجه بمبادلاته إلى المحيط الهندي وما يليه.

ميناء عدن: وهو يعد مصرفًا لمنتجات سواحل إفريقيا ومحطة بينها وبين الشرق الأقصى.

وكان العرب يصدرون لبلاد الشرق والغرب الشعير والحنطة والأرز والفاكهة وزهور مازندران المشهورة، والسكر والزجاج والمرمر، والأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية، والزيت والعطور[1].

---

(1) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، 279 - 283. بتصرف. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 258 - 261. بتصرف.

ثامنًا: الاعتناء بموسم الحج

من أكبر حسنات الخلفاء العباسيين - وما زالت أجورهم تجري منها عليهم إلى الآن - اهتمامهم بموسم الحج وتسهيل طرقه لوفود الحجيج واعتنائهم بالأماكن المقدسة في بلاد الحرمين. فمن مظاهر ذلك أن بنوا القصور والمنازل والبرك على طول الطريق إلى مكة، وحفروا الترع والعيون؛ طلبًا لراحة الحجاج.

1 - الاهتمام بالسقاية وبناء العيون والآبار

لمَّا تولى بنو العباس الخلافة اهتم خلفاؤهم بتوفير المياه لأهل مكة ولحجاج بيت الله الحرام، وقد قدَّموا خدمات جليلة في أمر السقاية، فأمر أبو العباس السفاح بناء حجرة بجوار بئر زمزم لمن يتولى أمر السقاية، وأمر أبو جعفر المنصور سنة 138هـ ببناء قبة فوق بئر زمزم، وزاد من عدد البرك داخل الحرم بدلًا من ازدحامهم على حوض واحد[1].

وقد عُرف عن الرشيد مواظبته على الحج، من أجل ذلك اتخذ المصانع والآبار والبرك والقصور في طريق مكة، وأظهر ذلك بها وبمنَى وعَرَفَات ومدينة النبي ﷺ، فعمَّ الناسَ إحسانُه. فعندما أدى هارون الرشيد فريضة الحج سنة 173هـ أمر أثناء وجوده في مكة ببناء مظلة المؤذنين فوق بئر زمزم، بجوار القبة التي شيدها المنصور، كما أمر بزيادة عدد البرك داخل المسجد الحرام.

وعندما تعطلت عين الأرين (التي أقامها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة 43هـ) في عهد أمير المؤمنين هارون الرشيد أمر واليه على مكة بإجراء عين

(1) الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، 2/ 99. سليمان عبد الغني مالكي: مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، ص60.

الرشا، التي تقع أعلى مكة في داخل شعب الخرمانية، كما أمر بإيصال قنوات من هـذه العين إلى القنوات التي عملها معاوية لإجراء عين الأرين، التي جدد الرشيد قنواتها وأوصلها إلى البركة التي قام بعملها قرب المسجد الحرام، وقد استفاد منها أهل مكة والحجاج معًا من هـذه العين[1].

ولم تكن تلك الأعمال الحسنة من جانب الرشيد فقط، بل تسابق فيها الأمراء والفقهاء، وكانت زبيدة أم جعفر زوج هـارون الرشيد أكثر من اهتمت بذلك، فقد سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الرواية عندهم بدينار، وأجرت عين ماء من مكة عشرة أميال تحت الجبال والصخور حتى أدخلته من الحل إلى الحرم، فقال لها دليلها: يلزمك نفقة كثيرة، فقالت: اعمل ولو كانت ضربة فأس بدينار. فبلغت النفقة عليه ألف ألف وسبعمائة ألف دينار (مليونٌ و700 ألف دينارٍ). وهذه العين المذكورة التي أجرتها، آثارها باقية مشتملة على عمارة عظيمة عجيبة مما يتنزه برؤيتها على يمين الذاهب إلى منى من مكة، ذات بنيان محكم في الجبال، تقصر العبارة عن وصف حسنه. كل ذلك فضلًا عن اهتمامها ببناء المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور، وإيقافها الأُلوف على ذلك[2].

وقد وصفها ابن جبير في رحلته مبينًا أثرها الإنساني على المارة والحجيج، بقوله: "وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هـي آثار زبيدة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هـارون الرشيد وابنة عمه؛ انتدبت لذلك مدة حياتها، فأبقت في هـذا الطريق مرافق ومنافع تعمُّ وفد الله تعالى كل سنة من لدن وفاتها إلى الآن. ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سلكت هـذه الطريق، والله كفيل بمجازاتها، والرضا عنها"[3].

(1) سليمان عبد الغني مالكي: مرافق الحج، ص62 – 63.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/ 251 – 252. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 2/ 314. اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، 2/ 47 – 48.

(3) ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص185.

2 - مقاومة السيول

ونتيجة لطبيعة مكة الجغرافية، فإنها تعتمد على مياه الآبار، ويتوقف توفير هـذه المياه على نزول الأمطار والسيول، وطبيعة أودية مكة تساعد على جريان المياه من أعلى إلى أسفل وتجمعها في الآبار، وقد ينتج عن هـذه السيول الكثير من المخاطر على أهل مكة والأماكن المقدسة، وكان للخلفاء العباسيين جهود كبيرة في مواجهة هـذه المخاطر، وأشهر هـذه السيول ما كان سنة 184هـ في خلافة الرشيد، حيث هـطلت أمطار غزيرة على مكة، سالت على أثرها أودية مكة وشعابها، ودخلت السيول المسجد الحرام وذهب الناس وأمتعتهم وتصدَّع ردم عمر وردم الخزامية، وغرق أناس كثيرون، فأمر هـارون الرشيد بإصلاح ردم الخزامية وإعادة بناء الدور التي هـدمها السيل(1).

3 - إصلاحات الطريق من مكة إلى المدينة

ونظرًا لحاجة الحجاج إلى المياه في طريق مكة – المدينة، فقد حرص خلفاء الدولة الإسلامية على توفيرها كما حرصوا على إصلاح الطريق من مكة إلى المدينة، فقد أمر عمر بن الخطاب بحفر بئر في عسفان، وأمر عثمان بن عفان بإصلاح الآبار على الطريق، وأمر معاوية بزيادة عدد آبار بدر والجحفة، وزاد منها الوليد بن عبد الملك وأصلح عين الخليص سنة 87هـ، وأمر السفاح بوضع الإشارات في الطريق لكي ترشد الحجاج لمعرفة الطريق والأماكن، كما أمر المنصور سنة 138هـ ببناء البرك على الطريق، من أجل تخزين مياه الأمطار للاستفادة منها في سقاية الحجاج أثناء مرورهم بالطريق من مكة إلى المدينة، وفي سنة 160هـ أمر المهدي بإضاءة الطريق بواسطة الشموع.

وفي سنة 170هـ أمر هـارون الرشيد بإصلاح بعض الآبار التي خربتها الأمطار في طريق مكة المدينة، ومن أهمها: آبار بدر. كما اهتم الرشيد بإصلاح العيون في

(1) الأزرقي: أخبار مكة، 2/ 170. سليمان عبد الغني مالكي: مرافق الحج، ص69.

المدينة المنورة، ومنها عين الخيف شمال شرق المدينة لتحسين الزراعة وزيادة الإنتاج الزراعي، فقد أمر الرشيد بزيادة عدد قنواتها وإصلاح الخراب الذي حدث بها[1].

وفضلًا عن هـذه الإصلاحات فقد أولى هـارون الرشيد عناية خاصة بسكان المدينة، فعندما حج سنة 170هـ أعطى أهل المدينة عطاءً كثيرًا، وقسم فيهم مالًا جليلًا، وفي سنة 174هـ حج بالناس هـارون الرشيد، فبدأ بالمدينة، فقسَّم في أهلها مالًا عظيمًا، وحج الرشيد سنة 186هـ فبدأ بالمدينة، فأعطى فيها ثلاثة أعطية، أعطى هـو عطاءً، ومحمد الأمين عطاءً، وعبد الله المأمون عطاءً، وسار إلى مكة فأعطى أهلها، فبلغ ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار (مليونٌ و50 ألف دينارٍ)، وكذلك كانت زوجته زبيدة بنت جعفر، كثيرة الإنفاق والأعطيات على أهل مكة والمدينة، فقد حجت زبيدة سنة 176هـ فبلغ إنفاقها في ستين يومًا: أربعة وخمسين ألف ألف دينار (54 مليون دينارٍ)، ورفع إليها وكيلها حساب النفقة فنهته عن ذلك، وقالت له: ثواب الله بغير حساب[2].

وخلاصة القول

إن السياسة الحكيمة التي انتهجها هـارون الرشيد ورجال دولته تجاه الاقتصاد (موارد بيت المال والزراعة والصناعة والتجارة الداخلية والخارجية) أدى إلى ازدهار الزراعة ورغبة الفلاح في إنتاج أكثر مما يعود عليه من الدولة من خير ونفع مقابل اليسير الذي يعطيه للدولة من ضرائب، كما أدى ذلك إلى انتشار الصناعات والمصانع في أنحاء الدولة مما عاد بالخير على الناس جميعًا، وكان لانتعاش الصناعة مردوده على التجارة داخليًا وخارجيًا.

(1) سليمان عبد الغني مالكي: مرافق الحج، ص126 – 127، ص135 – 136..

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 234، 239، 275. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، 10/ 277. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 343 – 344.

الفَصْلُ السَّابِعُ

الحياة الاجتماعية

- **أولًا : عناصر المجتمع أيام الرشيد :**

1 – سياسة هـارون الرشيد مع العلويين.

2 – سياسة هـارون الرشيد مع الفرس.

3 – البرامكة ونكبتهم

- **ثانيًا : طبقات المجتمع أيام الرشيد :**

1 – الطبقة العليا: وتشمل الأسرة الحاكمة والأمراء وولاة العهد.

2 – الطبقة الوسطى: وتشمل كبار رجال الدولة والتجار والعلماء والقضاة.

3 – الطبقة السفلى: وهي طبقة العامة والغوغاء.

- **ثالثًا : العادات والتقاليد :**

1 – المأكل.

2 – الملبس.

3 – الأعياد.

4 – الألعاب الرياضية.

- **رابعًا : المدنية في المجتمع العباسي.**

"بغداد الرشيد وسط الدنيا وسرة الأرض والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة، وكبرًا، وعمارة، وكثرة مياه، وصحة، وهواء".

اليعقوبي: البلدان (ص11)

أولًا: عناصر المجتمع أيام الرشيد

يقصد بعناصر المجتمع، أي عناصر السكان الذين يكوِّنون الحياة في المجتمع العباسي، ويتفاعلون فيما بينهم، وتطور الحياة بهذا التفاعل من الناحية الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وقد كان المجتمع العباسي إلى عهد الرشيد يشمل عنصرين أساسين، هـما: العرب والفرس، ويمكن أن نضيف إليهما الأتراك، إلا أن ظهوره لم يبرز إلا في أيام المعتصم. بل كان العرب أنفسهم ينقسمون إلى أقسام لكل منهم شيعة وأنصار ومذاهب، فكان منهم العلويون والعباسيون وعامة الناس.

في هـذه السطور لن نهتم بتفاعلات هـذه العناصر في المجتمع العباسي، بقدر ما نهتم بالسياسة التي اتبعتها الحكومة العباسية في تعاملها مع هـذه العناصر. وسوف نقتصر على عنصرين أساسيين، وهما: سياسة الرشيد في التعامل مع العلويين وكذلك الفرس.

1 - سياسة هـارون الرشيد مع العلويين

العلويون حتى هارون الرشيد

العلويون هـم أبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد كان لهم حلم الوصول إلى الخلافة منذ أن قُتل الحسين بن علي رضي الله عنهما في كربلاء، ومنذ ذلك الحين وهم يتحينون الفرصة ضد بني أمية لعودة الإمامة والخلافة، حتى ظهرت الدعوة إلى "الرضا من آل محمد" على يد العباسيين أبناء عمومتهم، وقد نجحت حركة العباسيين في نيل الخلافة دون غيرهم، مما أورث الحسد والحقد في قلوب العلويين على أبناء عمومتهم العباسيين، وقد كان العباسيون يعلمون ذلك جيدًا ويراقبونه، ومع ذلك كانوا يتوددون إليهم بالهدايا والهبات وخاصة في

عهد أبي العباس السفاح.

وكان أول صدع تصدعت به الخلافة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة، حيث كان يرى أنه أحق بالخلافة وجدير بها، وقد ظهرت دعوة النفس الزكية وأخوه إبراهيم واشتدت في عهد المنصور، فقد امتنع النفس الزكية عن مبايعة السفاح وأبي جعفر المنصور، فرأى المنصور أن بقاء النفس الزكية وأخوه خطرًا يهدد الدولة، وأنه لن تقوم لخلافته قائمة إلا إذا ظفر بمحمد وإبراهيم.

وقد كان لدعوة النفس الزكية أثرًا بالغًا وخطورة شديدة، ولولا شجاعة المنصور وحزمه لزلزلت جوانب الخلافة العباسية في مهدها، وقد جد المنصور في طلب محمد وإبراهيم حتى قتلا في 145هـ[1]. وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم، وضيقوا عليهم، وشددوا المراقبة على المعروفين منهم، وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم، فتباعد الأمر واشتدت الجفوة.

واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم، وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هـدى، كما فعل الحسين بن علي الذي ثار بمكة في مدة الهادي سنة 169هـ، فحيل بينه وبين مراده، وقتل بفخ بالقرب من مكة[2]، وكانت هـذه الوقعة من الشدة بحيث قيل: "لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ". وأفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى، فاتجه الأول غربًا مارًا بمصر ومخترقًا شمال إفريقية حتى أتى المغرب الأقصى، فحدب عليه من به من الأمازيغ وبايعوه بالخلافة، وأسس هـناك دولة الأدارسة في طرف الدولة من المغرب، واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم[3].

(1) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص421 - 423. أبو الفرج الأصبهاني: مقاتل الطالبيين، ص229 - 244.

(2) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص445. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 192 - 203.

(3) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، 568 - 569. بتصرف.

العلويون في عهد الرشيد

اختلفت سياسة الرشيد - في أول عهده - مع العلويين، فقد رأى أن يرفق بهم، وأن يزيل أثر سياسة الهادي العنيفة، فعند مجيئه للحكم بذل الأمان للطالبيين[1]، ولعل بادرة هـذا الأمان أن استوزر علي بن يقطين، ورفع الحِجر عمن كان منهم ببغداد سنة 171هـ، ويروي الفضل بن الربيع أن الرشيد كانت له ميول علوية، وإن صح ذلك فإن ميوله لم تكن تتجاوز حدود العاطفة[2]. على أن الصفا هـذا لم يطل، وحدثت حوادث كثيرة جعلت الرشيد يعدل عن هـذه السياسة إلى سياسة الشدة والمعاقبة، منها:

أ - خروج يحيى بن عبد الله في الديلم

خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الطالبي سنة 176هـ، وكان يحيى بن عبد الله قد خاف مما جرى على أخويه: النّفس الزكيّة وإبراهيم. فمضى إلى الدّيلم[3]، فاعتقدوا فيه استحقاق الإمامة وبايعوه واجتمع إليه الناس من الأمصار وقويت شوكته. فاغتمّ الرشيد لذلك، وندب إليه الفضل بن يحيى في خمسين ألف رجل، ومعه صناديد القواد، وولاه كور الجبال والري وجرجان وطبرستان وغيرها، وحملت معه الأموال.

وقد استطاع الفضل بن يحيى أن يخمد فتنة يحيى بن عبد الله بطريق غير طريق الحرب، حيث أخذ يحذره ويخوفه حينًا ويمنِّيه ويرغبه حينًا آخر، فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه، على أن يكتب له الرشيد أمانًا بخطّه على نسخة يبعث بها إليه، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد، فسرَّه وعظم موقعه، وكتب يحيى أمانًا وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة بني هـاشم ومشايخهم، ثم قدم يحيى مع الفضل، فقابله الرشيد بالحفاوة والإكرام، ولكن الرشيد لم يلبث أن حبس يحيى

(1) المقدسي: البدء والتاريخ، 6/ 101.

(2) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص 110.

(3) الديلم: أعاجم منطقة الريِّ، جنوب بحر قزوين ويغلب عليهم التشيع.

في داره، واستفتى الرشيد الفقهاء في نقض اليمين، فمنهم من أفتى بصحته فحاجّه، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله. على أن أمورًا دعت الرشيد إلى نقض هـذا الأمان والتخلص من يحيى، وذلك لسعاية عبد الله بن مصعب الزبيري بيحيى بن عبد الله عند الرشيد، واتهامه بأنه أخذ يدعو لنفسه بعد إعطائه الأمان. وما هـي إلا أيام حتى مات يحيى في محبسه[1].

وقد ذكر ابن كثير أن الرشيد أطلق يحيى بن عبد الله، وأطلق له مائة ألف دينار، ويقال: إنما حبسه بعض يوم. وكان جملة ما وصله من المال من الرشيد أربعمائة ألف دينار من بيت المال، وعاش يحيى بعد ذلك كله شهرًا واحدًا ، ثم مات[2].

ب - إدريس بن عبد الله في بلاد المغرب

أمَّا إدريس بن عبد الله فقد كُتب له النجاة من موقعة الفخ سنة 169هـ مع أخيه يحيى، وفرَّ إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب سنة 172هـ، والتف حوله البربر واستطاع أن يقيم دولة الأدارسة، منفصلًا بذلك عن دولة بني العباس، واستمر في حكمه حتى سنة 177هـ، ولما تيقَّن الرشيد أنه لا قبل له بملاحقة إدريس بن عبد الله بالسيف، تركه وشأنه[3]، فلما تعاظم خطر الأدارسة على الخلافة اضطر الرشيد أن يزرع بإفريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان، كما يفعل من رأى حريقًا بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت[4].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 242 - 251. أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، 1/ 390 - 404. ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 193 - 195. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 117.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 582،

(3) انظر مناقشتنا لمسألة مقتل إدريس مسمومًا، ودفع الشبهة عن هارون الرشيد، في الباب الثاني - الفصل الرابع الخاص بسياسة هارون الرشيد مع بلاد المغرب والأندلس، ص218.

(4) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 198 - 199. الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص 569.

جـ - مع الإمام موسى الكاظم

نتيجة لهذه الأحداث المتعاقبة من قبل العلويين وخروجهم المتكرر على أبناء عمومتهم، كثُر الوشاة والحاسدون، الذين سعوا إلى وشاية الرشيد بهم وتأليب قلبه عليهم، حتى أُخذت الشبهة بالظُّنَّة، ولعل موقف الرشيد من الإمام موسى الكاظم رحمه الله[1] أبرز مثال على هـذه الحالة، فقد جاء إلى مسامع الرشيد أن موسى الكاظم يدعو لنفسه وأن الناس يعتقدون بإمامته، فلما حج الرشيد سنة 179هـ أتى قبر النبي ﷺ زائرًا له وحوله قريش ورؤساء القبائل، ومعه موسى بن جعفر الكاظم، فلما انتهى إلى القبر، قال: "السلام عليك يا رسول الله، يا ابن عمي"، افتخارًا على من حوله، فدنا موسى بن جعفر، فقال: "السلام عليك يا أبتِ". فتغيَّر وجه هـارون، وقال: "هذا الفخر يا أبا الحسن حقًا". فلما رأى الرشيد مدى احتفاء الناس بموسى الكاظم أخذه معه إلى بغداد وحبسه، وكان الموكل به مدة حبسه السندي بن شاهك.

وقد روي أن موسى الكاظم بعث برسالة إلى هـارون الرشيد من محبسه، كانت: "إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يوم من الرخاء، حتى نقضي جميعًا إلى يوم ليس له انقضاء، يخسر فيه المبطلون".

وذكر المسعودي في مروج الذهب أن الرشيد أرسل إلى عبد الله بن مالك الخزاعي صاحب شرطته، ثم قال: "يا عبد الله، أتدري لمَّا طلبتك في هـذا الوقت"، قلت: "لا والله يا أمير المؤمنين"، قال: "إني رأيت الساعة في منامي كأن حبشيًا قد أتاني ومعه حربة، فقال: إن خليت عن موسى بن جعفر الساعة وإلا نحرتك بهذه الحربة، فاذهب فخلِّ عنه، قال: فقلت: "يا أمير المؤمنين، أطلق موسى بن جعفر ثلاثًا"، قال: "نعم امض الساعة حتى تطلق موسى بن جعفر، وأعطه ثلاثين ألف درهم، وقل له: إن أحببت المقام قبلنا فلك عندي ما تحب، وإن أحببت المضي

(1) الإمام موسى الكاظم (129هـ - 183هـ)، هو الإمام السابع عند الشيعة الاثنا عشرية.

إلى المدينة فالإذن في ذلك لك"، ثم ذهب فأطلق سراحه.

وقد اختلف في وفاة الكاظم رحمه الله، فقيل: إنه توفي مسمومًا في عهد الرشيد، وقيل مات في الحبس، فعن عبد السلام بن السندي، قال: "كان موسى عندنا محبوسًا، فلما مات، بعثنا إلى جماعة من العدول من الكرخ، فأدخلناهم عليه، فأشهدناهم على موته". وما نرجحه أنه مات بعد أن أطلقه الرشيد من محبسه، فقد كان حبسه احترازيًا ثم أطلقه الرشيد، وأعطاه ثلاثين ألف درهمٍ، وكانت وفاة موسى الكاظم في رجب، سنة 183هـ[1].

تلك كانت أهم ملامح سياسة هـارون الرشيد تجاه أبناء عمومته من العلويين، والتي نرى أنها كانت امتدادًا لحالة من الترقب والريبة التي انتابت الخلفاء العباسيين الأوائل تجاه العلويين، ولذلك تنوعت ردود فعل الرشيد تجاه هـذه التحركات، فتارة يرخو، وتارة يقسو، وتارة يلين، وتارة يشتد، وتارة يقتصر تعامله على الحبس، وتارة يمتد تعامله إلى الضرب والتعذيب حتى الموت. وهي بلا شك أحوال تؤخذ عليه، وهو الذي عُرف بلين القلب وقرب الدمعة والخوف من الله. إلا أننا في النهاية نلتمس له العذر بعض الشيء، فالرشيد كان ينظر إلى مصلحة الدولة، وأن اللين تجاه هـذه التحركات المريبة من العلويين قد تعصف باستقرار البلاد كلها.

ولم تكن سياسة الرشيد تلك نابعة عن بغض للعلويين وآل البيت، وقد نفى الرشيد نفسه هـذه التهمة عنه، فقد أخرج الصولي عن إسحاق الهاشمي قال: كنا عند الرشيد، فقال: "بلغني أن العامة يظنون فِيّ بغض علي بن أبي طالب، والله ما أحب أحدًا حبي له، ولكن هـؤلاء أشد الناس بغضًا لنا، وطعنًا علينا، وسعيًا في فساد ملكنا بعد أخذنا بثأرهم، ومساهمتنا إياهم ما حويناه، حتى إنهم لأميل إلى

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (6939)، 15/ 18 – 20. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 88. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 5/ 309 – 310. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 6/ 273 – 274.

بني أمية منهم إلينا، فأما ولده لصلبه فهم سادة الأهل، والسابقون إلى الفضل، ولقد حدثني أبي المهدي عن أبيه المنصور عن محمد بن علي عن أبيه عن ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول في الحسن والحسين: "من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني"، وسمعه يقول: "فاطمة سيدة نساء العالمين، غير مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم"[1]. وذكر أبو هلال العسكري والقلقشندي أن الرشيد هو أول من زاد في الكتب بعد التحميد "وأسأله أَن يُصَلِّي على مُحَمَّد وَآله"، قال أبو هلال العسكري: "وكان ذلك من أفضل مناقبه"[2].

2 - سياسة هارون الرشيد مع الفرس

لعل السياسة التي انتهجها خلفاء بني أمية من تمييز العنصر العربي على العناصر الأخرى داخل المجتمعات الإسلامية، كان لها من العواقب الوخيمة والنتائج العظيمة أدت في النهاية إلى تذمُّر هذه العناصر وترحيبها بأي ثغرة تخلصهم من هذه المعاملة التي شعروا من خلالها بالنقص، وهكذا بدأت الخلافة الأموية في التصدع إذ علت النعرات القبلية وسوء الأحوال الاقتصادية وانتشار الشعوبية في بلاد فارس وخراسان خاصة، حتى كان ظهور الدعوة العباسية، ولم يكن مستغربًا أن تكون خراسان الفارسية هي المحضن الأول لتلك الدولة والسيف البتار الذي مهد لها طريق الخلافة. ومن هنا كان انتصار الدعوة العباسية إيذانًا بظهور عناصر أخرى غير العنصر العربي، ولا سيما العنصر الفارسي الذي اعتمد عليه العباسيون في تأسيس دولتهم.

فقد اعتبر الفرس انتصار الدعوة العباسية فوزًا لهم على العرب، وكان من الطبيعي أن يعتمد العباسيون على الفرس في تصريف شئون دولتهم، اعترافًا منهم بفضلهم عليهم، وأن يسلموا إليهم أزِمَّة أمورهم؛ لأنهم يدينون لهم بالخلافة، فيقربونهم إليهم ويصطنعونهم في خدمتهم، ولذلك السبب اصطبغت الدولة

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 216.

(2) أبو هلال العسكري: الأوائل، ص263 - 264. القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، 3/ 347.

العباسية في عصرها الأول بالصبغة الفارسية[1].

وقد كان من الطبيعي تجاه هـذه السياسة أن تظهر أسماء فارسية وأسر – ترجع إلى أصول فارسية – علا شأنهم في بلاط الخلفاء العباسيين، كان منهم: أبو مسلم الخراساني والبرامكة والفضل بن سهل، والغريب أن هـذه الأسماء جميعها تعرضت لنكبات مؤلمة كانت فيها نهايتهم، فأمَّا الأول فقتله أبو جعفر المنصور، وأمَّا البرامكة فنكبهم الرشيد، وأمَّا الفضل بن سهل فكان مصيره القتل في عهد المأمون، وكأنَّ هـذه النكبات كانت تعبيرًا عن تخوف واضح وترقب ملحوظ من الخلفاء العباسيين لحالة النفوذ التي وصل إليه الفرس من حين لآخر.

ولعل العنصر الفارسي لم يشهد نفوذًا واضحًا وتدخلًا سافرًا في شئون الدولة وتصريف أحوالها كنفوذ البرامكة في عهد الرشيد، والتي كانت حكاية ما زال التاريخ يتحدث عنها ولا يجد لظهورها أو لنكبتها سببًا واضحًا. وهو ما سنحاول بيانه في السطور التالية.

البرامكة ونكبتهم

البرامكة أسرة ذات جاه وسلطان من الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ولعل شهرة البرامكة كانت قرينة بشهرة من أغدق عليهم بنعمه ومكَّنهم مما كانوا فيه من قوة السلطان والمال، أعني (هـارون الرشيد). وأما عن نكبة البرامكة فكانت سبيلًا لكثير من المؤرخين والمستشرقين، فاختلقت الكثير من الروايات المكذوبة للنيل من الرشيد حتى وصلوا إلى الطعن في عرضه وشرفه.

نسب البرامكة

يرجع أصل البرامكة إلى برمك، وهو رجل مجوسي من مدينة بلخ قاعدة طبرستان عند نهر جيحون، حيث كان يوجد معبد النوبهار للمجوس الزرادشت– وهم عبدة النار، وقد اشتهر البرامكة بأنهم سدنة هـذا المعبد. وذكر المسعودي أن كلمة برمك ليس اسمًا لجد البرامكة، وإنما لقب يطلق على كل من يلي سدنة هـذا المعبد[2].

(1) السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، 3/ 125.
(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 2/ 185.

خالد بن برمك

ولما بلغت الدعوة العباسية خراسان تحمَّس لها خالد بن برمك وهو جد البرامكة كلهم، وصار من أكبر دعاة الدعوة العباسية، ولما عقدت البيعة لأبي العباس السفاح جاء خالد بن برمك ليبايعه فأعجب من فصاحته وأقره على ما كان يتقلد من الغنائم، وجعل له بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند وكثر فيه حامده وحسن أثره. وكان سبيل ما يثبت من الدواوين يثبت في صحف، فكان خالد أول من جعله في دفاتر[1]. وبعد وفاة أبي سلمة الخلال توثقت العلاقة أكثر بين السفاح وخالد بن برمك إذ جعله وزيرًا له، وفي تلك الأيام نبغت الدولة البرمكيّة وامتدت إلى أن انقضت في أيام الرشيد[2].

وكان خالد بن برمك رجل دولة، قال فيه المسعودي: "لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله، لا يحيى في رأيه ووفور عقله، ولا الفضل في جوده وبراعته، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحته، ولا محمد بن يحيى في سروه وبعد هـمته، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه"[3].

يحيى بن خالد البرمكي

ولما تولى المنصور الخلافة أقرّ خالد بن برمك على وزارته، وولَّاه فارس ثم الموصل حتى وفاته سنة 166هـ في أوائل عهد المهدي. وقد كان لخالد بن برمك ابنًا اسمه يحيى، وكان المنصور معجبًا بفطنته وذكائه، وكان يقول: "ولد الناس ابنًا، وولد خالد أبًا"، وقد اختار المنصور يحيى بن خالد لولاية أذربيجان سنة 158هـ[4].

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 59.

(2) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 135.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 304.

(4) الطبري: تاريخ الرسول والملوك، 8/ 56.

أما في عهد المهدي فقد عظمت منزلة يحيى وأبيه، فقد اختار المهدي يحيى بن خالد سنة 162هـ كاتبًا ووزيرًا لابنه هـارون، وكان أمر هـارون كله إليه، وكان مع هـارون في حله وترحاله، فذهب معه سنة 163هـ في غزوة الصائفة، ولما ولي المهدي ابنه هـارون المغرب كله من الأنبار إلى أطراف إفريقية سنة 164هـ جعل ذلك ليحيى بن خالد البرمكي، وظل يحيى كذلك حتى ولاية الهادي الذي أراد أن يخلع أخاه الرشيد من ولاية العهد، لكن يحيى حرَّضه على التمسك بحقه، والتهرب من تلبية طلب الهادي، فحبسه الهادي، ولولا وفاة الهادي المفاجئ لذهب يحيى بن خالد ضحية إخلاصه للرشيد.

وكان ليحيى أربعة أولاد: الفضل وجعفر ومحمد وموسى، برزوا جميعًا في عهد الرشيد، وصاروا موضع ثقته، فبرهن الفضل بن يحيى عن حسن سياسة، عندما ولاه بلاد الديلم إلى أن ولاه خراسان وثغورها سنة 178هـ، وغزا ما وراء النهر. وأما جعفر بن يحيى فقد اشتهرت بفصاحته وبلاغته ولباقته حتى نال إعجاب الرشيد فولَّاه سنة 176هـ مصر وإفريقية والجزيرة الفراتية إلى جانب أعماله في بغداد. وأما موسى بن يحيى فقد اشتهر بالشجاعة والبأس وحسن الرأي، وأما محمد بن يحيى فقد عرف بعلو الهمة وسماحة الخلق[1].

وزارة يحيى بن خالد البرمكي

لما أفضت الخلافة إلى هـارون الرشيد استوزر يحيى بن خالد، وقال له: "يا أبتِ أنت أجلستني في هـذا المجلس ببركتك ويُمنك وحسن تدبيرك، وقد قلدتك الأمر"[2]. وفوَّض الرشيد أمور دولته إليه، وقال له: "قد قلّدتك أمر الرعيّة وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت، واعزل

(1) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي – السياسي والحضاري، ص63 – 64، بتصرف.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 280. الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص134.

من رأيت وأمض الأمور على ما ترى"، ودفع إليه خاتمه[1]. وقد قام يحيى بن خالد بأمر الوزارة على أتمِّ ما يكون، فكان وزيرًا حازمًا حكيمًا، وقد شهدت الدولة في عهده استقرارًا واتساعًا ونفوذًا وعظمة لم تشهدها الدولة العباسية من قبل.

لقد حمل البرامكة أعباء الخلافة عن الرشيد أول عهده، فكان يرجع إليهم في كل أمر، ويحملون التبعات في كل شأن، واتسع سلطانهم وعلا شأنهم، وقصدهم جميع الشعراء بالمدائح، وكانوا من حسن السياسة ما حببهم إلى الرعية، وكل من هـذه الأسرة اتخذ له صنائع بما غمرهم من أموال، .. ووضعوا أيديهم على مال الدولة كله، حتى كان من شأنهم إذا أرادوا أن يتصرفوا في شيء منه وجدوه تحت أيديهم، وإذا أراد الرشيد وقصره أن يتصرف رجع في ذلك إليهم[2].

لقد بلغ نفوذ البرامكة في عهد الرشيد مبلغًا عظيمًا، فهم من جهة قد خدموا الدولة، إذ كان محمد بن خالد حاجب الرشيد، ويحيى بن خالد مربيه ووزيره، وجعفر بن يحيى والي مصر، والفضل بن يحيى والي خراسان، وفي الوقت نفسه قادوا الجيوش وأخضعوا الثورات وأخمدوا الفتن، .. لقد كانوا جلساء الخليفة وندمائه، يدخلون عليه في كل وقت دون إذن، وإن كان يعزل أحدهم ويستبدل بآخر غير أن مركزهم لم يكن يتغير[3].

وهكذا غدا البرامكة يمثلون دولة داخل دولة، حتى إن ابن طباطبا العلوي نعتهم في كتابه الفخري باسم (الدولة البرمكية)، وقال واصفًا أحوالها: "اعلم أن هـذه الدولة كانت غرة في جبهة الدهر، وتاجًا على مفرق العصر ضربت بمكارمها الأمثال، ومنحتها أوفر إسعادها، فكان يحيى وبنوه كالنّجوم زاهرة والبحور زاخرة، والسّيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقة ومراتب ذوي

---

(1) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 504.

(2) أحمد أمين: هارون الرشيد، ص121.

(3) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي – الدولة العباسية، 1/ 160 – 161.

الحرمات عندهم عالية والدنيا في أيامهم عامرة وأبهة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ اللهف، ومعتصم الطّريد، ولهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتم بني برمك من رائحين وغاد"[1].

كان حال البرامكة في خدمة الدولة العباسية منذ مهدها، فما الذي تغيَّر؟!، وما الذي دفع الرشيد إلى نكبتهم، وهو أحب الناس إلى قلوبهم وأنفسهم؟!

نكبة البرامكة

الحقيقة أن المتأمل لكتابات المؤرخين القدامى حول نكبة البرامكة في عهد الرشيد لا يجد أسبابًا واضحة وجلية، وإنما اجتهادات مختلفة لبيان العلل والنتائج، ولن يستطيع أحد – فيما أرى – أن يقدم أسبابًا قطعية حول نكبة البرامكة؛ لأنها ببساطة لو كانت قطعية واضحة لاسترحنا كثيرًا، بل إن هـارون الرشيد نفسه صارحته أخته عليَّة بنت المهدي قائلة: "مَا رَأَيْتُ لَكَ سُرُورًا تَامًّا مُنْذُ قَتَلْتَ جَعْفَرًا، فِلأَيِّ شَيْءٍ قَتَلْتَهُ؟"، قال: "لو علمت أن قميصي يعلم السبب في ذلك لَمَزَّقْتُهُ"[2]. وقد رثتهم الشعراء بمرات كثيرة وذكرت أيامهم، فممَّا استحسن من مراثيهم قول أشجع السلمي من أبيات:

كأن أيامهم من حسن بهجتها مواسم الحج والأعياد والجمع[3]

أسباب نكبة البرامكة

وهذه محاولة اجتهادية لبيان أهم الأسباب التي تناولها المؤرخون لبيان نكبة البرامكة، وتغيُّر الرشيد عليهم، ورأينا فيها:

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 197.

(2) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 132. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 789. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، 22/ 101.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 315. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/ 336.

السبب الأول: استبدادهم بالدولة وتحكمهم في شئونها

وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته، فقد رأى أن الرشيد نكب بالبرامكة بعد: "ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم (جذبهم) أموال الجباية، حتّى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه. فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمّروا مراتب الدولة وخططها بالرّؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عمّن سواهم، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم. ويقال: إنّه كان بدار الرشيد من وُلْد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسًا، من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب، .. وعظمت الدّالّة منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرّقاب وقُصِرَت عليهم الآمال، وتخطّت إليهم من أقصى التخوم هـدايا الملوك وتحف الأمراء، .. واستولوا على القرى والضّياع من الضّواحي والأمصار في سائر الممالك، حتّى أسفّوا البطانة وأحقدوا الخاصّة وأغَصُّوا أهل الولاية"[1].

وكلام ابن خلدون هـنا تحليل صحيح وتعليل معقول ومنهج في الموازنة بين الرشيد والبرامكة رجيح. وقد أيَّده ما يحكيه الجهشياري أن البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث، سوى نفقاته وما يحتاج إليه هـو وعياله، وقد طلب الرشيد من جعفر ذات مرة عشرة آلاف درهم، فاعتذر له، وأعطاه خمسة فقط[2].

ويقول المسعودي: "ولما أفضت الخلافة إلى الرشيد استوزر البرامكة، فاحتازوا الأموال دونه، حتى كان يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه"[3].

وإن كان استبداد البرامكة بأمور الدولة والخلافة دون الرشيد واضحًا لكل

(1) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 1/ 303.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 200.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 304.

ناظر، فإن الرشيد هـو من أطلق العنان ليحيى بن خالد وولده، يفعلون ما يشاءون، وقد ساعد البرامكة على استبدادهم عوامل عدة، منها: كثرة الأموال واستقرار الخلافة وتمكنهم من مفاصل الدولة ووظائفها، هـذا فضلًا عن الضوء الأخضر الذي أعطاه الرشيد لوزيره الأول يحيى بن خالد عند توليته الوزارة، عندما قال له: "قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت وأمض الأمور على ما ترى".

السبب الثاني: تعاطفهم مع العلويين

وهذا من أهم الأسباب وأظهرها، فقد روى الطبري في تاريخه في حوادث سنة 176هـ، عن أبي محمد اليزيدي – وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم – قَالَ: "من قَالَ إن الرشيد قتل جعفر بْن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن الحسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا جعفر بيحيى بن عبد الله ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره، فأجابه، إلى أن قال يحيى: "اتق الله في أمري، ولا تتعرض أن يكون خصمك غدًا محمدًا ﷺ، فو الله ما أحدثت حدثًا، ولا أويت محدثًا. فرقَّ عليه"، وقال له: "اذهب حيث شئت من بلاد الله"، قال: "وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل، فأُرَد إليك أو إلى غيرك!"، فوجَّه معه من أدَّاه إلى مأمنه.

وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، من عيْن كانت له عليه من خاص خدمه، فعلا الأمر، فوجده حقًا، وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره، وقال: "وما أنت وهذا لا أم لك! فلعل ذلك عن أمري"، فانكسر الفضل، وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما إن قال: "ما فعل يحيى بن عبد الله؟"، قال جعفر: "بحاله يا أمير المؤمنين، في الحبس الضيق والأكبال". قال: "بحياتي!"، فاحجم جعفر – وكان من أدق الخلق ذهنًا، وأصحهم فكرًا – وهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال:

"لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده". قال الرشيد: "نِعم ما فعلت، ما عدوت ما كان في نفسي". فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال الرشيد: "قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك!"، فكان من أمره ما كان[1].

وإن كان الرشيد يحتمل لجعفر كثيرًا من الإدلال - لا يحتمل له هـذا؛ لأنه متعلق بملكه، ومن الغريب ما ورد في هـذه الحادثة، من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له من خاصة خدمه، وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاصة خدمه جاسوسًا يعلم أخباره ويلقي بها إليه.

كانت هـذه الحادثة سببًا للوشاية بالبرامكة في أخص صفات الوزراء، وهي الإخلاص لملوكهم، وذلك طعن منفذ، وقر في نفس الرشيد شيء من ذلك، وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته، وهذه تهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدي، وهي التهمة التي استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبي عبيد الله وزير المهدي حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة[2].

والحقيقة أن إيعاز الفضل بن الربيع للرشيد باتهام جعفر بموالاة الشيعة، لم يكن السبب المباشر لقتل جعفر، وإنما أوغر قلب الرشيد كذلك، تصرف جعفر في أمر رجل خرج على الدولة ومثَّل خطرًا عليها وكلَّف الدولة آلاف الدنانير من أموال المسلمين، ثم يطلق صراحه دون إذن منه. وهو أمر لم يحتمله الرشيد، فكان أن تغيَّر على البرامكة جميعًا ونكب بهم، بعد أن بان له استفحال أمرهم.

السبب الثالث: نسبه بعض المؤرخين إلى الملل والغيرة

فقد سُئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد، فقال: "والله ما كان منهم ما يوجب بعض ما عمل الرشيد بهم، ولكن طالت أيامهم وكل

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 289.

(2) الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، ص 120.

طويل مملول، والله لقد استطال الناس الذين هـم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وما رأوا مثلها عدلًا وأمنًا وسعة أموال وفتوح، وأيام عثمان رضي الله عنه حتى قتلوهما، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم، وكثرة حمد الناس لهم، ورميهم بآمالهم دونه، والملوك تتنافس بأقل من هـذا، فتعنت عليهم، وتجنى وطلب مساويهم، ووقع منهم بعض الإدلال، خاصة جعفر والفضل دون يحيى، فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور، ولاذ من أعدائهم بالرشيد، كالفضل بن الربيع وغيره، فستروا المحاسن وأظهروا القبائح، حتى كان ما كان"[1].

ونقل الجهشياري هـذا السبب أيضًا، عن عبيد الله بن يحيى بن خاقان قال: "سألت مسرور الخادم[2] في أيام المتوكل، وكان قد عُمِّر إليها، ومات فيها، عن سبب قتل الرشيد لجعفر، وإيقاعه بالبرامكة، فقال: "كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة، وأمر المجامر التي اتخذها للبخور في الكعبة؟" فقلت له: "ما أردت غيره"، فقال:" لا والله، ما لشيء من هـذا أصل، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم"[3]. وهذا السبب وإن كان واردًا إلا أنه ليس بكافٍ وليس بمقنع بنكبة جماعية لأسرة عريقة الجاه والسلطان كأسرة البرامكة.

السبب الرابع: أمارة تدلُّ على انحراف دولتهم

حدث بختيشوع طبيب الرشيد، قال: "دخلت يوما على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد من مدينة السلام، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر، وبينهم وبينه عرض دجلة، قال: فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد، فقال: جزى الله يحيى خيرًا! تصدّى للأمور وأراحني من

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/ 335. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 788. اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، 1/ 317.

(2) مسرور الخادم، أبو هاشم، خدم المهدي والرشيد، كان أثيرًا عند الرشيد موضع سرّه ومنفذ أمره. واستمرت حرمته أيام الرشيد والمعتصم والمتوكل، ومات في أيامه.

(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 204.

الكدّ، ووفّر أوقاتي على اللّذة، ثم دخلت إليه بعد أوقات وقد شرع يتغيّر عليهم، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة، فقال: استبدّ يحيى بالأمور دوني، فالخلافة على الحقيقة له، وليس لي منها إلّا اسمها؟، قال: فعلمت أنّه سينكبهم، ثمّ نكبهم عقيب ذلك"[1].

وهذه الوقعة التي ذكرها بختيشوع دليل على أن الرشيد أحس بالخطر على دولته من البرامكة، فليس الأمر يعدو كما في ظاهره إحسان من البرامكة على الشعب، وإنما نظر إليه الرشيد أنه استمالة من البرامكة لتأييد الشعب لهم، وهو ما يعني سحب البساط من تحت يد العباسيين شيئًا فشيئًا.

السبب الخامس: دخول يحيى بن خالد على الرشيد دون إذنه

وهو أول الأسباب التي ذكرها الطبري في أسباب وقوع نكبة البرامكة، ذكر بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنَّه قال: "إني لقاعد يوما في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن، فلمّا دخل فصار بالقرب من الرشيد وسلّم، ردّ عليه ردًّا ضعيفًا. فعلم يحيى أنّ أمرهم قد تغيّر، ثمّ أقبل عليَّ الرشيد، فقال: "يا جبريل، أيدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا أذنك؟"، فقلت: "لا والله، ولا يطمع في ذلك"، قال: "فما بالنا، يدخل إلينا بلا إذن"، فقام يحيى، فقال: "يا أمير المؤمنين، قدّمني الله قبلك، والله ما ابتدأت ذلك الساعة وما هو إلّا شيء كان خصّني به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى، حتّى إني كنت لأدخل وهو في فراشه مجرّدًا حينًا، وحينًا في بعض إزاره، وما علمت أنّ أمير المؤمنين كره ما كان يحبّ، وإذ قد علمت فإنّي أكون في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة، إن أمرني سيّدي بذلك"، فاستحيى، وكان من أرّق الخلفاء وجهًا وعيناه في الأرض ما يرفع طرفه إليه، ثم قال: "ما أردت ما تكره، ولكن الناس يقولون"، قال جبريل: "فظننت أنّه

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 207.

لم يسنح له جواب يرتضيه، فأجاب بهذا القول، ثم أمسك عنه وخرج يحيى"[1]. وهذا التغير من الرشيد على البرامكة دليل أن نكبة البرامكة لم تكن حدثًا مفاجئًا، بل كانت دليل تراكمات عدة أدت لنكبتهم، وهو أمر فطن إليه يحيى بن خالد مبكرًا.

السبب السادس: دعاء يحيى بن خالد على نفسه وولده

وكان من الأسباب أيضًا ما لا تعده العامة سببًا، وهو أقوى الأسباب، ما سُمع من يحيى بن خالد وهو يقول وقد تعلق بأستار الكعبة في حجته: "اللهم إن كان رضاك أن تسلبني نعمك عندي فاسلبني! اللهم إن كان رضاك أن تسلبني مالي وأهلي وولدي فاسلبني، إلا الفضل". ثم ولّى، فلما كان عند باب المسجد رجع، فقال مثل ذلك، وجعل يقول: "اللهم إنه سمج بمثلي أن يستثني عليك، اللهم والفضل".

وسُمع أيضا يقول في ذلك المقام: "اللهم إن ذنوبي جمة عظيمة لا يحصيها غيرك، اللهم إن كنت تعاقبني فاجعل عقوبتي بذلك في الدنيا، وإن أحاط ذلك بسمعي وبصري وولدي ومالي، حتى يبلغ رضاك، ولا تجعل عقوبتي في الآخرة". فاستجيب له، فلما انصرفوا من الحج ونزلوا الأنبار، ونزل الرشيد العُمر نكبهم[2].

السبب السابع: الوشاة والحساد

فأعداء البرامكة كُثُر، ما زالوا يسعون بهم إلى الرشيد ويذكرون استبدادهم بالملك، واحتجانهم للأموال، حتى أوغروا صدره فأوقع بهم[3]. ومن هـؤلاء الفضل بن الربيع، وكان الفضل شديد الكبر شديد الغيرة من البرامكة، لا يبلغ مبلغهم في علم ولا نبل ولا فضل، فحسدهم وتمنى زوال نعمتهم، فكان يومًا يدس إلى الرشيد أن البرامكة يعملون للوصول للخلافة، ويومًا يدس أن البرامكة

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 287 - 288. مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 3/ 553.

(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 349 - 350.

(3) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 208.

وثنيون ملاحدة، ويومًا يحذره من البرامكة بأنهم يؤيدون العلويين سرًا، ويودون نقل الخلافة إليهم، ويومًا يوعز إلى مغني أن يغني الرشيد بهذين البيتين:

ليت هندًا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

وهكذا من أساليبه الخفية الشريرة[1].

بل إن الجهشياري نقل أن الفضل بن الربيع كان من أسباب زوال دولة البرامكة، قال عبد الله بن سليمان: "إذا أراد الله عز وجل هلاك قوم وزوال نعمتهم، جعل لذاك أسبابًا، فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع، وقصدِهم محمد بن جميل"[2].

ومن الوشاة كذلك علي بن عيسى بن ماهان، فقد روي أنه سعى بموسى بن يحيى بن خالد، واتهمه في أمر خراسان، وأعلم الرشيد أنه يكاتبهم ليسير إليهم، ويخرجهم عن الطاعة، فحبسه ثم أطلقه[3].

السبب الثامن: وفاة الخيزران أم الرشيد

فقد ذكر بعض المؤرخين أن الخيزران كانت الحليف الأقوى للبرامكة، وكانت دائمًا ما تستشير يحيى بن خالد، فكان لها دور كبير في توطيد ملكهم وتثبيت دعائم حكمهم، فلما ماتت 173هـ شعر الرشيد أنه لا يملك من أمره شيئًا، فتغلب عليهم، وبدأ يقلص من صلاحيات جعفر والفضل[4].

السبب التاسع: قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر بن يحيى

وهي من الحكايات المكذوبة والمختلقة لتشويه التاريخ الإسلامي وتشويه السيرة النضرة لهارون الرشيد رحمه الله، وهي للأسف من القصص المشهورة

(1) أحمد أمين: هارون الرشيد، ص 121 – 123.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 203.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 350.

(4) الشيخ زهير الكبي: موسوعة خلفاء المسلمين، 2/ 26.

على الألسنة والكتب، فقد تناقلها المؤرخون وكأنها حدثت فعلًا، أوردها الطبري وابن الأثير وابن كثير والمسعودي ومسكويه وابن شاكر الكتبي وابن العبري في مختصر تاريخ الدول، وغيرهم. وهو ما لم يقم عليه دليل بيِّن، كما سنرى.

ذكر الطبري في تاريخه، قال: "حدثني أحمد بن زهير - أحسبه عن عمه زاهر بن حرب - أن سبب هلاك جعفر والبرامكة، أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب، وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره عنه وعنها، وقال لجعفر: "أزوجكها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي"، وتقدم إليه ألا يمسها، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوجها منه على ذلك، فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما، فيثملان من الشراب، وهما شابان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت غلامًا، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، فلم يزل الأمر مستورًا عن هارون، حتى وقع بين عباسة وبين بعض جواريها شر، فأنهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه، ومع من هو من جواريها، وما معه من الحلي الذي كانت زينته به أمه، فلما حج هارون هذه الحجة، أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبي به من يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه، فلما أحضروا سأل اللواتي معهن الصبي، فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعة على عباسة، فأراد - فيما زعم - قتل الصبي، ثم تحوب من ذلك.

وكان جعفر يتخذ للرشيد طعامًا كلما حج بعسفان فيقريه إذا انصرف شاخصًا من مكة إلى العراق، فلما كان في هذا العام، اتخذ الطعام جعفر كما كان يتخذه هنالك، ثم استزاره فاعتل عليه الرشيد، ولم يحضر طعامه، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه"[1].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 294.

والواضح في هـذه الرواية الكذب الصريح والافتراء الشنيع في عرض الرشيد وأخته، وليس الافتراء هـنا في عرض الرشيد وحده بل في عرض العباسيين جميعًا. وقد أنكرها وفنَّد هـذه الرواية ابن خلدون في مقدمته الرائعة، فقال: "وهيهات ذلك من منصب العبَّاسة في دينها وأبويها وجلالها، وأنّها بنت عبد الله بن عبّاس ليس بينها وبينه إلّا أربعة رجالهـم أشراف الدّين وعظماء الملّة من بعده. والعبَّاسة بنت محمد المهدي ابن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمّد السّجّاد ابن عليّ أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ، ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإقامة الملّة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاتها، قريبة عهد ببداوة العروبيّة وسذاجة الدّين البعيدة عن عوائد التّرف ومراتع الفواحش، فأين يطلب الصّون والعفاف إذا ذهب عنها ؟! أو أين توجد الطّهارة والذّكاء إذا فقدا من بيتها ؟! أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنّس شرفها العربيّ بمولى من موالي العجم بملكة جدّه من الفرس أو بولاء جدّها من عمومة الرّسول وأشراف قريش ؟! وغايته أن جذبت دولتهم بضبعه وضبع أبيه واستخلصتهم ورقّتهم إلى منازل الأشراف، وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على بعد هـمته وعظم آبائه، ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها وفي سلطان قومها واستنكره ولجَّ في تكذيبه، وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ؟!!"[1].

ويعلق الدكتور حسين مؤنس على هـذه الرواية، يقول: " فأنت تقرأ هـنا خبرًا مهينًا حقًا للمسلمين. وأنت إذا تأملته وجدته لا يستقيم، فما الذي يجعل الرشيد يتمسك بأن يحضر جعفر مجلسه مع أخته العباسة؟ وإذا كان لا يريد أن تكون هـناك علاقة بين الاثنين فلماذا عقد بينهما الزواج أصلًا؟ ثم كيف يتركهما معًا وينصرف

(1) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 1/ 301 - 302.

فيعرضهما إلي مظنة الجماع، وهو أمر معقول بين رجل وامرأة عقد له عليها فعلًا؟ الحقيقة هـي أن الخير غير أصيل بل غير ممكن. وإذا كان الرشيد قد غضب علي جعفر وآله فلابد أن تكون أسباب أخرى أهم من تلك العلاقة غير المعقولة بين جعفر والعبَّاسة»[1].

خلاصة القول

أننا لا نستطيع القطع أن نكبة البرامكة كان لسبب بعينه من الأسباب، وربما كان ذلك نتيجة لأسباب مجتمعة، منها ما نعرفه ومنها ما لم يتوفر لنا معرفته، وعليه فإن نكبة الرشيد للبرامكة بسبب سوء استعمال السلطة، أطلقوا عدو الرشيد دون علمه، أنفقوا الأموال على قصورهم وخدمهم وبني ملتهم وتطاولوا في بنيانهم، وحموا الشعوبية وكل ما هـو فارسي، كل ذلك على حساب الرشيد، فكأنهم هـم الخلفاء، وكان الرشيد كثيرًا ما ينشد بعد نكبة البرامكة:

إن استهانتها إذا وقعَت   لَبِقدْرِ ما تعلـو بها رُتَبُـهْ
وإذا بَدَتْ للنمل أجنحة   حتى يطير فقد دَنا عَطَبُهْ[2]

وكل ما ذكرنا من أسباب كفيلة بأن تدفع هـارون الرشيد إلى هـذه النكبة الجماعية بأسرة البرامكة، حيث أمر بقتل جعفر بن يحيى، وحبس يحيى وبقية أولاده، ومات يحيى والفضل في السجن، وظل به الباقون حتى عفا عنهم الأمين[3].

ليلة النكبة

لما انصرف الرشيد عن الحج في سنة 186هـ أمر مسرور الخادم بقتل جعفر بن يحيى، فقُتل جعفر ليلة السبت أول ليلة من صفر سنة 187هـ بأرض الأنبار، وهو

(1) حسين مؤنس: تنقية أصول التاريخ الإسلامي، ص 125.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 315 – 316. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص 246.

(3) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام – الدولة العباسية، ص 380.

ابن سبع وثلاثين سنة، ثم أمر بنصب رأسه على الجسر، وتقطيع بدنه، وصلب كل قطعة على جسر، فلم يزل كذلك حتى مر عليه الرشيد حين خروجه إلى خراسان، فقال: "ينبغي أن يحرق هـذا". فأحرق.

وفي ليلة مقتل جعفر وجه الرشيد من أحاط بيحيى بن خالد وجميع ولده ومواليه ومن كان منهم بسبيل، فلم يفلت منهم أحد كان حاضرًا، وحوَّل الفضل بن يحيى ليلا فحبس في ناحية من منازل الرشيد، وحبس يحيى بن خالد في منزله، وأخذ ما وجد لهم من مال وضياع ومتاع وغير ذلك، ومنع أهل العسكر من أن يخرج منهم خارج إلى مدينة السلام أو إلى غيرها، .. وفرق الكتب من ليلته في جميع الغلمان في نواحي البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم. وأمر الرشيد بالنداء في بغداد أن لا أمان للبرامكة ولا لمن أمنهم أو آواهم، إلا محمد بن خالد وولده وأهله وحشمه، فإنه استثناهم لما ظهر من نصيحة محمد له، وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة، وشحنت السجون بالبرامكة واستلبت أموالهم كلها.

ولما وصل الخبر إلى يحيى بن خالد بقتل ولده جعفر، قال: "قتل الله ابنه". ولما قيل له: قد خربت دارك، قال: "خرب الله دُوْرَهُ"، ويقال: إنه لمَّا نظر إلى داره وقد هُـتكت ستورها، واستبيحت قصورها، وانتهب ما فيها، قال: "هكذا تقوم الساعة".

وقد كتب بعض أصحابه يعزيه فيما وقع، فكتب جواب التعزية: "أنا بقضاء الله راضٍ، وبالخيار عالِمٌ، ولا يؤاخذ الله العباد إلا بذنوبهم، وما الله بظلام للعبيد، وما يغفر الله أكثر. ولله الحمد". وقيل إنه لما قتل جعفر بن يحيى وصلب بباب الجسر رأسه، وفي الجانب الغربي جسده، وقفت امرأة على حمار فَارِهٍ، فنظرت إلى رأسه فقالت بلسان فصيح: "وَاللَّهِ لَئِنْ صِرْتَ الْيَوْمَ آيَةً، فَلَقَدْ كُنْتَ فِي الْمَكَارِمِ غَايَةً"[1].

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 294 – 296. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 9/ 133 – 137. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 643 – 645.

وفي السجن كتب يحيى بن خالد إلى الرشيد: "قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت بالأثر، والله الحكم العدل، وستقدم فتعلم". فوقَّع فيه الرشيد: "الحكم الذي رضيته في الآخرة لك،هـو أعدى الخصم في الدنيا عليك، وهو من لا يردُّ حكمه، ولا يصرف قضاؤه"[1].

وانقضت أيام البرامكة

أصبح الرشيد وحيدًا يواجه أمور مملكته بمفرده بعد أن فقد أخلص معاونيه وأكفؤهم - لولا ما كان من نفوسهم، والحقيقة أن الرشيد وجد جهدًا كبيرًا في تحمل مسئوليات الخلافة وأمور الأمة بعد البرامكة، فقد كانوا يكفونه أتعابها ومشقاتها، بل إن الرشيد نفسه وجد - بعدهم - صعوبة في اختيار ولاته وكتَّابه، حتى إنه قال بعد أن نكبهم: "أريد أن استعمل قومًا لم يعملوا معهم؟"، فقيل له: "لا تجد أحدًا لم يكن يخدمهم"[2]. فاضطر الرشيد أن يلي شئون الدولة بنفسه، وأن يحارب الثائرين عليه، حتى أنه توفي وهو ذاهب لإخماد فتنة رافع بن الليث بن نصر بن سيار.

وكانت مدة دولة البرامكة وسلطانهم وأيامهم من استخلاف هـارون الرشيد إلى أن قُتل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وخمسة عشر يومًا[3].

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 297 - 298.

(2) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 204.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 313.

ثانيًا: طبقات المجتمع في عهد الرشيد

انقسم المجتمع العباسي إلى عدة طبقات، يأتي في أعلاها طبقة الحكام والأمراء والوزراء، وقد تلت هـذه الطبقة البرجوازية من التجارة وكبار رجال الدولة والعلماء والقضاة، وأما العامة والرقيق فكانوا في أسفل القائمة.

1 - الطبقة العليا: وتشمل الأسرة الحاكمة والأمراء وولاة العهد

وكان على رأس هـذه الطبقة الخليفة العباسي وأمراؤه وولاة العهد وأفراد الأسرة الحاكمة، وقد انغمس هـؤلاء في حياة الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة، وكانت قصور الخلفاء والأمراء مضرب المثل في حسن رونقها وبهائها، وكان العباسيون ينفقون عن سعة في سبيل رفاهيتهم، ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور، وحفلت قصور الخلفاء والأمراء بالمغنيين والموسيقيين، كما كانت مجالس الخلفاء من آيات الروعة والجمال. وقد فاق هـارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى وإجزاله العطاء للمغنيين والموسيقيين، وقد جعل المغنيين مراتب وطبقات، فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل بن صبيح، وزلزل منصور الضارب في الطبقة الأولى وكان زلزل يضرب، ويغني هـذان عليه، وقد نبغ في عهد الرشيد مغنيُّون عظام، مثل: إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، ومسكين المدني المعروف بأبي صدقة[1].

هكذا كان حال هـذه الطبقة التي أحاطت نفسها بأنواع الأبهة والفخار والترف على نحو لم ير له مثيل في التاريخ الإسلامي من قبل.

(1) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص 36. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، 2/ 329 – 330. بتصرف.

2 - الطبقة الوسطى: وتشمل كبار رجال الدولة والتجار والعلماء والقضاة

وقد كان حال هـذه الطبقة لا يقل أبهة عن طبقة الخلفاء والأمراء، فقد اهتم كبار القواد بقصورهم وديارهم، حتى صارت مضرب المثل في بهائها ورونقها، وتشمل هـذه الطبقة كذلك كبار التجار الذين جمعوا ثروات كبيرة؛ بسبب ازدهار الدولة وانتعاش عمرانها، وقد ارتبط عمل هـؤلاء التجار بقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وقواد الدولة ارتباطًا مباشرًا، فكان لهم من ذلك حظًا واسعًا في جمع المال والترف الكبيرين.

ويأتي في مقدمة هـذه الطبقة العلماء والقضاة، الذين تبوءوا مكانة مرموقة في المجتمع العباسي، لما كان لهم من دور أساسي في الحياة اليومية لسكان بغداد، حتى كان يقصدهم الأمراء والوزراء وعامة الناس في جميع ظروفهم، ابتغاء عونهم ومرضاتهم، لفرط ما كانوا يحظون به من تقدير وتعظيم لدى الجميع. وقد عرف الرشيد هـذا الحق فزاد عليه، حتى أنه لم يجتمع له من الفقهاء والقضاة والعلماء والقراء والكتاب ما اجتمع للرشيد رحمه الله. ولهذا الإكرام فقد عاش العلماء والقضاة في رغد من العيش، وكان لهم زيهم الخاص ومظهرهم الخاص.

ويمكن أن نضيف إلى هـذه الطبقة المهندسين والأطباء والجراحين والصيادلة، وقد اشتهر من هـذه الطبقة أطباء كبار منهم: آل بختيشوع، الذين حظوا بقدر من الثقة والمنزلة العالية في قصور المنصور والمهدي والهادي والرشيد[1].

3 - الطبقة السفلى: وهي طبقة العامة والغوغاء

وهم عامة الشعب الذين تتكون منهم مجتمعات الدولة العباسية، وذلك على اختلاف جنسياتهم وألوانهم وعقائدهم، فمنهم العرب والفرس والأتراك وغيرهم،

(1) انظر تفضيل ذلك في: المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص 241 - 242. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي - السياسي والحضاري، ص 254. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 312. بتصرف.

وكان طعامهم يتميز بالبساطة، كما كانت بيوتهم دون أسوار تحيط بها، وكانت نوافذهم تطل على الشوارع مباشرة. وقد كان من هـؤلاء صغار التجار والصناع والزرَّاع والباعة وأرباب الحرف المختلفة. وقد عاش هـؤلاء عيشة متوسطة في المدن، لا هـم بالأغنياء الموسرين ولا بالفقراء المعدومين.

وهناك فئة - ضمن هـذه الطبقة - أطلق عليهم المؤرخون تسميات مختلفة مثل: الغوغاء والسفلة والسقاط والأوباش، وقد اكتظت بهم المدن في العصر العباسي وخاصة بغداد، ونظرًا لكثرة عددهم فقد كانوا مصدر فساد واضطراب في المجتمع، مما حدا بالحكومة أن تملقهم أحيانًا وتحسن إليهم اتقاء شرهم[1].

(1) أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص 358. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي - السياسي والحضاري، ص 255 - 256. بتصرف.

ثالثًا: العادات والتقاليد

تأثر العباسيون بالتقاليد الفارسية في جميع مناحي الحياة في المأكل والمشرب والملبس وتقاليد الاحتفال بالأعياد، ومن مظاهر ذلك:

1 - المأكل

كان الطعام والشراب صورة من هـذا المستوى الاجتماعي الرفيع خلال العصر العباسي، فقد شهدت زراعة الفاكهة والخضروات انتشارًا واسعًا في عهد الدولة العباسية لاتساع ممتلكاتها مشرق الأرض ومغربها، مما هـيأ لها استقبال ما اختلف من الزرع لتنوع تربة الأرض هـنا وهناك.

من هـنا فقد اعتنى العباسيون بتنويع الطعام، حتى إن مائدة الرشيد كانت تحفل بألوان الطعام، فقيل إن الطهاة كانوا يطهون ثلاثين لونًا في اليوم، وأنه كان ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم في اليوم، ولما تزوج الرشيد من زبيدة بنت جعفر أقيمت في قصره وليمة أنفق عليها خمسة وخمسين ألف ألف درهم.

وقد كان الأمراء يعبُّون من السرف، وقد بلغ من نفقتهم في الطهي وإسرافهم في الإنفاق عليه، أن بعضهم كان يشتري مقادير كبيرة من السمك؛ لتقديم ألسنته على المائدة، من ذلك إسراف إبراهيم بن المهدي في تقديم الطعام عندما زاره الرشيد في الرقة، ومعاتبة الرشيد له في إسرافه، يقول المسعودي عن إبراهيم بن المهدي قال: "استزرت الرشيد بالرقة، فزارني، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد، فلما وضعت البوارد رأى فيما قرب إليه منها جام قريص مثل قريص السمك، فاستصغر القطع، وقال: لم صَغر طباخك تقطيع السمك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، هـذه ألسنة السمك، قال: فيشبه أن يكون في هـذا الجام مائة لسان، فقال مراقب خادمه:

يا أمير المؤمنين، فيها أكثر من مائة وخمسين، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره إنه قام بأكثر من ألف درهم، فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئًا دون أن يُحْضِره ألف درهم، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به. وقال: أرجو أن يكون كفارة لسَرَفِكَ في إنفاقك على جام سمك ألف درهم"[1].

وقد كان أهل بغداد يتفننون في الطعام ويسرفون في اجتلاب ألوانه في غير مواعيدها، من صيد وفاكهة وخضروات، حتى كانوا يزينون هـذه الأطعمة أحيانًا بما يعادلها في الوزن من الفضة، ما كانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والحبوب والجبن وما إلى ذلك من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند[2].

2 - الملبس

يعد الثياب والملبس من أظهر العادات والتقاليد التي تبيِّن مدى تأثر المجتمع العباسي بغيره من المجتمعات، وقد قاد ترف طبقات المجتمع وإسرافهم في الطعام إلى التأنق في الملبس والزينة في حياتهم الخاصة والعامة. لقد كان تنوع الثياب التي تلبس ببغداد يضفي على شوارعها روعة في الألوان وجاذبية في المظهر، ذلك أن كل مجموعة من المجموعات العرقية ظلت محتفظة بلباسها الأصلي: العرب، والبربر، والفرس، والترك، والروم، والصقالبة، والرقيق المجلوب من بلدان ما وراء البحر المتوسط[3].

كما أن تنوع وتعدد الأزياء والملابس من أظهر ملامح تأثر المجتمع العباسي بالتقاليد الفارسية؛ حيث كان لكل طبقة وفئة في المجتمع زي خاص ولون خاص، وهذا من عادة الفرس، فقد ذكر الجهشياري: "كان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة، ممن في خدمتهم، لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة، فإذا

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 300.

(2) حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص230. بتصرف.

(3) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص 248.

وصل الرجل إلى الملك عرف بلبسته صناعته، والطبقة التي هـو فيها»[1].

فقد كان الخليفة في المواكب يرتدي قباء أسود أو بلون الإسفنج، يصل إلى الركبة وهو مفتوح عند الرقبة، ليظهر القفطان زاهيًا من تحته، وله منطقة مرصعة بالجواهر وعليه عباءة سوداء، وعلى رأسه قلنسوة طويلة، زينت بالجواهر الغالية. كما كان اللباس العادي للطبقة الراقية يشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة، أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزامًا (يسمى قمر بند)، وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال[2].

وكان لكل طائفة زيها الخاص بها، فكان للشرطة زي والقضاة زي والجند زي والكتاب زي ولحرائر النساء زي ولكل مملوك زي وللإماء زي، وكذلك اختلفت العمائم فكان للفقهاء عمامة وللخلفاء عمامة وللنصارى عمامة.

وكان اللون الأسود هـو السائد واستمر رمزًا للخلافة العباسية، ويذكر الجهشياري أن الرشيد لبس بطوس يوم وفاته جبة سوداء خز بغير قميص، وعليها فنك وفوقها دراعة خز سوداء مبطنة بفنك، وعلى رأسه قلنسوة طويلة، وعمامة خز سوداء، وطيلسان أسود[3].

وقد كان لباس المرأة أكثر مبالغة في الفخامة والتألق، يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد، وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فإنها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها، وتقي ملابسها من التراب، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة.

كما أن النساء اتخذن غطاء الرأس مرصعًا بالجواهر ومحلًى بسلسلة ذهبية

(1) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 2.

(2) حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص230.

(3) الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، ص 221. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 318 – 319.

مطعمة من الأحجار الكريمة، ويقال إن هـذا الزي ابتكرته علية بنت المهدي أخت الرشيد. وقد كان لزبيدة زوجة الرشيد أثر كبير في تطور الزي وإدخال تغييرات على ملابس السيدات في عصرها، فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر، وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها، حتى أنها اتخذت ثوبًا من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار، وقلدتها نساء الطبقة الممتازة جميعهن.

وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري، يختلفون على الدواب في جهاتها، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، واتخذت الخفاف المرصَّعَة بالجوهر وشمع العنبر، وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر.

أما نساء الطبقة الوسطى فكنَّ يتخذْنَ في رؤوسهن حلية مسطحة من الذهب ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد، ويلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن[1].

3 - الأعياد والمناسبات

زاد النفوذ الفارسي في المجتمع العباسي حتى شمل شكل الاحتفال بالأعياد والمناسبات والمواسم المختلفة الدينية منها وغير الدينية. وبلغ الذروة في ذلك في عهد الرشيد، خاصة أن البرامكة كانوا فرسًا، فكان ذلك تسهيلًا لانتشار العادات والتقاليد الفارسية.

---

(1) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/ 252 - 253. جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص 88. حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص230 - 231. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 349 - 350. بتصرف.

أ - الاحتفال بالعيدين

فقد احتفل الخلفاء العباسيون بالعيدين (الفطر والأضحى) احتفالًا دينيًا، حيث يتوافد المسلمون إلى المساجد لحضور صلاة العيد، ويحضر الخلفاء فيؤمنون الناس في الصلاة ويلقون عليهم خطبة العيد، كما كان الخليفة يجلس في إيوان من قصره للتسليم على الوزراء والهاشميين وكبار قواد الدولة ورجالها، ثم يستقبل الشعراء ويستمع لشيء من قصائدهم، وكانت الأنوار تسطع في شوارع المدن الإسلامية في ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل. وأما الجماهير فكانت تعبر عن فرحها بقرع الطبول والنفخ في الأبواق والظهور بأفخر الثياب، ويخرج الناس للنزهة على ضفاف دجلة والفرات، ويركبون الزوارق التي تزدان بالزينات المختلفة[1].

ب - الاحتفال بأعياد الفرس

بحكم اختلاط العرب بالفرس فقد احتفل المسلمون بأعيادهم، كعيد النوروز في بداية كل ربيع من السنة، وكان الناس يتبادلون في هـذا العيد بالهدايا. وهناك عيد المهرجان وعيد الراوم وهو من أشهر أعياد الفرس ويوافق 26 من أكتوبر (تشرين الأول)، ويستمر الاحتفال بعيد المهرجان ستة أيام يسمى اليوم السادس منها بالمهرجان الكبير. أما عيد الراوم فهو من الأعياد الفارسية، ويسمى رام روز، ويقع في اليوم الحادي والعشرين من شهر مدماه الفارسي[2].

---

(1) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 354 - 355. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 328 - 329.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 356 - 357. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي، 3/ 329 - 330. بتصرف.

جـ - الاحتفال بأعياد النصارى

وكان النصارى يحتفلون بأعيادهم في الأديرة، وكان المسلمون يشاركون النصارى أعيادهم، وكانت أعيادهم أيام بهجة لأهل بغداد، ومن أشهر الأعياد التي احتفل بها المسلمون في أعياد النصارى عيد دير الثعالب، وهذا الدير يقع في الجانب الغربي من بغداد، وكان لا يتخلف عن عيده أحد من المسلمين أو المسيحيين[1].

4 - **الألعاب الرياضية**

انتشرت الألعاب الرياضية والصيد أيام الرشيد انتشارًا واسعًا، وخاصة لعبة الصولجان والشطرنج واللعب بالسيف والترس وسباق الخيل. حتى قيل إن الرشيد أول خليفة لعب بالصوَّالجة (لعبة الهوكي) والكرة، ورمي النشاب في البرجاس، وأول خليفة لعب بالشطرنج من بني العباس[2]. وقد وصف المسعودي يومًا للرشيد كان فيه سباق للخيل أمامه، وجلس هـو في صدر الميدان يشرف على السباق، وكان فرس الرشيد هـي الأول في السباق وفرس المأمون هـي الثانية، وقد سر الرشيد من ذلك كثيرًا[3].

(1) المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص 257 - 258. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي،
3/ 323. بتصرف.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4/ 252. السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 218.

(3) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 299 - 300. أحمد أمين: هارون الرشيد، ص55.

رابعًا: المدنية في المجتمع العباسي

تأثرت الحياة المدنية بالمقومات الاجتماعية التي أشرنا إليها، فقد انطلقت المدنية الجديدة انطلاقة كبيرة في المجتمع العباسي، وأول ما يلاحظ ذلك التوسع العمراني الكبير الذي طرأ على المدن الجديدة وخاصة بغداد، وما تضمنه ذلك من كثرة المساجد والحمامات والحوانيت، فقد اشتملت بغداد وحدها على ستين ألف حمام، وكان بإزاء كل حمام خمسة مساجد، فتكون مساجد بغداد ثلاثمائة ألف مسجد.

وإنه ليصيبك العجب عندما ترى وصف الخطيب البغدادي لبغداد، يقول: "كانت ببغداد ستين ألف حمام. أقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر: حمامي وقيِّم وزبَّال ووقَّاد وسقَّاء. يكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل، وأنه يكون بإزاء كل حمام خمسة مساجد، يكون ذلك ثلاثمائة ألف مسجد، وتقدير ذلك أن يكون أقل ما يكون في كل مسجد خمسة أنفس، يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان، يحتاج كل إنسان من هـؤلاء في ليلة العيد إلى رطل صابون، يكون ذلك ألف ألف وخمسمائة ألف رطل صابون، يكون ذلك - حساب الجرة مائة وثلاثين رطلًا: ألف جرّة ومائة جرّة وخمسين جرّة وثمانية أجرار ونصفًا. يكون ذلك زيتًا - حساب الجرة ستين رطلًا - ستمائة ألف رطل وتسعة آلاف رطل وخمسمائة رطلًا وعشرة أرطال"[1].

ومن الظواهر الاجتماعية التي طرأت على الحياة في المدن في العصر العباسي ظاهرة التضخم السكاني، فقد ألغى العباسيون قيود الهجرة التي وضعت في العصر الأموي، وفُتحت الأبواب على مصراعيها للمهاجرين الباحثين عن أسباب الرزق، فكان هـذا التضخم السكاني ظاهرة شهدتها المدن الإسلامية، حتى بلغ عدد مدينة بغداد كما ذكر الخطيب البغدادي مليونًا ونصف إنسانًا.

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 1/ 439.

وكان هـذا الازدياد والتضخم نتيجة جلب الرقيق والعمال واستخدامهم في قصور الخلفاء والأمراء، واكتظت قصورهم بالآلاف من الجواري من كل جنس، وقد أدى تزايد أعداد السكان من ناحية وكثرة الإنفاق من ناحية أخرى إلى ارتفاع الأسعار في بغداد، وهذا الغلاء وإن احتمله الأغنياء وأوساط الناس، فإنه ثقل على الفقراء، وقد شكا أبو العتاهية (130هـ - 213هـ) ذلك وصوره تصويرًا دقيقًا، بقوله:

من مبلغ عني الإمام نصائحًا متواليـة   أني أرى الأسعار أسعار الرعية غالية

كما أننا يمكن أن نعطي صورة للخدمات العامة التي كانت تقوم بها الدولة رعاية لهؤلاء السكان الذين تجمعوا في المدن على هـذه الصورة، فاعتنى الخلفاء بنظافة بغداد ونظافة شوارعها وطرقاتها، وكان يقف في زاوية كل شارع حارس مسئول عن حفظ النظام، كما أكثروا من المنتزهات الشعبية عند تقاطع الشوارع وحول الأحواض المائية، كما أقيمت في بغداد الجسور، فبنى الرشيد جسرين عند باب الشماسية.

أما عن وسائل الانتقال فكانت الوسيلة التي تستخدمها الطبقة الوسطى هـي كراء الحمير، وكان الحمَّارون يقفون بحميرهم في بغداد عند باب الكرخ، ويبدو أنَّ هـذه الظاهرة شاعت في المدن الكبرى كلها، فقد كان بالفسطاط موقف لاكتراء الحمير بالقرب من دار الحرم[1].

وخلاصة القول

أن معالم التطور الاجتماعي في العصر العباسي الأول كان نتيجة للحياة الاقتصادية الراقية التي عاشها الناس، والتي بلغت ذروتها في عهد الرشيد، ولم تكن تلك الظواهر قاصرة على بغداد والعراق وحدهما، إنما امتد أثرهما إلى الأمصار الإسلامية، وكان الأفراد العاديون يستطيعون أن يحيوا حياة كريمة، حتى إن الأسرة العادية زمن هـارون الرشيد كان في مكنتها أن تعيش من دخل لا يتجاوز ثلاثمائة

(1) حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص240 - 246. بتصرف.

درهمٍ في السنة، وأن الأسرة التي كان دخلها نحوًا من سبعمائة دينار في السنة كانت تعتبر أسرة ثرية، وكان أثرياء الناس وأبناؤهم سواء في الحضر أو في الريف ينفقون عن سعة في بناء الدور واقتناء الجواري أو المشاركة في المشروعات التجارية.

ويبدو أن الخلافة العباسية قد تحولت إلى حياة الترف والنعيم التي يصورها أدب ذلك العصر سواء كان أدبًا رسميًا أم شعبيًا، دفعة واحدة، فقد بدأ الانطلاق الاجتماعي زمن المنصور ثم المهدي، ثم وصل هـذا الانطلاق إلى القمة زمن هـارون الرشيد ومن بعده المأمون والمعتصم والواثق[1].

(1) حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص226 – 228. بتصرف.

الفَصْلُ الثَّامِنُ

الحياة العلمية

- أولًا : ثقافة هارون الرشيد.
- ثانيًا : سياسة الرشيد في تقريب العلماء.
- ثالثًا : بغداد الرشيد.. كعبة العلم والعلماء.
- رابعًا : إنشاء هارون الرشيد بيت الحكمة.
- خامسًا : الأدب في عهد هارون الرشيد.
- سادسًا : اهتمام هارون الرشيد بعلوم الحياة.
- سابعًا : الترجمة في عهد هارون الرشيد.
- ثامنًا : صناعة الورق في عهد هارون الرشيد.

”كان فهم الرشيد فهم العلماء“

ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (8/ 323)

شهد العالم الإسلامي أيام الرشيد ازدهارًا علميًا وحركةً فكريةً ثقافيةً لم يشهد لها مثيل من قبل ولا من بعد، سوى فترات قليلة من تاريخ الأمة، ولعل من هـذه الفترات فترة المأمون بن الرشيد، وهذا ليس بغريب، إذ أخذ المأمون عن أبيه حب العلم وتقريب العلماء، ولكننا يمكن أن نقول إن الحركة العلمية في عهد المأمون لم تصل إلى ما وصلت إليه من الذروة لولا جهود أبيه الرشيد من قبل، ومن قبلهما المنصور والمهدي. ولعل انتعاش الحياة في عهد الرشيد اقتصاديًا واجتماعيًا وسياسيًا كان له أثرٌ بالغٌ في ازدهار الحركة العلمية حتى اجتمع في عهد الرشيد من العلماء ما لم يجتمع إلا للقلائل من الملوك والخلفاء. فانتشر العلم وتطورت الحضارة وشهدت البلاد نهضةً فكريةً لم يُعهد بها من قبل.

أولًا: ثقافة هارون الرشيد

لم يكن اهتمام الرشيد بالعلم والعلماء نابعًا من فراغ، بل كان ذلك مطبوعًا في نفسه، لتربية علمية تربى عليها منذ صغره، فقد كان الرشيد مثقَّفًا ثقافة عربية وإسلامية واسعة، جمع إلى عقله الراجح أدبًا رفيعًا وتذوقًا ممتازًا رائعًا للشعر واللغة، لذلك قيل: "كان فهم الرشيد فهم العلماء"[1].

تلقى الرشيد علوم اللغة والأدب والفقه والدين على كبار رجال عصره، أمثال الإمام مالك بن أنس وعبد الله بن المبارك والمفضل الضبي والكسائي والأصمعي، أخذ عن هؤلاء وغيرهم الأدب واللغة والنحو والفقه والتاريخ، فضلًا عن ملكته الشعرية وذوقه الأدبي واستعداده الفطري لطلب العلم دون تكبر أو استعلاء.

وكان هارون الرشيد حريصًا على طلب العلم يطلبه من أهله، ولم تمنعه هيبة الخلافة أو جلال المكانة من السؤال عما لا يعرف، قال القاضي الفاضل: "ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله قال: وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد في خزانة المصريين، قال: ثم رحل لسماعه السلطان صلاح الدين بن أيوب إلى الإسكندرية، فسمعه على بن طاهر بن عوف، ولا أعلم لهما ثالثًا"[2].

وكان رحمه الله راوية للحديث الشريف، ومما رواه الرشيد من الحديث، قال الصولي: حدثنا عبد الرحمن بن خلف، حدثني جدي الحصين بن سليمان الضبي،

---

(1) أبو سعد الآبى: نثر الدر في المحاضرات، 3/ 69. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 323. الزمخشري: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، 2/ 91. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص 52.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 217.

سمعت الرشيد يخطب فقال في خطبته: حدثني مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن أنس قال: قال النبي ﷺ: "اتقوا النار ولو بشق تمرة"[1].

وحدثني محمد بن علي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "نظفوا أفواهكم فإنها طريق القرآن"[2].

وما رواه هـارون الرشيد في حب آل البيت وأبناء علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الرشيد: حدثني أبي المهدي عن أبيه المنصور عن محمد بن علي عن أبيه عن ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول في الحسن والحسين: "من أحبهما فقد أحبني، ومن أبغضهما فقد أبغضني"[3]، وسمعه يقول: "فاطمة سيدة نساء العالمين، غير مريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم"[4].

---

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 219. هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، رقم (1351) ومسلم في صحيحه، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم (1016) من طريق عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 219. هذا الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، فصل في السواك لقراءة القرآن، رقم (1940) من طريق سمرة بن جندب، بلفظ: (**طيبوا أفواهكم بالسواك فإنها طرق القرآن**)، والألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (3939، 3940). وقال الألباني: صحيح.

(3) هذا الحديث رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب المناقب، باب فضائل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب (8168)، وابن ماجه في السنن، باب فضائل الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب (143)، من طريق أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) هذا الحديث رواه الترمذي (3873) عن أنس بلفظ: «ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم ابنة عمران»، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه الترمذي (3878) عن أنس بلفظ آخر: «حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»، وقال: هذا حديث حسن صحيح. السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 216.

ثانيًا: سياسة الرشيد في تقريب العلماء

كان أكثر حرص هـارون الرشيد أن تكون مجالسه مجالس العلم والأدب والفقه، فكان يحب العلم ويؤثره، حتى نال علمًا كثيرًا، وكانت لَهُ فطنة قوية، وكان يحبّ الشّعر والشّعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين، ويقول: "هو شيء لا نتيجة له، وبالحريِّ ألا يكون فيه ثواب"، وكان يحبّ المديح، ولا سيّما من شاعر فصيح ويجزل العطاء عليه، ويشتريه بالثمن الغالي الربيح[1].

قال ابن الفرات: "كان الرّشيد يتواضع لأهل العلم والدّين، ويكثر من محاضرة العلماء والصالحين"، قال أبو معاوية الضرير وكان من علماء الناس: "أكلت مع الرشيد يومًا فصبّ على يديّ الماء رجل، فقال لي: يا أبا معاوية أتدري من صبّ الماء على يدك؟، فقلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هـذا إجلالًا للعلم؟، قال: نعم إجلالًا للعلم".

وكان أبو معاوية الضرير عند الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين أحتاج إلى موضع الخلاء، فقال للأمين والمأمون: خذا بيد عَمِّكُمَا فأرياه الموضع. قال: فأخذا بيدي فأدخلاني إلى موضع، شممت منه رائحة طيبة، فقالا: يا أبا معاوية، هـذا الموضع فشأنك، فقضيت حاجتي، فحدثته أن النبي ﷺ قال: "يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ لَهُمْ نَبْزٌ، يُقَالُ لَهُمُ: الرَّافِضَةُ، مَنْ لَقِيَهُمْ فَلْيَقْتُلْهُمْ فَإِنَّهُمْ مُشْرِكُونَ".

وكان الرشيد رحمه الله يحب الحديث وأهله، فقد قال مالك بن أنس رحمه الله: "وجه إليَّ هـارون الرشيد يسألني أن أحدثه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن العلم يؤتى ولا يأتي، قال: فصار إلى منزلي، فاستند معي إلى الجدار، فقلت: يا

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 347. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 322. ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، 1/ 192.

أمير المؤمنين إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، قال: فجلس بين يدي، قال: فقال لي بعد مدة، يا أبا عبد الله: تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة، فلم ننتفع به". وقد سمع الرشيد الحديث من مالك بن أنس، وإبراهيم بن سعد الزّهري، وأكثر حديثه عن آبائه. وروى عنه القاضي أبو يوسف، والإمام الشافعي رضي الله عنهما، وللرشيد مشاركة في الفقه، والعلم، والأدب[1].

وسأل الرشيد جلساءه: من أكرم الناس خدمًا؟ فقالوا: أمير المؤمنين. فقال: لا، بل الكسائي! فقد رأيته يخدمه الأمين والمأمون وليًا عهد الخلافة[2]. وقيل: إن الرشيد أقدم أبا عبيدة معمر بن المثنى من البصرة إلى بغداد سنة 188هـ، وقرأ عليه بعض كتبه، وهي تقارب مائتي مصنف، منها: كتاب (مجاز القرآن)، وكتاب (غريب الحديث)، وكتاب (مقتل عثمان)، وكتاب (أخبار الحجاج). وقال أبو عبيدة: أُدخلت على هـارون الرشيد، فقال لي: يا معمر، بلغني أن عندك كتابًا حسنًا في صفة الخيل أحب أن أسمعه منك[3].

وإنما قرب العلماء إلى الرشيد لما في نفسه إلى الميل إلى الأدب والحرص على إحراز العلوم، حتى كانوا إذا اجتمعوا بداره سما إلى مناظرتهم من حيث العلم والتواضع له، لا من حيث السيادة عليهم، وكان يبتغي بتواضعه للعلم مع ماهـو مطبوع في نفسه من الإجلال له أن تحصل له الغاية التي رومها من صلاح أمره باستمالة الأئمة من العلم، حتى يستقيم ملكه من ناحية القلم، كما استقام له من ناحية السيف[4].

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 3/ 135، 16/ 12. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 323. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 288. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 2/ 431 – 433. أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، 1/ 84.

(2) الثعالبي: درر الحكم، الناشر: دار الصحابة – طنطا، الطبعة الأولى، 1416 هـ – 1995م، ص43.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 5/ 235 – 237. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 446 – 447.

(4) جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص 113.

ولأن الرشيد فطن أن الأمة الناهضة هـي التي تولي للعلم اهتمامًا وللعلماء منزلة ومكانة، وهذا هـو السر الذي أراه مناسبًا ومفسرًا لحالة الانتعاش العلمية الكبرى في عهد الرشيد، حتى إني قرأت خبرًا عجيبًا عن مدى إنفاق الرشيد من أجل نشر العلم وتشجيع أهله، أن الرشيد حين قدم الرقة، لقي عبد الله بن المبارك، فلما هـم بالقيام من عنده – كان قد زاره في داره – قال ابن المبارك: يا أمير المؤمنين، إني أخشى أن يكون العلم قد ضاع قبلك كما ضاع عندنا، فقال الرشيد: أجل، إنه ما قلت. ثم لما قدم الرشيد العراق كان أول ما ابتدأ فيه النظر: أن كتب إلى الأمصار كلها، وإلى أمراء الأجناد: "أما بعد، فانظروا من التزم الأذان عندكم، فاكتبوه في ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه في ألفي دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه في العلم واستبحر، فاكتبوه في أربعة آلاف دينار من العطاء، وليكن ذلك بامتحان الرجال السابقين لهذا الأمر من المعروفين به من علماء عصركم وفضلاء دهركم، فاسمعوا قولهم وأطيعوا أمرهم فإن الله تعالى يقول: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾. وهم أهل العلم.

قال ابن المبارك: "فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه"[1].

وهذا الخبر وإن كان إلى المبالغة ما هـو، ولكنه في أصله حقيق بالتصديق، فإن مناقب الرشيد رحمه الله كثيرة لا تضيق من دونه، وقد صحت الرواية بأنه ما اجتمع على باب خليفة قبله ما اجتمع على بابه من الشعراء وأهل الأدب، وقد كان يتفقدهم ويتقدم في طلبهم ويحظيهم ويفضل عليهم، وماهـذه الرواية إلا بسبيل من تلك، ولتلك أقرب إلى الحق وأعلق بأسباب الزمن[2].

(1) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، 1/ 300 – 301.

(2) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، 2/ 97، هامش رقم (2).

ثالثًا: بغداد الرشيد.. كعبة العلم والعلماء

بغداد تلك المدينة التي أبت عبر التاريخ أن تتسمى بغير اسمه، فكان اسمها عبر التاريخ (بغداد الرشيد)، تلك التي توحي لمن يسمعها معاني كثيرة، أقلَّها أن بغداد وصلت في عهده إلى درجة من الرقي والفخار لم تصل إليها من قبله ولا من بعده. لم لا، وبغداد الرشيد - كما وصفها اليعقوبي - وسط الدنيا وسرة الأرض والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها، سعة، وكبرًا، وعمارة، وكثرة مياه، وصحة، وهواء[1].

ويكفيك أن تعرف قيمة بغداد الرشيد من وصف الشافعي رحمه الله، الذي دخل بغداد سنة 184هـ زمن خلافة الرشيد يقول: "ما دخلت بلدًا قط إلا عددته سفرًا، إلا بغداد، فإني حين دخلتها عددتها وطنًا". ومرة قال لصاحبه يونس بن عبد الأعلى: يا يونس دخلت بغداد؟ قال: لا. قال الشافعي: "يا يونس ما رأيت الدنيا، ولا رأيت الناس". وقال فيها أبو بكر بن عياش رحمه الله (ت: 193هـ): "الإسلام ببغداد، وإنها لصيادة تصيد الرجال، ومن لم يرها فلم ير الدنيا"[2].

صارت بغداد الرشيد قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الإسلامية، يرحلون إليها ليتمموا ما بدأوا فيه من العلوم والفنون، فهي المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها، فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويون، وكلهم قائمون بالدرس والإفادة لتلاميذهم في المساجد

(1) اليعقوبي: البلدان، ص11.

(2) انظر مناقب بغداد في: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 1/ 346 - 358.

الجامعة التي كانت تعتبر مدارس عليا لتلقي هـذه العلوم، وقلّما كان يتم إنسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب إلا إذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها.

لقد بلغت بغداد في أيام الرشيد مكانة لم تظفر بها مدينة في ذلك العهد. وأصبحت مهد الحضارة، ومركزًا للفنون والآداب، وزخرت بالأدباء والشعراء والعلماء والحكماء. وأنشئت فيها المراصد والمكتبات والبيمارستانات والمدارس. وإليه يعزى تأسيس بيت الحكمة، الّذي جمع له من الكتب شيئًا كثيرًا، وكان مجتمع المتصلين بالعلم، والمشتغلين بالفن، والراغبين في الأدب[1].

يقول فيليب حتى واصفًا بغداد الرشيد: «أصبحت بغداد مركزًا للغنى الباذخ والأهمية العالمية، ولم يكن قد مضى بعد على تأسيسها نصف قرن، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطة، وكان مجدها متناسقًا مع الإمبراطورية التي كانت هـي عاصمتها، حتى قيل: (لم يكن لبغداد في الدنيا نظير)»[2].

وهكذا كانت بغداد الرشيد أهم مراكز الإشعاع العلمي والحضاري في العالم أجمع، جاءها العلماء من كل بلاد الدنيا، ليتعلموا على أيدي علمائها وليتزودوا ما شاءوا من المعارف، قصدها العلماء والأطباء والمهندسون والمفكرون والشعراء والأدباء والفنانون.

(1) ابن قتيبة الدينوري: المعارف، مقدمة المحقق، ص 9. صلاح الشهاوي: الخليفة المجاهد العابد هارون الرشيد، مجلة حراء الإلكترونية، 21 آذار/ مارس 2012م.

(2) فيليب حتى: العرب تاريخ موجز، ص116.

رابعًا: إنشاء هارون الرشيد بيت الحكمة

إن الحدث الفريد في تاريخ العلم في الحضارة الإسلامية هـو إنشاء هـارون الرشيد بيت الحكمة، الذي كان الانطلاقة الحقيقية للنهضة العلمية في العالم الإسلامي؛ حيث يعتبر بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي، ولعله أول جمعية علمية، أو جامعة إسلامية يجتمع فيها العلماء للبحث والدرس ولجأ إليها الطلاب، فكان بذلك مركزًا علميًا شمل علوم الطب والفلسفة والحكمة وغيرها[1].

ويكاد يجمع المؤرخون أن الخليفة العباسي هـارون الرشيد هـو الذي وضع النواة الأولى لـ (بيت الحكمة) في بغداد، حيث أسس ما عرف باسم (خزانة الحكمة)، نتيجة لما تميز عهده من ازدهار حضاري وعلمي وخصوصًا حركة الترجمة والتأليف، كان الهدف منها إغناء الفكر العربي بالمزيد من العلوم والمعارف المختلفة.

وبلغ اهتمام الرشيد بالكتب وجمعها إذ إنه عندما استولت جيوشه على عمورية وأنقرة أمر عماله بالمحافظة على مكتباتها، وأرسل جماعة من العلماء لفحص هـذه المكتبات، وجلب منها النادر والنفيس من تلك المؤلفات ونقلها إلى بغداد، وكانت هـذه الكتب محط اهتمام الرشيد الذي أمر بدراستها ووضع الشروح لها، وفضلًا على هـذه الكتب فإنه قد أُلِّفَت في عهده العديد من المؤلفات في التاريخ والفقه والحديث وغيرها، ونتيجة لذلك أصبحت لديه مجموعة كبيرة من الكتب، وبالإضافة إلى الكتب التي جمعت في عهد المنصور وابنه الخليفة المهدي، فعندئذ شيَّد الرشيد خزانة لحفظ هـذه الكتب من الضياع[2].

(1) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص43.

(2) عبد الباسط عبد الرزاق الألوسي، عثمان عبد العزيز صالح المحمدي: من روائع الحضارة الإسلامية بيت الحكمة أنموذجًا: دراسة تاريخية. مجلة ديالي 2009م، الإصدار: 34، ص190.

وقد حوت مكتبة بيت الحكمة كتبًا وضعت في الأصل بلغات مختلفة، ومن أهمها الكتب اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والآرامية، وقد جمع الرشيد في بيت الحكمة كثيرًا من المؤلفين، والمترجمين والنساخ، ومن أشهرهم: "سهل بن هـارون"، و"الحسين بن سهل"، و"الفضل بن نوبخت"، وكانوا يترجمون من الفارسية إلى العربية. و"حنين بن إسحاق"، و"يوحنا البطريق"، و"يوحنا بن ماسويه"، وكانوا يترجمون من اليونانية والسريانية إلى العربية، وقد نقل ابن أبي أصيبعة أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة، مما وجدها في أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين غزاها المسلمون، وكانت تضم غرفًا عديدة تمتد بينها أروقة طويلة، وخُصصت بعضها للكتب، وبعضها للمحاضرات، وبعضها الآخر للناسخين والمترجمين والمجلدين.[1].

(1) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص42 - 43. موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي: الأوضاع الحضارية في العصر العباسي الأول، 3/ 31 - 32.

خامسًا : الأدب في عهد هارون الرشيد

إذا كان لعصر الرشيد ميزة خاصة من بين ميزاته الكثيرة التي أشبعت بحثًا في كتب التاريخ والتاريخ الأدبي، فهي شيوع المتعة الأدبية والفكرية، حتى ليخيل إليك أنها مطلب الجماهير الشعبية، فضلًا عن كونها بغية النخبة، وقد انغمس فيها كل عربي وكل مستعرب، وكل مسلم وكل من لم يسلم، من فصح لسانه، ومن لم يخل لسانه من لكنة.

فالواقع أن عصر الرشيد قد وهب غير نخبة ممتازة في ميدان الفكر والأدب، فهو عصر التحقيق العلمي للفقه والحديث، للشعر واللغة. كان فيه الإمام مالك والشافعي وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك ومحمد بن الحسن والقاضي أبو يوسف من أئمة الاجتهاد في الفقه. كما كان فيه من علماء اللغة سيبويه وأبو زيد الأنصاري ويونس بن حبيب وأبو جعفر الرؤاسي وهو أستاذ الكسائي والفراء. وفي هـذا العصر كان فيه تحقيق الرواية الشعرية وضبط الشعر القديم على يد نخبة من كبار الرواة من زعماء مدرستي البصرة والكوفة، وفي مقدمتهم: خلف الأحمر، والأصمعي، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، والمفضل الضبي، والكسائي، والأحمر علي بن المبارك كان يؤدب الأمين بتعيين الكِسائيّ لَهُ، وهو أول من دوَّن عن الكسائي. ومعظم هـؤلاء كان لهم حلقات وتلاميذ وجمهور يستمع إلى الشعر منهم، أو قراءة من أحد التلاميذ يصححها الشيخ ويعلق عليها ويشرحها.

وقد كان في عصر الرشيد عدد من الشعراء هـم نخبة في الإبداع الفني، منهم من اختص شعره بالجدِّ، مثل: مروان بن أبي حفصة، ومنصور النمري، وكلثوم العتابي، والعماني الراجز، وسلم الخاسر. ومنهم من قصر شعره على الغزل، مثل: العباس بن الأحنف. ومنهم من نظم معظم شعره في اللهو والمجون كأبي نواس[1].

(1) سعدي ضناوي: موسوعة هارون الرشيد، 1/ 28. بتصرف.

إن كتب الأدب حافلة بأدب الرشيد وأشعاره، وتقريبه لأهل العلم والفضل والأدب، حتى أنه كان يجالسهم، وما كان يفارقهم، يستشيرهم وينزل عن رأيهم، ويصحبهم معه في حله وترحاله، فما كان رحمه الله يقدر على فراقهم والبعد عنهم. فلم يكن الرشيد رجلًا ينسى نصيبه من الدنيا، بل كان مقبلًا عليها، آخذًا حظه منها. قال الأصمعي: «كان الرشيد يحب السمر ويشتهي أحاديث الناس[1]». وقال الجاحظ: «ولم يكن أحد من أصحابنا، من خلفائنا وأئمتنا، أحظى في الشعر من الرّشيد»[2]، أي أكثر احتفالاً بالشعر وأهله.

لقد كان هـارون الرشيد خطيبًا مفوهًا، وشاعرًا جذلًا، وأديبًا ناقدًا، فهو في خطبه يجمع بين الاستهلال البديع والعرض الشائق والاقتباس المناسب من القرآن والسنة وأقوال الصالحين، ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد نموذج خطبة لهارون الرشيد، بعد أن حمد الله وصلى على رسول ﷺ، قال: «أوصيكم عباد الله بتقوى الله؛ فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزا بالجنة، ونجاة من النار، وأحذركم يومًا تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التغابن، ويوم التلاقي ويوم التنادي، يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد من حسنة، ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: 18 – 19]، عباد الله، إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولن تتركوا سدًى، حصِّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة،.. وإياكم والأماني، فقد غرّت وأوردت وأبقت كثيرًا حتى أكذبتهم مناياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون،.. إنّ أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله، يقول الله عز وجل: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: 204]»[3].

(1) أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص489.

(2) الجاحظ: الحيوان، 4/ 445.

(3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 190 – 192.

وقد وصل إلى الرشيد أن عمه عبد الملك بن صالح يؤهل نفسه للخلافة، وأنه يراسل رؤساء القبائل والعشائر بالشام والجزيرة، فحبسه هـارون الرشيد سنة 188هـ، ثم دعاه من محبسه، فلما مثَّل بين يديه التفت إليه، ثم قال: «كأني أنظر إلى شؤبوبها قد هـمع، وإلى عارضها قد لمع، وإلى الوعيد قد أوري نارًا، فأقلع عن براجم بلا معاصم، ورؤوس بلا غلاصم، فمهلًا مهلًا بني هـاشم! لا تستوعروا السهل وتستسهلوا الوعر، ولا تبطروا النعم وتستجلبوا النقم، فعن قليل يذم ذو الحكم رأيه، وينكص ذو الحزم على عقبيه، وتستبدلون الذل بعد العز، والخوف بعد الأمن،..»، فلما خرج عبد الملك من عنده أتبعه الرشيد بصره، وقال: أما والله لولا الإبقاء على بني هـاشم لضربت عنقك[1].

وأما عن فن التوقيعات، فقد جمع فيه هـارون الرشيد بين قوة العبارة وجميل الإشارة ولطيف الكلمة، ذكر ابن عبد ربه جملًا من توقيعات الرشيد، ومنها:

وقَّع إلى صاحب خراسان: «داو جرحك لا يتسع».

ووقَّع لرجل من البرامكة: «أنبتته الطاعة وحصدته المعصية».

وإلى عامله على فارس: «كن مني على مثل ليلة البيات».

وإلى صاحب السّند إذ ظهرت العصبية: «كل من دعا إلى الجاهلية تعجّل إلى المنية».

وإلى عامله على خراسان: «كل من رفع رأسه فأزله عن بدنه».

ووقع إلى السندي بن شاهك: «خف الله وإمامك، فهما نجاتك»[2].

وأما عن شعر هـارون الرشيد، فكان الرشيد شاعرًا ذواقًا أديبًا، ذكر الصولي بسنده عن معاوية بن صالح عن أبيه قال: أول شعر قاله الرشيد أنه حج سنة ولي الخلافة 170هـ، فدخل دارًا، فإذا في صدر بيت منها بيت شعر قد كتب على الحائط:

---

(1) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، 2/ 513 – 514. مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 285 – 286.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 4/ 296 – 298.

ألا يا أمير المؤمنين أما ترى فديتك هـجران الحبيب كبيرًا

فدعا بدواة، وكتب تحته بخطه:

بلى والهدايا المشعرات وما مشى بمكة مرفوع الأظل حسيرًا[1]

ومن شعر الرشيد في ثلاث جوار كنَّ له:

مَلَكَ الثَّلَاثُ الْآنِسَاتُ عِنَانِي وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِ

مَا لِي تُطَاوِعُنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا وَأُطِيعُهُنَّ، وَهُنَّ فِي عِصْيَانِي

مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى وَبِهِ قَوَيْنَ أَعَزُّ مِنْ سُلْطَانِي

وأما عن ذوق هـارون ونقده للشعر والأدب، فكان فقيهًا أديبًا شاعرًا حلو النظم ذواقًا، والروايات كثيرة عن فهمه للشعر وطول باعه فيه، دخل مرة العباس بن الأحنف على هـارون الرشيد، فقال له هـارون: أنشدني أرق بيت قالته العرب، فقال: قد أكثر الناس في بيت جميل، حيث يقول:

أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُنِي بُثَيْنَةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا

قال له هـارون: أنت، والله، أرق منه، حيث تقول:

طَافَ الْهَوَى فِي عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِي مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَفَا

قال العباس: أنت والله يا أمير المؤمنين أرق قولًا مني ومنه، حيث تقول:

أَمَا يَكْفِيكِ أَنَّكِ تَمْلِكِينِي وَأَنَّ النَّـاسَ كُلَّـهُـمْ عَبِيـدِي

وَأَنَّكِ لَوْ قَطَعْتِ يَدِي، وَرِجْلِي لَقُلْتُ مِنَ الْهَوَى أَحْسَنْتِ زِيدِي

فضحك الرشيد وأعجبه ذلك[2].

(1) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 215.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 16 – 17.

ودخل محمد بن ذؤيب العمَّاني الراجز على الرشيد فأنشده أرجوزة يصف فيها فرسًا شبَّه أذنيه بقلم محرّف، فقال:

كأنَّ أذنيه إذا تشوّفا ... قادمةً أو قلمًا محرّفا

فقال له الرشيد: «دَعْ «كأنَّ» وقُلْ: «تخال أذنيه إذا تشوفا»، حتى يستوي الإعراب»، وكان قد لحن العماني، ولم يعرف ولم يفطن له أهل المجلس، حتى قال له الرشيد ذلك فتعجبوا من علمه وفطنته[1].

ودخل عليه مرة الشاعر مسلم بن الوليد الأنصاري، وهو أول من أكثر من البديع وتبعه الشعراء فيه، وهو من أهل الكوفة، نزل بغداد، فأنشد الرشيد قوله:

أديرا عليّ الكأسَ لا تَشْربا قبلي ... ولا تَطْلُبا مِن عند قاتلتي ذَحْلي

هَلِ العيشُ إلا أن تَرُوح مَعَ الصَّبا ... وَتَغْدُو صريعَ الكأس والأَعْيُنِ النُّجْلِ

فلقّبه الرشيد بصريع الغواني، حتى صار لا يُعرف إلا به. ويقال: «إن الرشيد كتب شعره بماء الذهب»[2].

وقال الحسن بن فهم: كان الرشيد يقول: من أحب ما مدحت به إليَّ:

أبو أمين ومأمون ومؤتمن ... أكرم به والدًا برًّا وما ولدا[3]

وقال الرشيد للمفضَّل الضبيِّ: اذكر لى بيتًا جيد المعنى، يحتاج إلى مقارعة الفكر في استخراج خبيئه، ثمّ دعنى وإيّاه. فقال له المفضَّل: أتعرف بيتا أوَّله أعرابيٌّ فى شملته، هـابٌ من نومته، كأنّما صدر عن ركب جرى في أجفانهم الوسن فركد، يستفزّهم بعنجهيّة البدو، وتعجرف الشّدو، وآخره مدنيّ رقيق، قد غذّى بماء العقيق؟

قال الرشيد: لا أعرفه، قال:هـو بيت جميل بن معمر:

(1) الصولي: أدب الكتاب، ص86. أبو هلال العسكري: ديوان المعاني، 1/ 36 – 37.

(2) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص235. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1206.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 217.

ألا أيّها الرّكب النيام ألا هـبُّوا

ثمّ أدركته رقّة المشوق، فقال:

أسائلكم:هـل يقتل الرَّجل الحبُّ؟

قال الرشيد: صدقت، فهل تعرف أنت الآن بيتًا أوَّله أكثم بن صيفيٍّ فى أصالة الرأي ونبل العظة، وآخره إبِّقراط في معرفته بالداء والدواء؟ قال المفضّل: قد هـوَّلت عليَّ، فليت شعري بأيِّ مهر تفترع عروس هـذا الخدر؟ قال: بإصغائك وإنصافك، وهو قول الحسن بن هـانيء:

دع عنك لومي فإنَّ اللَّوم إغراء   وداوني بالتي كانت هـي الدَّاء[1]

وقد كان الرشيد لا يبخل عن أهل الأدب والشعر ويعطيهم عطاءً جزيلًا، دخل عليه منصور النمري يومًا، فمدحه بقصيدة منها:

مَا كُنْتُ أُوفِي شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ   حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ   أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ

فأجازه هـارون الرشيد بمائة ألف درهم، وهو القائل فيه:

جَعَلَ الْقُرْآنَ إِمَامَهُ وَدَلِيلَهُ   لَمَّا تَخَيَّرَهُ الْقُرْآنُ إماما[2]

ولعمري قلَّما أجد مدحًا يوجَّه إلى عظيم أكثر انطباقًا على شخصية ممدوحه من قول أشجع السلمي في تصوير شخصية الرشيد، دخل على الرشيد بالقصر الأبيض بالرقة، وكان قد ضرب أعناق قوم في تلك الساعة، فقال يمدحه:

وعلى عَدُوِّك يا ابنَ عَمِّ محمدٍ   رَصَدانِ ضَوْءُ الصبحِ والإظْلامُ

فإذا تنبَّه رُعْتَه وإذا غَفَا   سَلَّتْ عليه سيوفَـك الأحْـلامُ

(1) ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، 1/ 74 – 75.

(2) الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 751.

فاهتز الرشيد وارتاح وقال:هـذا والله المدح الجيد والمعنى الصحيح، لا ما عللت به مسامعي هـذا اليوم – وكان أنشده في ذلك اليوم جماعة من الشعراء – ثم أنشده قصيدته التي على الجيم، وهي قوله:

ملك أبوه وأمه من نبعة منها سراج الأمة الوهاج

شربًا بمكة في ذرا بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج

فلما سمع هـذين البيتين كاد يطير ارتياحًا ثم قال: يا أشجع، لقد دخلت إليَّ وأنت أثقل الناس على قلبي، وإنك لتخرج من عندي وأنت أحب الناس إليَّ. فقال له: فما الذي أكسبتني هـذه المنزلة؟ قال له: الغنى، فاسأل ما بدا لك. قال: ألف ألف درهم. قال الرشيد: ادفعوا إليه[1].

علاقة الرشيد بأبي نواس

ويجدر بنا ونحن نتناول الحديث عن الرشيد وعلاقته بالشعر والشعراء، أن نلقي الضوء حول علاقة الرشيد بالشاعر أبي نواس، فممَّا هـو معروف عن هـارون الرشيد حسن صلته بالشعراء وحرصه على مجالستهم، والاستماع إليهم، ولكنه رحمه الله يأبى أن يسمع منهم فاحش القول ورديء الشعر، ويرفض أن يكون في مجلسه من لا يرضي سيرته منهم، فقد أكثر الرشيد من تعزير أبي نواس الشاعر، وحبسه مرات عديدة، حتى لما ولي الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد وجد أبا نواس مسجونًا في حبس الرشيد مع الزنادقة، فأحضره وأطلقه وأطلق له مالًا شرط أن يتوب من آثامه.

ولذلك فإنه من المستنكر أن تذكر بعض كتب الأدب غير الموثوق بها كالأغاني وألف ليلة وليلة، عن صلة الرشيد بأبي نواس على النحو المعروض فيه من المجون والخلاعة، فإن هـذا من الافتراء والأكاذيب على الرشيد[2]، فلم يذكر

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص25 – 251. ابن عساكر: تاريخ دمشق، 9/ 107 – 108.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 104. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص164.

الطبري وابن كثير وغيرهما من كبار المؤرخين والعلماء في تراجمهم للرشيد أو حياة أبي نواس من صلة بهذا النوع من اللهو والخلاعة، فكل ذلك من قبيل الكذب والافتراء، على أن هـذه الصلة الكبيرة بين الرشيد وأبي نواس كان لها حدود لا يتعداها الأخير منهما، قال الذهبي: "ولأبي نواس أخبار وأشعار رائقة في الغزل والخمور، وحظوة في أيام الرشيد والأمين"[1].

وجاء في مقدمة مختار الأغاني لابن منظور (ت 711هـ) الجزء الرابع تحت عنوان (كلمة حول أخبار أبي نواس)، ما يلي: "قسم من تاريخنا مصدره قليلو العلم ورقيقو الدين، الذين يطلقون فيضًا من الأكاذيب، ويختلقون ركامًا من الافتراءات،.. ويمر الزمن فيختفي القائل، وتنطمس المعالم، وتغيب القيم، فتختلط الأكاذيب والحقائق، وتتشابك حتى ليعسر على أكثر الناس أن يميز الرغوة من الصريح»، ويكفي هـذا للرد على الأصفهاني.

وقد اشتهر أبو نواس بالمجون حتى صار المجون علمًا عليه، وكأنما اختص به وحده بين أترابه، فإذا عثر على خبر في المجون ألصق به، وإذا اخترع أحد الماجنين حادثة، عزاها إليه حتى أنه ليترك من وقع المجون منه، لينسب إلى أبي نواس.

ومما يؤكد على النحل والوضع ورواية أخبار عن أشخاص - لا سيما هـارون الرشيد - ألصقت بهم إلصاقًا، أن شعرًا لأبي نواس افتراه أو بعضه قد نسب في الخبر لغيره، حيث نجد خبرًا لأبي نواس مع الرشيد، وهو في صفحة أخرى في الأغاني ليس لأبي نواس ولا مع الرشيد، وإنما يعزى هـناك لبشار بن برد مع المهدي.

وأخبار الرشيد مع أبي نواس في الأغاني ألصقت زورًا وبهتانًا وافتراءً على هـارون الرشيد، ومؤلف الأغاني مشكوك في أمانته، حتى إن ابن منظور في مختاراته جزم بأن أخبار الرشيد مع أبي نواس موضوعات لا تصح، وأن أبا نواس ما دخل على الرشيد قط. وهذا الرأي لا نأخذ به، فقد دخل أبو نواس على الرشيد

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 280.

كما يدخل غيره من الشعراء، مع التزام تام بحدود الشريعة، والأدب الكامل(1).

وأخبار مدح أبي نواس للرشيد كثيرة في كتب الأدب والتاريخ. وكان من مديح أبي نواس لهارون الرشيد، ما ذكره إسحاق الموصلي قال: قال أبو العتاهية لأبي نواس: البيت الذي مدحت به الرشيد لوددت أني كنت سبقتك به إليه:

قَدْ كنتُ خفتُك ثُمّ آمَنَنِي ... مِنْ أنْ أَخَافَكَ خَوْفُك اللَّهَ(2)

وكان هـارون الرشيد كثيرًا ما يتمثل بجميل أشعار أبي نواس، قال هـارون الرشيد: لو قيل للدنيا: صفي نفسك، وكانت ممّا تصف، لما عدت قول أبى نواس فيها:

ألا كلُّ حيٍّ هـالكُ، وابنُ هـالكٍ ... وذو نَسَب في الهالكين عريقِ

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيب تكشَّفَت ... لَهُ عَنْ عدوٍ في ثياب صديقِ(3)

فما نسب إلى أبي نواس معظمه منحول، فمن باب أولى صلته بالرشيد، الذي عرفنا مجالسه كيف كانت، وثقافته ما مستواها.

وأما عن اللغة، فقد بلغت اللغة العربية الذروة في عهد الرشيد، لنمو الثقافة والحضارة في عهده، وقد كان هـارون ظلها الظليل، والمغدق على العلماء والشعراء والموسيقيين، وقد أخذت علوم العربية في عهده نهضة جديدة اقترنت بأسماء الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد والفراء والكسائي، وهؤلاء جميعًا اتخذوا لغة البدو هـي المثل الأعلى والنموذج الرفيع، وكانوا دائمًا يقاومون لغة العامة في لحنهم، حتى أنكروا على الفراء أنه لحن بحضرة الرشيد، وأنه اعتذر عن ذلك بأن اللحن عند سكان المدن لازم لهم كالإعراب عند أهل البادية، وكان محببًا إليه أن يجالس النحاة ويستمع إلى جدلهم، وكان يقدر سلامة اللغة حق قدرها، ويدقق

(1) شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص204 – 206. بتصرف.

(2) السيوطي: تاريخ الخلفاء، 1/ 2170 218. وقيل: قيلت هذه الأبيات للفضل بن الربيع، انظر الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 525.

(3) ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، 2/ 805. ابن عبد ربه: العقد الفريد، 3/ 123.

فيما لا يفهمه[1].

من ذلك، قال الأصمعي: «دخلت على هـارون - ومجلسه حافل - فقال: يا أصمعي، ما أغفلك عنا، وأجفاك لحضرتنا! قلت: يا أمير المؤمنين، ما ألاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك، فأمرني بالجلوس، فجلست، وسكت. فلما خرج الناس قال له: ما معنى: ما لاقتني أرض؟ قال: ما استقرت بي أرض، كما يقال: فلان لا يليق شيئًا أي: لا يستقر معه شيء، وقال له الرشيد: هـذا حسن، ولكن لا ينبغي أن تكلمني بين يدي الناس إلا بما أفهمه، فإذا خلوت فعلّمني، فإنه إما أن أسكت فيعلم الناس أني لا أفهم، وإما أن أجيب بغير صواب، فيعلم الناس أني لم أفهم. قال الأصمعي: فعلّمني أكثر مما علمته»[2].

وقد كان الرشيد دقيق الفهم للغة العربية ذا فصاحة وعلم وبصر بها، ومحبًّا إليه أن يعقد المناظرات بين العلماء، ويسمع كلامهم، اجتمع عنده سيبويه والكسائي، وتناظرا بحضرته في المسألة النحوية الشهيرة، المعروفة بالمسألة الزنبورية، وبحضرته أيضًا تناظر الكسائي مع المفضل الضبي والأصمعي وأبي محمد اليزيدى وأبي يوسف القاضي[3].

وقد حضر أهل اللغة عند الرشيد ذات يوم، وفيهم أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، والكسائي يذكر النحو، فجعل أبو يوسف يذمُّ النحو ويقول: وما النحو؟، فقال له الكسائي وأراد أن يعلمه فضل النحو: أسالك عن مسألة في الفقه، قال: سل، قال: ما تقول في غلام لك قتل فاتهمت به رجلين فسألتهما عن أمره، فقال أحدهما: أنا قاتل غلامِك، وقال الآخر: أنا قاتل غلامَك، أيهما القاتل عندك؟ قال أبو يوسف: جميعًا، فقال له هـارون الرشيد: أخطأت - وكان له علم بالعربية - فاستحيا وقال: كيف ذلك؟

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 177. أحمد أمين، هارون الرشيد، ص109.

(2) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 73/ 3 - 9.

(3) الزجاجي: مجالس العلماء، ص9 - 10، ص30 - 36، ص195 - 196، ص257 - 261.

قال: الذي يؤخذ بقتل الغلام هـو الذي قال أنا قاتل غلامِك بالإضافة لأنه فعل ماض، وأما الذي قال أنا قاتل غلامَك بالنصب فلا يؤخذ لأنه مستقبل لم يكن بعد، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: 23]، فلولا أنَّ التنوين مستقبل ما جاز فيه غدا، فكان أبو يوسف بعد ذلك يمدح العربية والنحو[1].

وقيل: دخلت امرأة على هـارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين: أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت، فقال لها: من تكونين أيتها المرأة. فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم.

فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله، ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه، فقال: أتدرون ما قالت هـذه المرأة، فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرًا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها: أقر الله عينك، أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها: وفرَّحك بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 44]، وأما قولها: وأتم الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تمّ أمر بدا نقصه ... ترقّب زوالًا إذا قيل: تم

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: 15]، فتعجبوا من ذلك[2].

وكما اعتنى المهديِّ بتربية الرشيد فصار إلى ما نرى من العلم في الفقه والحديث واللغة والأدب والشعر، فضلًا عن مهارات القيادة والسياسة، فكذلك اعتنى الرشيد بأولاده، وخاصة الأمين والمأمون، فجاء لهم بكبار المؤدبين والعلماء، وكان أشهرهم الكسائي، جعله الرشيد مؤدبًا للأمين، ثم لما اتصل أبو

(1) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، 5/ 203. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 4/ 1741.
(2) أبو الفتح الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف، ص53.

محمد اليزيدي بالرشيد - وكان ثقة، وهو أحد القراء الفصحاء العالمين بلغات العرب والنحو، وكان صدوقًا - فجعل ولده المأمون في حجره فكان يؤدبه، وكان اليزيدي يجلس في أيام الرشيد مع الكسائي في مجلس واحد ويقرئان الناس بقراءات القرآن، فأما الأمين فإن الرشيد أمر الكسائي أن يأخذ عليه بحرف حمزة، وأما المأمون فإن الرشيد أمر أبا محمد أن يأخذ عليه بحرف أبي عمرو بن العلاء[1].

وذكر عن الأصمعي أنه قال: دخلت على الرشيد وكنت قد غبت عنه بالبصرة حَولًا، فسلمت عليه بالخلافة فأومأ إلى بالجلوس قريبًا منه فجلست قليلًا ثم نهضت، فأومأ إلي أن اجلس فجلست، حتى خف الناس ثم قال لي: يا أصمعي ألا تحب أن ترى محمدًا وعبد الله بنيَّ؟

قلت: بلى يا أمير المؤمنين إني لأحب ذلك، وما أردت القصد إلا إليهما لأسلم عليهما، فقال: يكفي ذلك ثم قال: عليَّ بمحمد وعبد الله، فانطلق الرسول إليهما وقال أجيبا أمير المؤمنين فأقبلا كأنهما قمرا أفق، قد قاربا خطاهما ورميا ببصرهما الأرض، حتى وقفا على أبيهما، فسلما عليه بالخلافة، فأومأ إليهما بالجلوس، فجلس محمد عن يمينه وعبد الله عن يساره، ثم أمرني بمطارحتهما الأدب، فكنت لا ألقي عليهما شيئًا من فنون الأدب إلا أجابا فيه وأصابا، فقال: كيف ترى أدبهما؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما رأيت مثلهما في ذكائهما وجودة فهمهما وذهنهما، فأطال الله تعالى بقاءهما، ورزق الأمة من رأفتهما ومعطفتهما فضمهما إلى صدره وسبقته عبرته فبكى حتى تحدرت دموعه على لحيته، ثم أذن لهما في القيام فنهضا حتى خرجا[2].

وكان من مؤدبي الأمين والمأمون علي بن المبارك الأحمر (ت: 194هـ، وقيل 207هـ)، وهو شيخ العربية، وتلميذ الكِسائي، وصيَّره الكسائي يعلم أولاد

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3/ 295، 6/ 183 - 184.

(2) أبو حنيفة الدينوري:الأخبار الطوال، ص387 - 388. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 289 - 290. ورواية المسعودي عن الكسائي وليس الأصمعي.

الرشيد عوضًا عن نفسه[1]. ومنهم كذلك خلف الأحمر معلم الأصمعي ومعلم أهل البصرة (ت: 180هـ)، بعث إليه الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصَيَّرَ يدك عليه مبسوطَة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أَقْرِئه القرآن، وعرِّفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام وبَدْئِه، وامْنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هـاشم إذا دخلوا عليه، ورَفْع مجالس القوَّاد إذا حضروا مجلسه، ولا تَمُرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مُغْتَنِم فائدة تفيده إياها، من غير أن تُحْزِنه، فتميت ذهنه، ولا تُمْعِن في مسامحته، فيستحلِيَ الفراغ ويأْلَفه، وقَوِّمْه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أبَاهُما فعليك بالشدة والغِلْظَة»[2].

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1171.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 3/ 291. ابن خلدون، المقدمة، 3/ 1119 – 1120.

سادسًا: الموسيقى في عهد هارون الرشيد

عرف العربي الترنم بالشعر، ولم يكن يدري أن هـذا اللون من ألوان الموسيقى صناعة تخضع لقانون معين، فاستمر هـكذا يغني ويشرب الخمر، ويتعلق بالحب، ويكلف بالصيد والميسر حتى استطاعت القيان التي استقدمت من بلاد العجم والروم بآلاتهن الموسيقية الفارسية والرومية أن يؤثرن في الموسيقى العربية تأثيرًا كبيرًا.

وقد عرف العرب في الجاهلية وصدر الإسلام من الآلات الوترية (المزهر) وهو عود ذو وجه من الرق (والعود) ذا الوجه الخشبي (والجنك) أو الصنج (الهارب) (والمعزف) (والموتر)، ومن آلات النفخ المزمار، والقصبة أو القُصَّابة، والشبَّابة، والصُّور، والناي. ومن آلات النقر: الطبل، والدف، والقضيب - لبيان الميزان أو الإيقاع - والصنوج والجلاجل، والمربع والمجنب!!

وأحسب أن عصر ابتداء النهضة الحق ابتدأ في خلافة علي رضي الله عنه. ولعل حبه للشعر وهو لون من ألوان (الفن) أكبر حافز. على أن هـذه النهضة لم تؤت ثمرها اليانع إلا في الدولة الأموية عندما اتسعت الفتوحات شرقًا وغربًا. وقد ابتدئ في وضع الألحان العربية في هـذا العصر على إيقاعات متعددة، وورد في غنائه ذكر إيقاعات (الثقيل) الأول و(الثقيل) الثاني، وخفيف الثقيل، والهزج، والرمل، وقد بلغ من اهتمام الأمراء والحكام بالموسيقى أن الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه كان موسيقيًا وملحنًا. وقد اشترى يزيد بن عبد الملك (حبابة) المغنية بأربعة آلاف دينار مع أنها كانت دميمة متهدمة، وكان الوليد بن يزيد عالمًا بصناعة الألحان عازفًا بالعود موقعًا بالطبل والدف. وفي العصر الأموي ابتدأت حركة التأليف الموسيقي فوضع يونس الكاتب (كتاب النغم) و(كيان القيان).

أما في العصر العباسي ذلك العصر الذهبي للموسيقى والأدب والشعر فقد سمت فيه الموسيقى سموًا عظيمًا، وارتفعت إلى ذروة المجد، وزادت مقاماتها وطرائق إيقاعها حتى تعددت في اللحن الواحد وكثرت الآلات وتنوعت وكثر استعمالها، وأصبح العربي يفخر بأنه موسيقي حتى أن أبناء النبلاء انخرطوا في سلكها، فكان منهم ابن جامع القرشي. بل زاد اهتمامهم إلى حد الاعتراف كإبراهيم بن المهدي أخو هـارون الرشيد[1]!

وقد دخلت الموسيقى مع سائر الفنون والآداب عصرها الذهبي في عهد هـارون الرشيد، الذي أصبح اسمه يقترن بها، في الفكر العربي والعالمي دون استثناء، بالأمجاد العربية في الفنون والآداب والتي صورت أحيانًا كالأساطير، حتى كأنك تقرأ كتاب الأغاني يخيل إليك أنه لم يكن في عصر الرشيد إلا الغناء والمغنيون والمغنيات، وهذا ليس عجبًا؛ لأن أبا الفرج الأصفهاني مزج في كتابه الأغاني بين الموسيقى والأدب، فمن خلال الموسيقى جمع الأصوات المائة التي اختارها المغنون للرشيد، والأصوات بلغة عصرنا هـي الألحان، ومن خلال الأدب حشد أبو الفرج في كتابه استطرادًا من النص الشعري الملحن اسم مغنيه وقائله وأخباره وأشعاره وبيئته وثقافته وصلاته بالناس وصورة عصره، ووصف مجتمعه إلى غير ذلك.

فقد أمر هـارون الرشيد إسحاق الموصلي، وإسماعيل بن جامع، وفليح ابن أبي العوراء، أن يختاروا له من الألحان العربية مائة صوت فصنعوا. والواقع أن الرشيد حين أمر المغنين بأن يختاروا له مائة صوت، أمرهم بأن يختاروا عشرة منها فاختاروها، ثم أمرهم أن يختاروا أفضل ثلاثة منها فاختاروها. ولكن أبا الفرج في "أغانيه" يستفتح عمله بذكر الأصوات الثلاثة، ثم لا يلبث أن ينطلق منها صوتًا بعد صوت حتى يتم المائة إحصاءً، أو بعبارة أخرى حتى يتمها تسعة وتسعين، وهي

(1) محمد السيد المويحلي: الموسيقى في الإسلام، مجلة الرسالة، العدد 297، بتاريخ: 13 مارس 1939م.

عدد الأصوات الحقيقية التي سجلها[1].

ولعل مما يدل على قيمة الغناء أن الجارية إذا كانت مغنية قُوِّمت تقويمًا ممتازًا؛ فهم يذكرون أن جارية عُرضت بثلاثمائة دينار، فلما علمها إبراهيم بن المهدي الغناء عُرض في ثمنها ثلاثة آلاف دينار، وقد بيعت عريب المغنية بخمسة آلاف دينار، وعلم دحمان جارية اشتراها بمائتي دينار فباعها بعشرة آلاف دينار، واشترى الرشيد من إبراهيم الموصلي جارية بستة وثلاثين ألف دينار، وكان في داره ثمانون جارية يعلمهن فن الغناء، وأغدق الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة العطايا على هـؤلاء المغنين وأسرفوا في ذلك إسرافًا شديدًا، ويكفي أن نذكر ما يقال من أن إبراهيم الموصلي صار إليه أربعة وعشرون ألف ألف درهم، سوى أرزاقه الجارية وهي عشرة آلاف درهم في كل شهر[2].

ومن أشهر الموسيقيين - في عصر هـارون الرشيد - إبراهيم الموصلي، وإسحاق الموصلي، وفليح بن أبي العوراء، ويحيى المكي، وحكم الوادي، وزلزل، ومخارق، وبذل المغنية، وابن جامع، وعلويَّة، وزرياب الذي وفد إلى الأندلس 206هـ.

وقد بلغ من حب هـارون للموسيقى أن شجع تلك الموهبة في أخيهِ لأبيهِ، الشاب إبراهيم بن المهدي؛ لأن إبراهيم كان له صوت غاية في القوة يبلغ مداه ثمان طبقات. وإن الزمن ليتضاءل في خيالنا وتضيق دائرته إلى أقصى حد عندما نسمع أنه قام بحركة ابتداعية في الموسيقى العربية مضادة للنزعة الاتباعية نزعة إسحاق بن إبراهيم الموصلي. وكان المأمون يقول عنه: "أنه لم يغنِّ لي قط إلا شعرت بأني قد اتسع ملكي"[3].

---

(1) مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشرة آب/ أغسطس 2004م، ص265 - 266. بتصرف.

(2) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص61.

(3) ول ديورانت: قصة الحضارة، 13/ 259.

وقد فاق هـارون الرشيد الخلفاء العباسيين في ولوعه بالغناء والموسيقى، حيث جعل المغنيين مراتب وطبقات، فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع، وزلزل منصور الضارب في الطبقة الأولى وكان زلزل يضرب، ويغني هـذان عليه. والطبقة الثانية: سليم بن سلام أبو عبيد الله الكوفي، وعمرو الغزال ومن أشبههما. والطبقة الثالثة: أصحاب المعازف والونج والطنابير.

وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم. وكان إذا وصل واحدًا من الطبقة الأولى بالمال الكثير الخطير، جعل لصاحبه اللذين معه في الطبقة، نصيبًا منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضًا نصيبًا. وإذا وصل أحدًا من الطبقتين الأخريين بصلة، لم يقبل واحد من الطبقة العالية منه درهمًا، ولا يجتريء أن يعرض ذلك عليه. قال: فسأل الرشيد يومًا برصوما الزامر، فقال له: يا إسحاق! ما تقول في ابن جامع؟ فحرك رأسه، وقال: خمر قطربل، يعقل الرجل، ويذهب العقل. قال: فما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه خوخ وكمثرى وتفاح وشوك وخرنوب. قال: فما تقول في سليم بن سلام؟ فقال: ما أحسن خضابه! قال: فما تقول في عمرو الغزال؟ قال: ما أحسن بنانه! قال: وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجس؛ فكان إذا جس العود، فلو سمعه الأحنف ومن تحالم في دهره كله، لم يملك نفسه حتى يطرب[1].

وكان هـارون الرشيد يجزل العطاء للمغنيين والموسيقيين، فقد غنى رجل بحضرة الرشيد أبيات، فاستخف هـارون الرشيد الطرب، فأمر له بمائة ألف درهم. ودخل عليه إسحاق الموصلي مرة فأنشده أبيات منها:

عطائي عطاءُ المُكثرينَ تكرُّمًا   ومالي كما قد تعلمين قليل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى   ورأيُ أمير المؤمنين جميلُ

(1) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص35 – 37.

فقال الرشيد: لا كيف إن شاء اللَّه. يا فَضْلُ، أَعْطِهِ مائة ألفَ دِرْهَم. لله دَرُّ أبياتٍ تأتينا بِهَا، ما أجودَ أُصولها، وأحسن فُصولها. فقال الموصلي: يا أميرَ المؤمنين كلامُك أحسن من شِعْرِي. فقال: يا فضل أعطه مائة ألف أخرى[1].

إشكاليات وأجوبة

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ بعضًا من الإشكاليات المتعلقة بهذا الباب، والتي منها، كيف كان الغناء في زمن هـارون الرشيد؟ وكيف تستقيم شخصية الخليفة العابد الزاهد مع الخمر والمجون والخلاعة والرقص؟

وهذا الإشكال أجاب عنه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، وقطع فيه بعد حديثه عن زَلْزَلْ مغني الرشيد، بقوله: "وفيها (سنة 174هـ) توفي منصور مولى عيسى بن جعفر بن منصور، وكان منصورهـذا يلقب بزَلْزَلْ، وكان مغنيًا يضرب بغنائه وضربه بالعود المثل، وكان الغناء يوم ذاك غير الموسيقى الآن، وإنما كانت زخمات عددية وأصوات مركبة في أنغام معروفة، وهو نوع من إنشاد زماننا هـذا على الضروب لإنشاد المداح والوعاظ. وقد أوضحنا ذلك في غير هـذا المحل في مصنف على حدته وبيَّنا فيه الفرق بينه وبين الموسيقى"[2].

وأما بخصوص سماع الرشيد الأغاني من مغنيه الموصلي وغيره، فلم يكن بفحش الكلام ولا سيِّء العبارة، فقد كانوا يتمتعون بكريم الأخلاق وجميل الصفات، قال ابن خلكان عن إسحاق الموصلي: "كتب الحديث عن سفيان بن عينية ومالك بن أنس وهشيم بن بشير وأبي معاوية الضرير، وأخذ الأدب عن الأصمعي وأبي عبيدة، وبرع في علم الغناء فغلب عليه ونسب إليه. وكان الخلفاء يكرمونه ويقربونه، وكان المأمون يقول: لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس واشتهر بالغناء لوليته القضاء، فإنه أولى وأعف وأصدق وأكثر دينًا وأمانة من هـؤلاء

(1) الذهبي: تاريخ الإسلام، 5/ 791.

(2) . ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 2/ 78.

القضاة، ولكنه اشتهر بالغناء وغلب على جميع علومه، مع أنه أصغرها عنده، ولم يكن له فيه نظير"[1]. فلم يكن الموصلي وزملاؤه ليصدر عنهم أمام الخليفة ما يخالف العربية والشريعة والعرف، بل كانوا يصحبون الرشيد في حجاته وصلواته.

وأما عن شرب الخمر فقد قال ابن خلدون رحمه الله: "وأما ما تموِّه له الحكاية من معاقرة الرشيد الخمر واقتران سكره بسكر النّدمان فحاشا الله ما علمنا عليه من سوء، وأين هـذا من حال الرّشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء، ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السّماك والعمري، ومكاتبته سفيان الثوري، وبكائه من مواعظهم، ودعائه بمكة في طوافه، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصّلوات وشهود الصّبح لأوّل وقتها".

وبعد أن ساق ابن خلدون قصة الرشيد مع طبيبه جبرائيل بن بختيشوع الذي وضع الخمر له يومًا في الطعام، ففطن له الرشيد، ووبَّخه، يقول جازمًا بعفة الرشيد: "وتبين من ذلك أن حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته ولقد ثبت عنه أنه عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتّى تاب وأقلع، وإمَّا كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق (يقصد به مذهب أبي حنيفة) وفتاويهم فيها معروفة، وأما الخمر الصِّرف فلا سبيل إلى اتّهامه بها ولا تقليد الأخبار الواهية فيها[2]، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرَّما من أكبر الكبائر عند أهل الملة، ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنحاة من ارتكاب السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة وسذاجة الدين التي لم يفارقوها بعد، فما ظنُّك بما يخرج عن الإباحة إلى الحظر وعن الحلَّة إلى الحرمة"[3]. وهو عين ما يؤكده الجاحظ بنفي معاقرة الرشيد

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/ 201 – 205. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 11/ 118 – 121.

(2) انظر الفرق بين الخمر ونبيذ التمر في: السيد سابق: فقه السنة، 2/ 376 – 378.

(3) ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، 1/ 304 – 306.

الخمر، بقوله: "ومن خبرك أنه رآه قط وهو يشرب إلا الماء، فكذبه، وكان لا يحضر شربه إلا خاص جواريه"[1]. وما صرَّح به ابن حزم بقوله: "أراه كان يشرب النبيذ المختلف فيه، لا الخمر المتفق على حرمتها"[2].

وأما عن شيوع حفلات الرقص والمجون والخلاعة، فإن سيرة الرشيد وطبيعة العصر، وحاشية الخليفة من كبار علماء الأمة، أمثال: القاضي عياض وابن المبارك والشافعي والقاضي أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأبو معاوية الضرير وابن السماك الواعظ، تأبى ذلك كله وتكذبه.

(1) الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، ص35.

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 9/ 290.

سابعًا: اهتمام هارون الرشيد بعلوم الحياة

لم يكن اهتمام هـارون الرشيد منصبًا كله على العلوم الشرعية من علوم التفسير والحديث والفقه واللغة، بل انصب اهتمامه كذلك على علوم الحياة أو ما تعرف بالعلوم التجريبية، وأولى لها اهتمامًا عظيمًا، حتى نبغ في عهده علماء أضاءوا الدنيا كلها بعلمهم وابتكاراتهم وإسهاماتهم العلمية الفريدة في تاريخ البشرية، وخاصة في علوم الطب والكيمياء والهندسة الميكانيكية أو علم الإلكترونيات.

لقد بلغ التقدم في علوم الحياة في عصر الرشيد ذروةً سامقةً، في حين كان الغرب يعيش أشدَّ عصوره تخلُّفًا، في حين برز عدد كبير من علماء الحياة في عهد هـارون الرشيد، بفضل حَثِّه على العلم، وتقديره للعلماء أيًا كانت دياناتهم، وإنزالهم منازلهم، وتشجيع المتفوقين من الناشئة.

ضمت دولة الرشيد أعلام العلم والاختراع والحضارة، الذين ما زالت تفخر بهم البشرية، فقد عاش في رعاية دولته جابر بن حيان، مبتكر علم الكيمياء (103هـ – 200هـ)، والخوارزمي الرياضي الشهير، مبتكر علم الجبر وكان بارزًا في علوم الفلك والجغرافيا، وبرز في زمن خلافة المأمون (عاش بين سنتي 164هـ – 232هـ)، والكندي فيلسوف العرب والإسلام، كان على علاقة وطيدة بالمأمون والمعتصم والمتوكل (185هـ – 256هـ)، وأولاد موسى بن شاكر (محمد وأحمد والحسن) وهم أول فريق علمي في التاريخ، وكانوا على صلة وثيقة بالمأمون، وكانوا مبرزين في العلوم الرياضية والفلكية والميكانيكية والهندسية والجغرافية، توفي أكبرهم أبو عبد الله محمد سنة 259هـ، وغيرهم من العلماء الكثير، ممن كان لإسهاماتهم عظيم الأثر في الحضارات العالمية، فمنهم من عاش في كنف الرشيد،

ومنهم من هـيَّأ له الرشيد كنوز العلم والمعرفة في بيت الحكمة، وعلى كلٍّ فللرشيد على هـؤلاء جميعًا الفضل والمنَّة.

وقد بلغ الطب في عهد هـارون الرشيد مبلغًا عظيمًا وتقدمًا كبيرًا لم يُرَ مثله من قبل، ولم يدركه إلا ما كان في عهد ولده المأمون، حيث اجتمع له كبار الأطباء في مشرق الأرض ومغربها، من هـؤلاء: بختيشوع وولده جبرائيل بن بختيشوع، طبيب الرشيد الخاص، الذي تذكر كتب الطب أنه جمع ثروة عظيمة من الاشتغال بالطب، ومنهم ماسويه وولده يوحنا بن ماسويه، والطبيب الهندي الشهير منكه.

ولاعتناء الرشيد بأمر الطب والأطباء فقد أمر طبيبه جبريل بن بختيشوع أن ينشئ بيمارستانًا في بغداد، فأنشأه جبريل ورشّح له ماسويه الخوزي، من أطباء جنديسابور، وتولى جبريل رعايته[1]. وكان للبرامكة وزراء الرشيد عناية خاصة بالطب كذلك، وكان لهم بيمارستانات في بغداد وغيرها، وكان ابن دهن الهندي رئيسًا لبيمارستان البرامكة في بغداد[2].

ومما أُثِرَ عن الرشيد رحمه الله أنه كان يجمع الأطباء، ويستشيرهم في أمور عديدة، فمن ذلك ما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد: "جمع الرشيد من الأطباء أربعة: عراقيًا، ورروميًا، وهنديًا، ويونانيًا .فقال: ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معه، فقال العراقي: الدواء الذي لا داء معه حب الرشاد الأبيض، وقال الهندي: الإهليلج الأسود، وقال الرومي: الماء الحار، وقال اليوناني - وكان أطبهم - حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة، والماء الحار يرخي المعدة، والإهليلج الأسود يرق المعدة، لكن الدواء الذي لا داء معه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه، قال: صدقت"[3].

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/ 245 - 246.

(2) ابن النديم: الفهرست، 1/ 303 - 304. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص116.

(3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 8/ 19 - 20. راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم، ص 371 - 372. بتصرف.

ولعلنا نبرز مدى اهتمام الرشيد بعلوم الحياة وعنايته بهم، من خلال ذكر أشهر العلماء التجريبيين في عصره وأشهر أعمالهم، وذلك على الاختصار، كما نبين أشهر الاكتشافات العلمية التي أذهلت العالم أجمع.

1- جابر بن حيان

هو جابر بن حيان الأزدي (103 – 200هـ/ 721 – 815م)، مؤسس علم الكيمياء التجريبي، وأول من استخلص معلوماته الكيميائية من خلال التجارب والاستقراء والاستنتاج العلمي، وكان غزير الإنتاج والاكتشافات، حتى إن الكيمياء اقترنت باسمه فقالوا: "كيمياء جابر"، و"الكيمياء لجابر"، وكذلك: "صنعة جابر". كما أُطلق عليه أيضًا "شيخ الكيميائيين" و"أبو الكيمياء".

وقد ألف كتبًا كثيرة تُرجم الكثير منها إلى اللاتينيَّة، وظلَّت المرجع الأوفى للكيمياء زُهاء ألف عام، وقد اشتملت على كثير من المركَّبات الكيميائية التي لم تكن معروفة من قبل، وهو الأمر الذي جعل مؤلَّفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثال: كوب، وبرثولية، وكراوس، وهولميارد الذي أنصفه ووضعه في القمَّة، وبدَّد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون، وكذا سارتون الذي أرَّخ به لحِقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلاميَّة[1]. وقد أشاد الكيميائي الفرنسي برتلو بدور جابر وإسهاماته بقوله: "لجابر في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق"[2].

إنجازاته

هو أول من حضَّر حمض الكبريتيك بالتقطير من الشَّب، وحضَّر أكسيد الزئبق، وحمض النتريك، أي ماء الفضة، وكان يسميه الماء المحلل أو ماء النار، وحضر حمض الكلوريدريك المسمَّى بروح الملح، وهو أول من اكتشف الصودا الكاوية،

(1) عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، ص106. راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم، ص522 – 527. بتصرف.

(2) فاضل أحمد الطائي: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، علم الكيمياء عند العرب، 1/ 275.

وأول من استخرج نترات الفضة وقد سمّاها حجر جهنم، وثاني كلوريد الزئبق (السليماني)، وحمض النتروهيدروكلوريك (الماء الملكي)، وسُمِّي كذلك لأنه يذيب الذهب ملك المعادن.

وهو أول من لاحظ رواسب كلوريد الفضة عند إضافة ملح الطعام إلى نترات الفضة، كما استخدم الشب في تثبيت الأصباغ في الأقمشة، وحضَّر بعض المواد التي تمنع الثياب من البلل، وهذه المواد هـي أملاح الألومنيوم المشتقة من الأحماض العضوية ذات الأجزاء الهيدروكربونية، ومن استنتاجاته أن اللهب يُكسِب النحاس اللون الأزرق، بينما يكسب النحاس اللهب لونًا أخضر. وهو أول من فصل الذهب عن الفضة بالحل بوساطة الحمض، وشرح بالتفصيل عملية تحضير الزرنيخ، وتنقية المعادن، وصبغ الأقمشة. ويُعزَى إليه أنه أولُ من استعمل الميزان الحساس والأوزان متناهية الدقة في تجاربه المخبرية[1].

ولجابر بن حيان مجموعة من الكتب، منها: (الخواص الكبير) (أسرار الكيمياء) و(علم الهيئة) و(أصول الكيمياء) و(المكتسب). ويذكر أن جابر بن حيان على علاقة قوية بالبرامكة وخاصة جعفر بن يحيى البرمكي، مما وفر له البيئة العلمية المناسبة التي أنتجت هـذه الإبداعات العلمية الفريدة[2].

2 - ساعة الرشيد.. ابتكار علمي فريد

لقد أبدع علماء الحضارة الإسلامية عددًا من الاختراعات الميكانيكية الصعبة التي لم يسبق لها مثيل، وقد كان للجو العلمي الذي أطفاه هـارون الرشيد على دولته وتشجيعه للعلم والتقدم أثر كبير في إعمال العقول لتبدع في الابتكار، ومن هـذه الابتكارات العلمية الفريدة في عصر الرشيد ما ذكره سيديو في كتاب تاريخ العرب أن الخليفة العباسي هـارون الرشيد (170هـ / 193هـ) أرسل هـديةً

(1) راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم، ص 524 - 525. بتصرف.

(2) الزركلي: الأعلام، 2/ 103.

عجيبةً إلى صديقه شارلمان ملك الفرنجة (فرنسا)، «وكانت الهديةُ عبارةً عن ساعة ضخمة بارتفاع حائط الغرفة، تتحرَّك بواسطة قوَّة مائية، وعند تمام كل ساعة يسقط منها عددٌ مُعَيَّنٌ من الكرات المعدنية بعضها إثْرَ بعضٍ، بعددِ الساعات فوق قاعدة نحاسية ضخمة، فيُسْمَعُ لها رنين موسيقيٌّ، يُسمَع دويُّه في أنحاء القصر، وفي نفس الوقت يُفتح بابٌ من الأبواب الاثني عشر المؤدِّية إلى داخل الساعة، ويَخرج منها فارسٌ يدور حول الساعة، ثم يعود إلى حيث خرج، فإذا حانت الساعة الثانية عشرة يخرج من الأبواب اثنا عشر فارسًا مرةً واحدةً، ويدورون دورةً كاملةً ثم يعودون فيدخلون من الأبواب فتُغْلَقُ خلفهم».

وهذا هـو الوصف الذي جاء في المراجع الأجنبية والعربية عن تلك الساعة التي كانت تُعَدُّ وقتئذٍ أعجوبةَ الفنِّ، وأثارت دهشة المَلِكِ وحاشيته، ولكنَّ رهبان القصر اعتقدوا أنَّ في داخل الساعةِ شيطانًا يُحَرِّكها، فتربَّصُوا به ليلًا، وأحضروا البُلَط وانهالوا عليها تحطيمًا، إلاَّ أنهم لم يجدوا بداخلها شيئًا[1].

وهذه الساعة لم يرد فيها وصف في المراجع العربية والإسلامية، غير ما نقلته المراجع العربية عن الكتب اللاتينية، وقد استنتج غير واحد من هـؤلاء المؤرخين الغربيين على مدى الرقيّ الحضاري الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية في ذلك الوقت، يقول ول ديورانت: "وكان العرب على جانب كبير من المهرة الآلية الفنية، وشاهد ذلك أن الساعة المائية التي أهداها هـارون الرشيد إلى شارلمان قد صُنعت من الجلد والنحاس الأصفر المنقوش. وكانت تدل على الوقت بفرسان من المعدن يفتحون كل ساعة بابًا يسقط منه العدد المطلوب من الكرات على صنجة، ثم ينسحبون ويغلقون الباب"[2].

(1) راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، 2/ 614 – 615.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، 13/ 108.

3 - بختيشوع الطبيب وابنه جبرائيل بن بختيشوع

وَمعنى بختيشوع عبد الْمَسِيح لِأَن فِي اللُّغَة السريانية البخت العَبْد ويشوع عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام، وكان بختيشوع بن جورجيس يلْحق بِأَبِيهِ فِي مَعْرِفَته بصناعة الطِّبّ ومزاولته لأعمالها، وخدم هـارون الرشيد وتميز فِي أَيَّامه، وكان أول لقاء الرشيد به سنة 171هـ عندما مرض الرشيد بصداع شديد، فأشار عليه يحيى البرمكي ببختيشوع كبير أطباء جنديسابور، فلما مثّل بين يديه، جاء له الرشيد ببول حمار ليختبر ذكاءه وعلمه، وقال له: مَا ترى أَن نطعم صَاحب هـذَا المَاء؟!، فقال بختيشوع: شَعِيرًا جيدًا. فَضَحِك الرشيد ضحكًا شَدِيدًا، وَأمر فَخلع عَلَيْهِ خلعة حَسَنَة جليلة، ووهب لَهُ مَالًا وافرًا، وجعله رئيس الأطباء كلهم. ولبختيشوع من الكتب كناش مختصر، وكتاب التذكرة ألفه لولده جبرائيل.

وأما جبرائيل بن بختيشوع فكان مَشْهُورًا بِالْفَضْلِ جيد التَّصَرُّف فِي المداواة، عالي الهمة سعيد الْجد حظيًّا عِنْد الْخُلَفَاء رفيع الْمنزلَة عِنْدهم كثيري الإحسان إليه، وَحصل من جهتهم من الأموال مَا لم يحصله غَيره من الأطباء، وكان ذكيًّا فطنًا، وفي سنة 175هـ مرضت جارية للرشيد فلما قدم جبرائيل بين يدي الرشيد، قال له: مَا اسْمك ؟، قَالَ: جِبْرَائِيل، قَالَ لَهُ: أَي شَيْء تعرف من الطِّبّ ؟، فَقَالَ: أبرد الْحَار وأسخن الْبَارِد وأرطب الْيَابِس وأيبس الرطب الْخَارِج عَن الطَّبْع، فَضَحِك الرشيد، وَقَالَ هـذَا غَايَة مَا يحْتَاج إِلَيْهِ فِي صناعَة الطِّبّ. ولما برأت الجارية على يديه من علتها أمر له الرشيد بخمسمائة ألف درهم، وأحبه وَجعله رَئِيسًا على جَمِيع بعد أبيه.

وقد بلغ من شدة حب هـارون الرشيد لجبرائيل بن بختيشوع أنه كان يتمنى لو أسلم، فقد حج جبرائيل مع الرشيد مرة، فقال الرشيد له: يَا جِبْرَائِيل علمت مرتبتك عِنْدِي؟، قال: يَا سَيِّدي وَكَيف لَا أعلم. قال له: دَعَوْت لَك وَالله فِي الْموقف دُعَاء كثيرًا. ثمَّ الْتفت إِلَى بني هـاشم فَقَالَ: عَسى أنكرتم قولي لَهُ. فَقَالُوا يَا سيدنَا ذمِّي. فَقَالَ: نعم، وَلَكِن صَلَاح بدني وقوامه بِهِ، وَصَلَاح الْمُسلمين بِي. فصلاحهم

بصلاحه وبقائه. فَقَالُوا: صدقت يا أمير المؤمنين.

وكان لجبرائيل مكانة خاصة عند الرشيد، حَتَّى أَن الرشيد قال لأصحابه: "كل من كَانَت لَهُ إِلَيّ حَاجَة، فليخاطب بهَا جِبْرَائِيل؛ لِأَنِّي أفعل كل مَا يسألني فِيهِ ويطلبه مني"، فَكَانَ القواد يقصدونه فِي كل أُمُورهم. وقد حصل لجبرائيل من الأموال ما لم يجمعه غيره من الأطباء، وله من الكتب: المدخل إلى صناعة المنطق، كتاب في الباه، رسالة مختصرة فِي الطِّبّ، وكناشه[1].

4 - منكه الهندي

وهو من أطباء الهند المشهورين، يقول ابن أبي أصيبعة: "كان عالمًا بصناعة الطب، حسن المعالجة، لطيف التدبير، فيلسوف من جملة المشار إليهم في علوم الهند، متقنًا للغة الهند ولغة الفرس، وهو الذي نقل كتاب شاتاق الهندي في السموم من اللغة الهندية إلى الفارسي، وسافر من الهند إلى العراق في أيام هارون الرشيد، واجتمع به وداواه، وجدت في بعض الكتب أن منكة الهندي كان في جملة إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي، وكان ينقل من اللغة الهندية إلى الفارسية والعربية، ونقلت من كتاب أخبار الخلفاء والبرامكة أن الرشيد اعتل علة صعبة فعالجه الأطباء فلم يجد من علته إفاقة، فقال له أبو عمر الأعجمي: بالهند طبيب يقال له منكة، وهو أحد عبادهم وفلاسفتهم فلو بعث إليه أمير المؤمنين فلعل الله أن يهب له الشفاء على يده، قال: فوجه الرشيد من حمله ووصله بصلة تعينه على سفره، فقدم وعالج الرشيد فبرأ من علته بعلاجه، فأجرى عليه رزقًا واسعًا وأموالًا كافية"[2].

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/ 186 - 201. بتصرف.

(2) السابق: 1/ 375.

سابعًا: الترجمة في عهد هارون الرشيد

شهدت حركة الترجمة رواجًا كبيرًا في العصر العباسي الأول نتيجة لتشجيع الخلفاء وبذلهم الأموال الطائلة لذلك، وقد كانت همة هارون الرشيد مصروفة إلى ترجمة الكتب سواء كتب الفلاسفة من اليونان وغيرهم، أو كتب الأطباء المشهورين، أو غيرها من فروع العلم والمعرفة، ومن أجل ذلك عمد هارون الرشيد إلى بيت الحكمة وجعل فيه المترجمون والنساخ وأجرى عليهم الأرزاق.

وقد عهد الرشيد بترجمة الكتب من اليونانية إلى العربية، إلى العالم المسيحي النسطوري: يحيى (يوحنا) بن ماسويه. كما اشتملت (خزانة الحكمة) على بعض كتب التراث الفارسي، والتي عهد الرشيد بترجمتها من الفارسية إلى العربية إلى الفضل بن نوبخت. وقد عهد الرشيد إلى يوحنا بن ماسويه بترجمة الكتب التي وصلت إليه من مدونات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما. فقد عنى العلماء أكثر بترجمة الكتب أيام الرشيد، عما كان ذلك أيام المنصور والمهدي؛ وذلك لأن نزعة الرشيد كانت أقوى وزمنه أهدأ وماله أكثر، خصوصًا وقد توافد على بغداد كثير من العلماء العارفين باللغات من السريان والفرس والهنود والروم، وكان منهم من تعلم اللغة العربية؛ لأنها اللغة الرسمية للدولة، فحملهم على ترجمة الكتب، وقد توسعوا في الترجمة، وترجموا غيرها من فروع الفلسفة، إذ كان الطب والتنجيم يعدان فرعين من فروعها، بجانب المنطق وما وراء الطبيعة وغير ذلك.

وكان الرشيد في حروبه الكثيرة مع البيزنطيين، يفتح بلادًا ومدنًا تحتوي كتبًا يونانية ورومانية كثيرة، فلم يكن يحرقها أو يبددها، بل ينقلها إلى بغداد في عناية[1]، من ذلك أنه عثر أثناء حروبه في أنقرة وعمورية على كثير من الكتب، وحملها إلى

(1) أحمد أمين: هارون الرشيد، ص114.

بغداد، وأمر طبيبه يوحنا بن ماسويه بترجمتها إلى العربية، وقد علت منزلة يوحنا عند الرشيد فقرَّبه إليه حتى وضع جميع المدارس تحت مراقبته، وكان فاضلًا طبيبًا محترمًا عند الملوك خدم الرشيد والمأمون والواثق والمتوكل وعدا عن الكتب التي ترجمها، فقد كان له تآليف عظيمة منها كتاب البرهان وكتاب الحميات والكناش المعروف بالمشجر[1].

وكان لطبيب الرشيد بختيشوع وجبريل ولده جهودًا كبيرة ونقلوا كتبًا متعددة. وممن اشتهر بالنقل الحجاج بن مطر قام بترجمة كتاب إقليدس في الهندسة، وكانت ترجمته إلى العربية هـذه أول مرة، ثم ترجم فيما بعد ترجمة ثانية، وميزوا الأولى بأن أطلقوا عليها الترجمة الهارونية، نسبة إلى هـارون الرشيد، وتمييزًا له عن كتاب إقليدس الذي نقل في زمن المأمون ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني[2].

ولم يكن التشجيع على الترجمة مقتصرًا على جهود الخليفة الرشيد وحده، وإنما شاركه في ذلك عظماء الدولة وأمراؤها، ويأتي في مقدمتهم وزيره يحيى بن خالد البرمكي، الذي أمر بترجمة كتاب المجسطي، فكان أول من وعي بتفسيره وإخراجه إلى العربية، وفسره لَهُ جماعة فلم يتقنوه ولم يرضَ بذلك، فندب لتفسيره أبا حسان وسلمان صاحبا بيت الحكمة، فأتقناه واجتهدا فِي تصحيحه بعد أن أحضرا النقلة المجودين فاختبر نقلهم وأخذ بأفصحه وأوضحه، وقد قد قيل إن الحجاج بن مطر نقله أيضًا[3].

ومن المترجمين الكبار زمن الرشيد منكة الهندي الحكيم، من المشهورين من أطباء الهند، ومن جملة ما نقله منكة الهندي من اللغة الهندية إلى العربية كتاب سيسر، وعشر مقالات، ويجري مجرى الكناش نقله بأمر يحيى بن خالد البرمكي،

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/ 346. القفطي: أخبار الحكماء بأخيار الحكماء، 1/ 282 – 283.

(2) محمد كرد علي: الترجمة عند العرب، مجلة المقتبس، العدد 89 – 1 يونيه 1914م.

(3) القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء، 1/ 79.

وكتاب أسماء عقاقير الهند، فسره لإسحاق بن سليمان الهاشمي، ونقل كتاب شاناق الهندي في السموم، نقله من الهندي إلى الفارسي، ومنهم كذلك ابن دهن الهندي الذي كان إليه بيمارستان البرامكة نقل إلى العربي من اللسان الهندي[1].

وهكذا صارت الترجمة تتطور وتزدهر شيئًا فشيئًا في عهد الرشيد حتى غدت الترجمة سياسة أو (إستراتيجية) عامة للدولة العباسية، ولا ترتبط برغبة هـذا الخليفة أو ذاك الأمير، كما أنها لم تعُدْ تتعلق بميدان دون آخر، وإنما أصبحت تشمل معظم العلوم والمعارف التي ازدهرت في الحضارات القديمة[2].

(1) ابن النديم: الفهرست، 303 - 304. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 1/ 375. عبد الحي بن فخر الدين الحسني الطالبي: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، 1/ 57.

(2) جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص163. بيت الحكمة في بغداد .. رمز للحوار بين الحضارات، مجلة بيت العرب - تصدرها بعثة جامعة الدول العربية بجمهورية الصين الشعبية- العدد 47. لسنة 2004م.

ثامنًا: صناعة الورق في عهد هارون الرشيد

تضافرت عوامل عدة أدت إلى هـذه النهضة العلمية الكبيرة في عهد الرشيد رحمه الله، ويأتي في مقدمة هـذه العوامل انتشار صناعة الورق والوراقين. فقبل عصر الرشيد كان الرِّق هـو المستعمل في كتابة القرآن الكريم لطول بقائه أو لأنه موجود عندهم حينئذ، وبقى الناس على ذلك إلى أن ولي هـارون الرشيد الخلافة، وظاهر الحال أن العرب كانوا يكتبون في كل من الجلود والأوراق في عهد الدولة الأموية وصدر صالح من عهد الدولة العباسية، وأن الورق لم يستعمل بكثرة ظاهرة إلا منذ أشار الفضل بن يحيى البرمكي بصناعة الكاغد (الورق).

ويذكر القلقشندي أنه: "لما كثر الورق وفشا عمله بين الناس أمر ألّا يكتب الناس إلا في الكاغد؛ لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق فإنه متى محي منه فسد، وإن كشط ظهر كشطه. وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قرب وبعد، واستمرّ الناس على ذلك»[1].

ومع كل ما ذكرنا فإنه ليس لدينا ما يثبت أن هـارون الرشيد أمر بناء مصانع للورق، غير أن ول ديورانت في قصة الحضارة ذكر أنه تم افتتاح مصنع للورق في بلاد الإسلام في بغداد عام 179هـ/ 794م على يد الفضل بن يحيى وزير هـارون الرشيد، ونقل العرب هـذه الصناعة إلى صقلية وأسبانيا ومنهما انتقلت

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 2/ 475 – 476. سعدي ضناوي: موسوعة هارون الرشيد، 3/ 598 – 599. عبد السلام هارون: تحقيق النصوص ونشرها، ص17. بتصرف.

إلى إيطاليا وفرنسا[1].

لقد قدَّم هـارون الرشيد خدمة جليلة للعلم والعلماء بتلك الخطوة الجريئة بأمر انتشار صناعة الورق في البلاد الإسلامية، مما سهَّل عمليات الكتابة والتأليف ونسخ الكتب وانتشارها، وجعلها في متناول الجميع، ومن هـنا بدأ العرب يصدرون علومهم بسهولة ويسر إلى بلدان العالم أجمع.

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، 13/ 169 - 170.

الفَصْلُ التَّاسِعُ

مصابيح الهدى أيام الرشيد

- أولًا : هارون الرشيد مع الإمام مالك.
- ثانيًا : هارون الرشيد مع عبد الله بن المبارك.
- ثالثًا : هارون الرشيد مع القاضي أبي يوسف.
- رابعًا : هارون الرشيد مع الفضيل بن عياض .
- خامسًا : هارون الرشيد مع الإمام الشافعي.

"أَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ الْقُدْوَةُ، فَلَا يَدْخُلْ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ قَبْلَكَ".

هارون أمير المؤمنين للإمام الشافعي.

أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء (9/ 82 – 84)

إذا كان كل إنسان يعرف بمن يصاحب ويجالس، فإن هـارون الرشيد ما كان ليصاحب غير أرباب العلم والفقه والدين، يصحبهم في حلَّه وترحاله، يجالسهم ويستشيرهم وينزل على رأيهم، يسافر إليهم ليأخذ عنهم العلم والدين، ويتواضع لعلمهم وينكسر لكلامهم، ويبكي لمواعظهم، ويغمرهم من عطفه ورعايته.

إن هـذه المواقف الخالدة لهارون الرشيد مع هـؤلاء الكوكبة من أجلِّ علماء الدين والدنيا، لتعطينا صورًا حقيقة عن حياة الرشيد، ليست حياة المجون والخلاعة التي أرادوا أن يشوهوا الرشيد بها كذبًا، بل حياة المجاهد والعالم والزاهد والغيور على دينه. وهذه ترجمة بعض من أعلام السلف الذين كان لهم تأثير كبير في حياة الناس، وقد اقتصرنا على خمسة ترجمات، كان لهم صلة مباشرة بهارون الرشيد ورأي سديد في خلافته.

غير أننا سنذكر في عجالة أشهر من توفي في خلافة الرشيد من العلماء والفقهاء وشاركوا في صناعة صورة الخلافة وشخصية الخليفة، كالتالي:

عبد الله بن لهيعة: مؤرخ ومحدث مصري، ت 174هـ. الليث بن سعد، إمام مصر وفقيهها، ت 175هـ. الخليل بن أحمد الفراهيدي، من علماء العربية في البصرة، من مؤلفاته: (كتاب العين) ت 175هـ. شريك النخعي القاضي، ت 177هـ. الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، ت 179هـ. حماد بن زيد، المحدث شيخ العراق في عصره ، ت 179هـ. سيبويه البصري، إمام النحو وحجة العرب، ت 180هـ. خلف الأحمر، معلم الأصمعي ومعلم البصرة، ت180هـ. الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، ت181هـ. إسماعيل بن عياش المحدث، ت 181هـ. يونس بن حبيب البصري، إمام نحاة البصرة في زمانه، ت 182هـ. قاضي القضاة أبو يوسف، صاحب أبي حنيفة

وكتاب الخراج، ت 182هـ. ابن السماك الواعظ، ت 183هـ. الفضيل بن عياض، الواعظ الصالح، ت 187هـ. جرير بن عبد الحميد الضبي، ت 188هـ. الكسائي، إمام الكوفيين في النحو والصرف، ومؤدب الأمين والمأمون، ت 189هـ. محمد بن الحسن الشيباني، قاضي الرشيد وشيخ الشافعي، ت 189هـ. عبد الرحمن بن القاسم، من أصحاب الإمام مالك، ت 191هـ. أبو بكر بن عياش، كان من أرباب الحديث والعلماء المشاهير، وهو أحد راوي القراءات عن عاصم، ت 193هـ. حفص بن غياث الكوفي، قاضي الكوفة، ت 194هـ. أبو معاوية الضرير، تلميذ الأعمش، ت 195هـ. وكيع بن الجراح، القاصي المحدث، ت 197هـ. الإمام ورش، صاحب القراءة، ت 197هـ. سفيان بن عيينة، محدِّث الحرم المكي، ت 198هـ. عبد الرحمن بن مهدي، من كبار حفاظ الحديث، ت 198هـ. يحيى بن سعيد القطان المحدث، أول مؤلف مستقل في أسماء الرواة الضعفاء، ت 198هـ. الإمام الشافعي، مجدد الإسلام، ت 204هـ. الواقدي، إمام المغازي والسير، ت 207هـ. أبو عبيدة معمر بن المثنى، عالم اللغة والنحو، ت 209هـ. عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المحدث الكبير، صاحب المصنف، ت 211هـ. أبو العتاهية الشاعر الواعظ، ت 211هـ. أبو زيد الأنصاري، كان من أوثق الرواة، ت 214هـ. الأصمعي، شيخ اللغة والأدب، ت 215هـ.

والآن إليك الخمس ترجمات اخترناها لك، ممن كان لهم عظيم الأثر في حياة الرشيد وشخصيته وسياسته[1]:

(1) ترتيب الأسماء حسب تواريخ وفياتهم.

أولًا: هـارون الرشيد
مع الإمام مالك (إمام دار الهجرة)

الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الحميري الأصبحي المدني (93هـ - 179هـ)، أحد الأئمة الأربعة العظام عند المسلمين، طلب العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة، وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو حيٌّ شابٌّ طريٌّ، وقصده طلبة العلم من الآفاق في آخر دولة أبي جعفر المنصور، وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة الرشيد، وإلى أن مات. قال عنه سفيان بن عيينة: "مالك عالم أهل الحجاز، وهو حجة زمانه". وقال الشافعي: "إذا ذكر العلماء فمالك النجم". وقال الشافعي كذلك: "لَوْلا مَالِكٌ، وَابْنُ عُيَيْنَةَ لَذَهَبَ عِلْمُ الْحِجَازِ، وَمَا فِي الأَرْضِ كِتَابٌ فِي الْعِلْمِ أَكْثَرَ صَوَابًا مِنَ الْمُوَطَّأ".

ولم تكن صلة مالك بن أنس رحمه الله بهارون الرشيد حديثة العهد بخلافته، بل إن الإمام مالك يعدُّ في منزلة أستاذ الرشيد ومعلمه ومؤدبه، فقد قَدِم المهديُّ المدينة، فبعث إلى مالك، فأتاه، فقال لولديه هـارون وموسى: اسمعا منه. فبعث إليه، فلم يجبهما، فأعلما المهدي، فكلمه، فقال: يا أمير المؤمنين! العلم يؤتى أهله. فقال: صدق مالك، صيرا إليه. فلما صارا إليه، قال له مؤدبهما: اقرأ علينا. فقال: إن أهل المدينة يقرؤون على العالم، كما يقرأ الصبيان على المعلم، فإذا أخطؤوا، أفتاهم. فرجعوا إلى المهدي، فبعث إلى مالك، فكلمه، فقال: سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هـذا العلم في الروضة من رجال، وهم يا أمير المؤمنين: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، وعروة، والقاسم، وسالم، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، ونافع، وعبد الرحمن بن هـرمز، ومن بعدهم: أبو الزناد، وربيعة، ويحيى

بن سعيد، وابن شهاب، كل هـؤلاء يقرأ عليهم، ولا يقرؤون. فقال المهدي: في هـؤلاء قدوة، صيروا إليه، فاقرؤوا عليه، ففعلوا[1].

فالإمام مالك معلم هـارون الرشيد في الفقه والحديث، وقد عاش الإمام مالك بن أنس فترة من الزمن في خلافة هـارون الرشيد، حيث توفي رحمه الله سنة 179هـ، وبقيت العلاقة بينهما علاقة محبة وود، يملأها الإجلال وهيبة العلم والعلماء، وكان الرشيد إذا زار المدينة يحرص على زيارة أستاذه ويجلس بين يديه تواضعًا للعلم وأهله، من ذلك ما روي عن مالك بن أنس قال: "وجه إليَّ هـارون الرشيد يسألني أن أحدثه، فقلت: يا أمير المؤمنين إن العلم يؤتى ولا يأتي، قال: فصار إلى منزلي، فاستند معي إلى الجدار، فقلت: يا أمير المؤمنين إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، قال: فجلس بين يدي، قال: فقال لي بعد مدة، يا أبا عبد الله: تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان بن عيينة، فلم ننتفع به"[2].

وكان الرشيد دائمًا ما يرسل بالأسئلة إلى مالك يستشيره في أمور الدين والدنيا، حتى أن الرشيد أراد حمل الناس على موطأ مالك، فيكون مذهب الخلافة والدولة، غير أن الإمام مالك رفض ذلك العرض، فعن ابن عبد الحكم قال: سمعت مالك بن أنس يقول: " سمعت مالكًا يقول: شاورني هـارون الرشيد في ثلاثة: في أن يعلق الموطأ في الكعبة، ويحمل الناس على ما فيه، وفي أن ينقض منبر رسول الله ﷺ ويجعله من ذهب وفضة وجوهر، وفي أن يقدم نافعًا إمامًا في مسجد النبي ﷺ.

فقلت: أما تعليق الموطأ، فإن الصحابة اختلفوا في الفروع، وتفرقوا، وكل عند نفسه مصيب، وأما نقض المنبر، فلا أرى أن يحرم الناس أثر رسول الله ﷺ، وأما تَقْدِمَتُكَ نافعًا، فإنه إمام في القراءة، لا يؤمن أن تبدر منه بادرة في المحراب، فتحفظ

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 48 - 64. بتصرف.

(2) أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، 1/ 84.

عليه. فقال الرشيد: وفقك الله يا أبا عبد الله»[1].

وقال هـارون الرشيد مرة لمالك: «كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر من رسول الله ﷺ؟»، فقال مالك: «كقرب قبريهما من قبره بعد وفاته»، فقال الرشيد: «شفيتني يا مالك»[2]. وعن النضر بن شُمَيْلٍ، قال: سمعتُ هـارون الرشيد يقول: «ما رأيت في العلماء أَهْيَبَ من مالك، ولا أورع من الفضيل»[3].

(1) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 6/ 332. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 98. وقال الذهبي: هذا إسناد حسن، لكن لعل الراوي وهم في قوله: هارون؛ لأن نافعًا مات قبل خلافة هارون (توفي سنة 169هـ).

(2) ابن عبد الهادي الصالحي: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، 1/ 238.

(3) الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 944.

ثانيًا: هارون الرشيد
مع عبد الله بن المبارك (فقيه المشرق والمغرب)

هو الإمام، شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك الحنظلي مولاهم، التركي، المروزي، الحافظ، الغازي، أحد الأعلام، أبوه تركي وأمه خوارزمية (118هـ - 181هـ)، طلب العلم وهو ابن عشرين سنة. فأقدم شيخ لقيه:هـو الربيع بن أنس الخراساني، تحيل ودخل إليه إلى السجن، فسمع منه نحوًا من أربعين حديثًا، ثم ارتحل في سنة إحدى وأربعين ومائة، وأخذ عن بقايا التابعين، وأكثر من الترحال والتطواف، وإلى أن مات في طلب العلم، وفي الغزو، وفي التجارة، والإنفاق على الإخوان في الله، وتجهيزهم معه إلى الحج. ارتحل ابن المبارك إلى: الحرمين، والشام، ومصر، والعراق، والجزيرة، وخراسان، وحدث بأماكن. وكان من الربانيين في العلم، الموصوفين بالحفظ، ومن المذكورين بالزهد.

سمع من: هـشام بن عروة، والأعمش، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وموسى بن عقبة، وحيوة بن شريح المصري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، وابن جريج، ومعمر، والثوري، وشعبة، وابن أبي ذئب، ومالك، والليث، وابن لهيعة وابن عيينة، وخلق كثير.

وحدَّث عنه: معمر، والثوري، وأبو إسحاق الفزاري، وطائفة من شيوخه، وعبد الرحمن بن مهدي، وطائفة من أقرانه، وعبد الرزاق بن هـمام الصنعاني، والقطان، وابن معين، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأمم يتعذر إحصاؤهم، ويشق استقصاؤهم.

وحديثه حجة بالإجماع، وهو في المسانيد والأصول. قال علي بن صدقة، سمعت شعيب بن حرب، قال: "ما لقي ابن المبارك رجلًا إلا وابن المبارك أفضل

منه". وعنه أيضًا قال: سمعت أبا أسامة يقول: "ابن المبارك في المحدثين مثل أمير المؤمنين في الناس". وقال إسماعيل بن عياش: "ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير، إلا وقد جعلها في عبد الله بن المبارك". وقال الفضيل بن عياض يومًا لابن المبارك: "أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع، كيف ذا؟"، قال: "يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون وجهي، وأكرم عرضي، وأستعين به على طاعة ربي". قال: "يا ابن المبارك ما أحسن ذا إن تم ذا". قال ابن معين: "كان عبد الله رحمه الله كيسًا، متثبتًا، ثقة، وكان عالمًا، صحيح الحديث، وكانت كتبه التي يحدث بها عشرين ألفًا أو واحدًا وعشرين ألفًا". وقال سفيان بن عيينة: "نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم عليه فضلًا إلا بصحبتهم النَّبِيّ ﷺ وغزوهم معه"[1].

تلك كانت منزلة عبد الله بن المبارك بين العلماء والناس، حفظها له هارون الرشيد، فكان يجلُّه ويعظمه، ويحفظ له مكانته وعلمه، خاصة في علوم الحديث والعلل والرجال، ولقد عبَّر عن ذلك الرشيد عندما جيء له بأحد الزنادقة ليقتله، فأمر بضرب عنقه، فقال له الزنديق: لِمَ تضرب عنقي؟ قال له: أريح العباد منك، قال: فأين أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله ﷺ كلها ما فيها حرف نطق به؟ قال الرشيد: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفًا حرفًا؟[2].

وكان أول لقاء بين الرشيد وعبد الله بن المبارك في الرقة، فقد روى الخطيب البغدادي بسنده عن أشعث بن شعبة المصيصي، قال: قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين الرقة، فانجفل الناس خلف عبد اللَّه بن المبارك، وتقطعت النعال،

(1) انظر أخبار ابن المبارك في: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 11/ 388 - 409. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 378 - 421.

(2) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 7/ 127.

وارتفعت الغبرة، فأشرقت أم ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس، قَالت: ما هـذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة، يقال له: عبد اللَّه بن المبارك، فقالت:هـذا واللَّه الملك لا ملك هـارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان[1].

ولما زار الرشيد ابن المبارك في بيته، تناقشا معًا مستقبل العلم والعلماء في دولة الخلافة، وانتهى الأمر بقرارات تشجيعية أصدرها الرشيد بطلب من ابن المبارك، أحدثت تطورًا علميًا وازدهارًا فكريًا كبيرًا، حتى قال ابن المبارك: "فما رأيت عالمًا ولا قارئًا للقرآن ولا سابقًا للخيرات ولا حافظًا للمحرمات في أيام بعد أيام رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء والصحابة أكثر منهم في زمن الرشيد وأيامه"[2].

وظلت علاقة ابن المبارك بالرشيد يملؤها الود والاحترام والتقدير، ولمَّا بلغ أمير المؤمنين هـارون موت ابن المبارك بِهْيت قال: "مات سيد العلماء"، ثم قال: "إنا لله وإنا إليه راجعون، يا فضل ائذن للناس يعزونا في ابن المبارك، أليس هـو القائل:

اللهُ يَدْفَعُ بِالسُّلْطَانِ مُعْضِلَةً ... عَنْ دِينِنَا، رَحْمَةً مِنْهُ وَرِضْوَانًـا

لَوْلَا الْأَئِمَّةُ لَمْ يَأْمَنْ لَنَا سُبُلٌ ... وَكَـانَ أَضْعَفُنَا نَهْبًـا لِأَقْوَانَـا

ثم قال الرشيد: "من سمع هـذا القول، مِنْ مِثْلِ ابن المبارك مع فضله وزهده وَعَظْمِهِ في صدور العامة، ولا يعرف حقنا"[3].

---

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 11/ 393.

(2) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، 1/ 300 – 301.

(3) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 8/ 164. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 11/ 401. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 414. هيت: مدينة على الفرات فوق الأنبار من أعمال العراق، لكنها في بر الشام، والأنبار في بر بغداد، والفرات يفصل بينهما، ودجلة تفصل بين الأنبار وبغداد، وبها قبر ابن المبارك.

ثالثًا: هارون الرشيد
مع القاضي أبي يوسف (قاضي القضاة)

هو الإمام، المجتهد، العلامة، المحدث، قاضي القضاة، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خُنَيْس بن سعد بن بجير بن معاوية الأنصاري، الكوفي (113هـ - 182هـ). وسعد بن بجير: له صحبة، وهو سعد بن حَبْتَةَ، وهي أمه، وهو بجلي، من حلفاء الأنصار، عرض على النبي ﷺ يوم أحد فاستصغره، وشهد الخندق، وغيرها. جاءت به أمه حبتة بنت مالك إلى رسول الله ﷺ فَدَعَا لَهُ وبرك عليه وَمسح على رَأسه، فكان حفيده أبو يوسف من بركات النبي ﷺ.

حدَّث عن: هـشام بن عروة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وعطاء بن السائب، وأبي إسحاق الشيباني، وعبيد الله بن عمر، والأعمش، وأبي حنيفة، ولزمه، وتفقه به، وهو أنبل تلامذته، وأعلمهم، تخرج به أئمة: كمحمد بن الحسن، ومعلى بن منصور، وهلال الرأي، وابن سماعة، وعدة. وحدَّث عنه: يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وعلي بن الجعد، وأسد بن الفرات، وأحمد بن منيع، وعلي بن مسلم الطوسي، وعمرو بن أبي عمرو الحراني، وعمرو الناقد، وعدد كثير.

وكان أبوه فقيرًا، له حانوت ضعيف، فكان أبو حنيفة يتعاهد أبا يوسف بالدراهم، مائة بعد مائة. وعن محمد بن الحسن، قال: مرض أبو يوسف، فعاده أبو حنيفة، فلما خرج، قال: «إِنْ يَمُتْ هـذَا الْفَتَى فَهُوَ أَعْلَمُ مَنْ عَلَيْهَا، وَأَوْمَأَ إِلَى الأَرْضِ».

ويعدُّ أبو يوسف أنبل تلامذة أبي حنيفة، وأول من وضع الكتب فِي أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث علم أبي حنيفة فِي أقطار الأرض، وكان يقول: «ما كَانَ فِي الدُّنْيَا أحب إليّ من مجلس أجلسه مَعَ أبي حنيفة،

وابن أبي ليلى، فإني ما رأيتُ فقيهًا أفقه من أبي حنيفة، ولا قاضيًا خيرًا من ابن أبي ليلى». وفي ذلك يقول عمار بن أبي مالك: «ما كَانَ فيهم مثل أبي يوسف، لولا أَبُو يوسف ما ذكر أَبُو حنيفة، ولا ابن أبي ليلى، ولكنه هـوَ نشرَ قولهما، وبث علمهما». وعن هـلال بن يحيى، قال: «كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب، وكان أقل علومه الفقه، ولم يكن في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف».

وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء: المهدي وابنه الهادي ثم هـارون الرشيد، وكان الرشيد يكرمه ويجله، وكان عنده حظيًا مكينًا، وهو أول من دعي بقاضي القضاة. ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني في ثقته في النقل. قال يحيى بن معين: «ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث، ولا أحفظ، ولا أصح رواية من أبي يوسف». قال ابن عدي: لا بأس به. وقال النسائي في (طبقات الحنفية) : وأبو يوسف ثقة. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه.

وحكي أن والد أبي يوسف مات وخلف أَبَا يوسف طفلًا صغيرًا، وأنّ أمه هـيَ التي أنكرت عَلَيْهِ حُضوره حلقة أبي حنيفة، فعن علي بن الجعد قال: قال أبو يوسف القاضي: تُوُفِّيَ أبي إِبْرَاهِيم بْن حبيب وخلَّفني صغيرًا فِي حجر أمي، فأسلمتني إلى قصَّار أخدمه، فكنتُ أدع القصار وأمرُّ إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع، فكانت أمي تجيء خلفي إلى الحلقة، فتأخذ بيدي وتذهب بي إلى القصار، وكان أَبُو حنيفة يعنى بي لما يرى من حضوري وحرصي عَلَى التعلم، فلما كثر ذَلِكَ عَلَى أمي وطال عليها هـربي، قَالَتْ لأبي حنيفة: ما لِهذا الصبي فسادٌ غيرك، هـذا صبي يتيم لا شيء لَهُ، وإنما أطعمه من مغزلي، وآمل أن يكسب دانقًا يعود بِهِ عَلَى نفسه، فقال لَهَا أَبُو حنيفة: مُري يا رعناء (حمقاء) هـذا هـوَ ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق، فانصرفت عَنْهُ، وقالت لَهُ: أنت شيخٌ قد خرفت وذهب عقلك.

ثُمَّ لزمته فنفعني الله بالعلم، ورفعني حتى تقلدت القضاء، وكنت أجالس

الرشيد وآكل معه عَلَى مائدته، فلما كَانَ فِي بعض الأيام قدَّم إليَّ هـارون فالوذجة، فقال لي هـارون: يا يعقوب كل منه فليس فِي كل يوم يُعمل لنا مثلها، فقلتُ: وما هـذه يا أمير المؤمنين؟ فقال: هـذه فالوذجة بدهن الفستق، فضحكتُ، فقال لي: مم ضحكت؟ فقلتُ: خيرًا، أبقى الله أمير المؤمنين، قَالَ: لتخبرني وألحّ عليَّ، فخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها، فعجب من ذَلِكَ، وقال الرشيد: «لعمري إن العلم ليرفعُ، وينفع دينًا ودنيا، وترحم عَلَى أبي حنيفة، وقال: كَانَ ينظرُ بعين عقله ما لا يراهُ بعين رأسه».

وكان أبو يوسف يقول: «العلمُ شيء لا يُعطيك بعضه حتى تُعطيه كُلَّك، وأنت إذا أعطيته كُلَّك من إعطائه البعض عَلَى غَرَرٍ». ويقول: «من قَالَ القرآن مخلوق فحرام كلامه، وفرضٌ مباينته». وقد رُفع إلى هـارون الرشيد زنديقٌ، فدعا أَبَا يوسف يكلمه، فقال لَهُ هـارون: «كلمه وناظره»، فقال لَهُ: «يا أمير المؤمنين ادع بالسيف والنطع، وأعرض عَلَيْهِ الْإِسْلَام فإن أسلم وإلا فاضرب عُنقه، هـذا لا يناظر، وقد ألحد فِي الْإِسْلَام».

وقال بكار بن قتيبة: سمعت أبا الوليد، قال: «لما قدم أبو يوسف البصرة مع الرشيد، اجتمع الفقهاء والمحدثون على بابه، فأشرف عليهم، وقال: أنا من الفريقين جميعًا، ولا أقدم فرقة على فرقة». قال: «وكان قاضي الآفاق، ووزير الرشيد، وزميله في حجه».

قال ابن كثير: «وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ لُقِّبَ بِقَاضِي الْقُضَاةِ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: قَاضِي قُضَاةِ الدُّنْيَا. لِأَنَّهُ كَانَ يَسْتَنِيبُ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي يَحْكُمُ فِيهَا الْخَلِيفَةُ..، وَقَدْ كَانَ يَحْضُرُ فِي مَجْلِسِ حُكْمِهِ الْعُلَمَاءُ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، حَتَّى إِنَّ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ كَانَ شَابًّا وَكَانَ يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ فِي أَثْنَاءِ الناس فيتناظرون ويتباحثون، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَحْكُمُ وَيُصَنِّفُ أَيْضًا».

وعن بشر بْن غياث المريسي، قَالَ: سمعتُ أَبَا يوسف، يَقُولُ: صحبتُ أَبَا

حنيفة سبع عشرة سنة، ثُمَّ قد انصبَّت عليَّ الدُّنْيَا سبع عشرة سنة، فما أظن أجلي إلا وقد قَرُب، قَالَ: فما كَانَ إلا شهورًا حتى مات

.قال رحمه الله في مرضه الذي مات فيه: « اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم أطأ فرجًا حرامًا قط وأنا أعلم، اللَّهُمَّ إنك تعلم أني لم آكل درهمًا حرامًا قط وأنا أعلم »، وقال في اليوم الذي مات فيه: « اللَّهُمَّ إنك تعلمُ أني لم أجر فِي حكم حكمت بِهِ بين عبادك متعمدًا، ولقد اجتهدت فِي الحكم بِما وافق كتابك وسنة نبيك». وقد توفي رحمه الله في بغداد يوم الخميس، خامس ربيع الأول، سنة 182هـ[1].

وكان القاضي أبو يوسف رحمه الله يتحرى العدل ولا يخاف في الله لومة لائم، فقد خُوصم أمير المؤمنين موسى الهادي إلى أبي يوسف فِي بُستانه فكان الحكم فِي الظاهر لأمير المؤمنين، وكان الأمر على خلاف ذلك. فقال أمير المؤمنين لأبي يوسف: «ما صنعت فِي الأمر الَّذِي يُتنازع إليك فِيهِ؟»، قال: «خصم أمير المؤمنين يسألني أن أُحَلِّفَ أمير المؤمنين أن شهوده شَهِدوا عَلَى حق»، فقال له موسى: «وترى ذَلِكَ؟»، قال: «قد كَانَ ابن أبي ليلى يراهُ»، قَالَ: «فاردد البستان عَلَيْهِ». وإنّما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادي لا يحلف[2].

وكان هـارون الرشيد يبالغ في إجلاله، لما بلغ أبو يوسف من رئاسة العلم ما لا مزيد عليه. روى ثعلب أن الرشيد قال لأبي يوسف: بلغني أنك تقول: إن هـؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وكيف ذاك؟ قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هـذه الطبقة، وهم هـؤلاء

(1) انظر أخبار القاضي أبي يوسف في: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 359 – 383. ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 378 – 390. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 535 – 539. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 615 – 620.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 367 – 368.

المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت[1].

ولما ولَّى هـارون الرشيد قاضيه أبو يوسف منصب قاضي القضاة، وأسند إليه تعيين القضاة والإشراف عليهم في المشرق والمغرب أمره أن يكتب له كتابًا بمثابة منهجٍ اقتصاديٍ تسير عليه الدولة في جباية الخراج بما لا يخالف كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فوضع له كتاب الخراج، وقدَّم له فيه بنصيحة بليغة وموعظة شديدة لهارون الرشيد خليفة المسلمين، وقد دلَّت تلك الموعظة على علم أبي يوسف وشدَّته في الحق وفقهه في الدين، كما دلَّت على توقير الرشيد للعلماء ونزوله على رأيهم ومشورتهم، وقبوله لنصيحة الفقهاء من حوله، واتساع صدره لهم، وحرصه رحمه الله على تطبيق شرع الله في دولته.

وهذا نص نصيحة قاضي القضاة أبي يوسف لأمير المؤمنين هارون الرشيد، يقول:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ - وَلَهُ الْحَمْدُ - قَدْ قَلَّدَكَ أَمْرًا عَظِيمًا: ثَوَابُهُ أَعْظَمُ الثَّوَابِ، وَعِقَابُهُ أَشَدُّ الْعِقَابِ؛ قَلَّدَكَ أَمْرَ هـذِهِ الأُمَّةِ فَأَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ وَأَنْتَ تَبْنِي لِخَلْقٍ كَثِيرٍ قَدِ اسْتَرْعَاكَهُمُ اللَّهُ وَائْتَمَنَكَ عَلَيْهِمْ وَابْتَلاكَ بِهِمْ وَوَلاكَ أَمْرَهُمْ، وَلَيْسَ يَلْبَثُ الْبُنْيَانُ إِذَا أُسِّسَ عَلَى غَيْرِ التَّقْوَى أَنْ يَأْتِيَهُ اللَّهُ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَيَهْدِمَهُ عَلَى مَنْ بَنَاهُ، وَأَعَانَ عَلَيْهِ.

- فَلا تُضَيِّعَنَّ مَا قَلَّدَكَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِ هـذِهِ الأُمَّةِ وَالرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ الْقُوَّةَ فِي الْعَمَلِ بِإِذْنِ اللَّهِ.

- لَا تُؤَخِّرْ عَمَلَ الْيَوْمِ إِلَى غَدٍ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَضَعْتَ. إِنَّ الأَجَلَ دُونَ الأَمَلِ، فَبَادِرِ الأَجَلَ بِالْعَمَلِ، فَإِنَّهُ لَا عَمَلَ بَعْدَ الأَجَلِ. إِنَّ الرُّعَاةَ مُؤَدُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مَا يُؤَدِّي الرَّاعِي إِلَى رَبِّهِ. فَأَقِمِ الْحَقَّ فِيمَا وَلاكَ اللَّهُ وَقَلَّدَكَ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ؛ فَإِنَّ أَسْعَدَ الرُّعَاةِ عِنْدَ الله يَوْم الْقِيَامَةِ رَاعٍ سَعِدَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ، وَلا تَزِغْ فَتَزِيغَ رَعِيَّتُكَ، وَإِيَّاكَ الْأَمر بِالْهَوَى وَالأَخْذَ بِالْغَضَبِ.

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 6/ 387.

- وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا لِلآخِرَةِ وَالآخَرُ لِلدُّنْيَا، فَاخْتَرْ أَمْرَ الآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الآخِرَةَ تَبْقَى وَالدُّنْيَا تَفْنَى.

- وَكُنْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ، وَاجْعَلِ النَّاسَ عِنْدَكَ فِي أَمْرِ اللَّهِ سَوَاءً: الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ، وَلا تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ.

- وَاحْذَرْ فَإِنَّ الْحَذَرَ بِالْقَلْبِ وَلَيْسَ بِاللِّسَانِ، وَاتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّمَا التَّقْوَى بِالتَّوَقِّي، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَقِهْ.

- وَاعْمَلْ لأَجَلٍ مَفْضُوضٍ، وَسَبِيلٍ مَسْلُوكٍ، وَطَرِيقٍ مَأْخُوذٍ، وَعَمَلٍ مَحْفُوظٍ، وَمَنْهَلٍ مَوْرُودٍ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَوْرِدُ الْحَقُّ وَالْمَوْقِفُ الأَعْظَمُ الَّذِي تَطِيرُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَتَنْقَطِعُ فِيهِ الْحُجَجُ لِعِزَّةِ مَلِكٍ قَهَرَهُمْ جَبَرُوتُهُ، وَالْخَلْقُ لَهُ دَاخِرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ، يَنْتَظِرُونَ قَضَاءَهُ وَيَخَافُونَ عُقُوبَتَهُ وَكَأَنَّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ. فَكَفَى بِالْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ يَوْمَئِذٍ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ لِمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ، يَوْمَ تَزِلُّ فِيهِ الأَقْدَامُ وتتغير فِيهِ الألوان، ويطاول فِيهِ الْقِيَامُ، وَيَشْتَدُّ فِيهِ الْحِسَابُ. يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ: ﴿**وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ**﴾ [الْحج: 47] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ**﴾ [المرسلات: 38] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الدُّخان: 40] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ**﴾ [الأَحْقاف: 35] وَقَالَ: ﴿**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**﴾ [النازعات: 46] فيا لَهَا مِنْ عَثْرَةٍ لَا تُقَالُ (لا تُرفع)، وَيَا لَهَا مِنْ نَدَامَةٍ لَا تَنْفَعُ.

- إِنَّمَا هـوَ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ، وَيَجْزِي اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ؛ فَاللَّهَ اللَّهَ فَإِنَّ الْبَقَاءَ قَلِيلٌ وَالْخَطْبُ خَطِيرٌ وَالدُّنْيَا هـالِكَةٌ وَهَالِكٌ مَنْ فِيهَا، وَالآخِرَةُ هـيَ دَارُ الْقَرَارِ. فَلا تَلْقَ اللَّهَ غَدًا وَأَنْتَ سَالِكٌ سَبِيلَ الْمُعْتَدِينَ فَإِنَّ دَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ إِنَّمَا يَدِينُ الْعِبَادَ بأعمالهم وَلَا يدين بمنازلهم. وَقد حذرتك اللَّهَ فَاحْذَرْ، فَإِنَّكَ لَمْ تُخْلَقْ عَبَثًا، وَلَنْ تُتْرَكَ سُدًى. وَإِنَّ اللَّهَ سَائِلُكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ وَعَمَّا عَمِلْتَ بِهِ، فَانْظُرْ مَا الْجواب.

– وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَنْ تَزُولَ غَدًا قَدَمَا عَبْدٍ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلا مِنْ بَعْدِ الْمَسْأَلَةِ فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَربع: عَن علمه مَا عَمِلَ فِيهِ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ»؟ فَاعْدِدْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمَسْأَلَةِ جَوَابَهَا فَإِنَّ مَا عَمِلْتَ فَأَثْبَتَّ فَهُوَ عَلَيْكَ غَدًا يُقْرَأُ، فَاذْكُرْ كَشْفَ قِنَاعِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ فِي مَجْمَعِ الأَشْهَادِ.

– وَإِنِّي أُوصِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِحِفْظِ مَا اسْتَحْفَظَكَ اللَّهُ وَرِعَايَةِ مَا اسْتَرْعَاكَ اللَّهُ، وَأَنْ لَا تَنْظُرَ فِي ذَلِكَ إِلا إِلَيْهِ وَلَهُ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَا تفعَلْ تَتوَعَّرُ عَلَيْكَ سُهُولَةُ الْهُدَى، وَتَعْمَى فِي عَيْنِكَ وَتَتَعَفَّى رُسُومُهُ وَيَضِيقُ عَلَيْكَ رَحْبُهُ وَتُنْكِرُ مِنْهُ مَا تَعْرِفُ وَتَعْرِفُ مِنْهُ مَا تُنْكِرُ، فَخَاصِمْ نَفْسَكَ خُصُومَةَ مَنْ يُرِيدُ الْفَلَجَ (أَي الظَّفْر) لَهَا لَا عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ الرَّاعِيَ الْمُضَيِّعَ يَضْمَنُ مَاهـلَكَ عَلَى يَدَيْهِ مِمَّا لَوْ شَاءَ رَدَّهُ عَنْ أَمَاكِنِ الْهَلَكَةِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَوْرَدَهُ أَمَاكِنَ الْحَيَاةِ وَالنَّجَاةِ، فَإِذَا تَرَكَ ذَلِكَ أَضَاعَهُ وَإِنْ تَشَاغَلَ بِغَيْرِهِ كَانَتِ الْهَلَكَةُ عَلَيْهِ أَسْرَعُ وَبِهِ أَضَرُّ، وَإِذَا أَصْلَحَ كَانَ أَسْعَدَ مَنْ هـنَالِكَ بِذَلِكَ وَوَفَّاهُ اللَّهُ أَضْعَافَ مَا وَفَّى لَهُ. فَاحْذَرْ أَنْ تُضَيِّعَ رَعِيَّتَكَ فَيَسْتَوْفِي رَبُّهَا حَقَّهَا مِنْكَ وَيُضَيِّعُكَ – بِمَا أَضَعْتَ – أَجْرَكَ وَإِنَّمَا يُدْعَمُ الْبُنْيَانُ قَبْلَ أَنْ يَنْهَدِمَ.

– وَإِنَّمَا لَكَ مِنْ عَمَلِكَ مَا عَمِلْتَ فِيمَنْ وَلاكَ اللَّهُ أَمْرَهُ وَعَلَيْكَ مَا ضَيَّعْتَ مِنْهُ؛ فَلا تَنْسَ الْقِيَامَ بِأَمْرِ مَنْ ولاك أَمْرَهُ فَلَسْتَ تُنْسَى. وَلا تَغْفَلْ عَنْهُمْ وَعَمَّا يُصْلِحُهُمْ فَلَيْسَ يُغْفَلُ عَنْكَ. وَلا يَضِيعُ حَظُّكَ مِنْ هـذِهِ الدُّنْيَا فِي هـذِهِ الأَيَّامِ والليالي كَثْرَةَ تَحْرِيم لِسَانِكَ فِي نَفْسِكَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَسْبِيحًا وَتَهْلِيلا وَتَحْمِيدًا وَالصَّلاةِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَإِمَامِ الْهُدَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

– وَإِنَّ اللَّهَ بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ جَعَلَ وُلاةَ الأَمْرِ خُلَفَاءَ فِي أَرْضِهِ، وَجَعَلَ لَهُم نورًا يضيء لِلرَّعِيَّةِ مَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الأُمُورِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَيُبَيِّنُ مَا اشْتَبَهَ مِنَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِمْ. وَإِضَاءَةُ نُورِ وُلاةِ الأَمْرِ إِقَامَةُ الْحُدُودِ وَرَدُّ الْحُقُوقِ إِلَى أَهْلِهَا بِالتَّثَبُّتِ وَالأَمْرِ الْبَيِّنِ وَإِحْيَاءِ السُّنَنِ

الَّتِي سَنَّهَا الْقَوْمُ الصَّالِحُونَ أَعْظَمُ مَوْقِعًا، فَإِنَّ إِحْيَاءَ السُّنَنِ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي يَحْيَا وَلا يَمُوتُ. وَجَوْرُ الرَّاعِي هـلاكٌ لِلرَّعِيَّةِ، وَاسْتِعَانَتُهُ بِغَيْرِ أهل الشقة وَالْخَيْرِ هـلاكٌ لِلْعَامَّةِ. فَاسْتَتِمَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّعَمِ بِحُسْنِ مُجَاوَرَتِهَا، وَالْتَمِسِ الزِّيَادَةَ فِيهَا بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبْرَاهِيم: 7] . وَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الإِصْلاحِ، وَلا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْعَمَلُ بِالْمَعَاصِي كُفْرُ النِّعَمِ، وَقَلَّ مَنْ كَفَرَ مِنْ قَوْمٍ قَطُّ النِّعْمَةَ ثُمَّ لَمْ يَفْزَعُوا إِلَى التَّوْبَةِ إِلا سُلِبُوا عِزَّهُمْ وَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ.

- وَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي مَنَّ عَلَيْكَ بِمَعْرِفَتِهِ فِيمَا أَوْلاكَ أَنْ لَا يَكِلَكَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ إِلَى نَفْسِكَ، وَأَنْ يَتَوَلَّى مِنْكَ مَا تَوَلَّى مِنْ أَوْلِيَائِهِ وأحبائه؛ فَإِنَّهُ ولي ذَلِك والمرغبون إِلَيْهِ فِيهِ.

وَقَدْ كَتَبْتُ لَكَ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَشَرَحْتُهُ لَكَ وَبَيَّنْتُهُ، فَتَفَقَّهْهُ وَتَدَبَّرْهُ وَرَدِّدْ قِرَاءَتَهُ حَتَّى تَحْفَظَهُ، فَإِنِّي قَدِ اجْتَهَدْتُ لَكَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ آلُكَ وَالْمُسْلِمِينَ نُصْحًا، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ وَخَوْفَ عِقَابِهِ. وَإِنِّي لأَرْجُو - إِنْ عَمِلْتَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْبَيَانِ - أَنْ يُوَفِّرَ اللَّهُ لَكَ خَرَاجَكَ مِنْ غَيْرِ ظُلْمِ مُسْلِمٍ وَلا مُعَاهَدٍ، وَيُصْلِحَ لَكَ رَعِيَّتَكَ فَإِنَّ صَلاحَهُمْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ وَرَفْعِ الظُّلْمِ عَنْهُمْ وَالتَّظَالُمِ فِيمَا اشْتَبَهَ مِنَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِمْ. وَكَتَبْتُ لَكَ أَحَادِيثَ حَسَنَةً، فِيهَا تَرْغِيبٌ وتحضيض مَا سَأَلْتَ عَنْهُ، مِمَّا تُرِيدُ الْعَمَلَ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فَوَفَّقَكَ اللَّهُ لِمَا يُرْضِيهِ عَنْكَ، وَأَصْلح بك، وعَلى يَدَيك»[1].

(1) القاضي أبو يوسف: الخراج، ص13 - 16.

رابعًا: هارون الرشيد
مع الفضيل بن عياض (الزاهد الناصح)

الإمام، القدوة، الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، الخراساني، المجاور بحرم الله (ت: 187هـ). ولد: بسمرقند، ونشأ بأبيورد (كورة أبي ورد)، كان في أول أمره لصًّا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينا هو يرتقي الجدران إليها سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: 16]، فقال: يا رب قد آن، فرجع، وآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتى نصبح، فإن فضيلًا على الطريق يقطع علينا، قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

وارتحل في طلب العلم، وحدَّث عن منصور بن المعتمر، وبيان بن بشر، وعطاء بن السائب، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وابن أبي ليلى، وجعفر الصادق، وخلق سواهم من الكوفيين والحجازيين. وروى عنه ابن المبارك، ويحيى القطان، والشافعي، وبشر الحافي، وخلق كثير.

قال محمد بن سعد: "قدم الكوفة وهو كبير، فسمع من منصور وغيره، ثم تعبد، وانتقل إلى مكة، ونزلها، إلى أن مات بها في أول سنة سبع وثمانين ومائة، في خلافة هارون، وكان ثقة، نبيلًا، فاضلًا، عابدًا، ورعًا، كثير الحديث".

وعن الهيثم بن جميل، سمعت شريكًا يقول: "لم يزل لكل قوم حجة في أهل زمانهم، وإن فضيل بن عياض حجة لأهل زمانه". ومن أقوال الفضيل: "ترك العمل

من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما"، ومن أقواله: "لو أن لي دعوة مستجابة لجعلتها للإمام، لأن به صلاح الرعية، فإذا صلح أمنت العباد والبلاد". وقال: "إِنِّي لَأَعْصِي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي".

وكان لأمير المؤمنين هـارون الرشيد علاقة وثيقة بالفضيل بن عياض، وكان الرشيد يزوره في بيته ويستأذن عليه، ويبكي بين يديه، ويشاوره في أمور الخلافة والدولة، وينزل عن رأيه ونصيحته. وكان هـارون يقول: "ما رأيت في العلماء أَهْيَبَ من مالك، ولا أورع من الفضيل". وعن إبراهيم بن سعيد الجوهري، قال: قال لي المأمون: قال لي الرشيد: "ما رأت عيناي مثل فضيل بن عياض، دخلت عليه، فقال لي: فرِّغ قلبك للحزن وللخوف حتى يسكناه، فيقطعاك عن المعاصي، ويباعداك من النار".

وقال محرز بن عون: كنت عند الفضيل، فأتى هـارون ومعه يحيى بن خالد، وولده جعفر، فقال له يحيى: يا أبا علي، هـذا أمير المؤمنين يسلم عليك. قال: أيكم هـو؟ قالوا: هـذا. فقال: يا حسن الوجه، لقد طوقت أمرًا عظيمًا، وكررها. ثم قال: حدثني عبيد المكتب، عن مجاهد في قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴾ [البقرة: 166]، قال: الأوصال التي كانت في الدنيا، وأومأ بيده إليهم. فجعل هـارون يبكي ويشهق. وقال الرشيد يومًا للفضيل: ما أزهدك! فقال الفضيل: أنت أزهد مني، قال: وكيف ذلك، قال: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة، والدنيا فانية والآخرة باقية[1].

ومن أروع المواقف التي ذكرها المؤرخون حول علاقة الرشيد بالفضيل، ما ذكره الفضل بن الربيع، بقوله: حج أمير المؤمنين هـارون فبينا أنا ليلة نائم بمكة إذ سمعت قرع الباب فقلت: من هـذا؟ قال أجب أمير المؤمنين. فخرجت مسرعًا، فقلت: يا أمير

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 47. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 8/ 421 – 442. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 660 – 662.

المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك. قال: ويحك إنه قد حيك في نفسي شيء، فانظر لي رجلًا أسأله. فقلت:ها هنا سفيان بن عيينة. فقال: امض بنا إليه. فأتيناه، فقرعت عليه الباب، فقال: من هـذا؟، قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك. فقال: خذ لِما جئنا له رحمك الله. فحادثه ساعة، ثم قال: أعليك دين؟. قال: نعم. فقال: يا عباسي، اقض دينه. ثم انصرفنا.

فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، فأنظرني رجلًا أسأله. فقلت:ها هنا عبد الرزاق بن هـمام، فقال: امض بنا إليه. فأتيناه، فقرعت عليه الباب. فقال: من هـذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعًا، فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليَّ أتيتك. فقال: خذ لِما جئناك له رحمك الله. فحادثه ساعة ثم قال: عليك دين؟. قال: نعم. قال: يا عباسي اقض دينه. ثم انصرفنا.

فقال ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلًا. فقلت: ها هنا الفضيل بن عياض. فقال: امض بنا إليه. فأتيناه، فإذا هـو قائم يصلي يتلو آية يرددها. فقال لي: اقرع، فقرعت. فقال: من هـذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين. فقال: ما لي ولأمير المؤمنين. فقلت: سبحان الله أو ما عليك طاعة، أو ليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "ليس للمؤمن أن يذل نفسه". قال: فنزل ففتح الباب. قال: ثم ارتقى إلى الغرفة، فأطفأ السراج، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة.

قال: فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت يد هـارون إليه، فبكى وقال: أوه من كف ما ألينها، إن نجت غدًا من عذاب الله. قال: قلت في نفسي لنكلمنه الليلة بكلام تقي من قلب تقي. فقال له: خذ لِما جئنا له رحمك الله. فقال الفضيل: "إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة، فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليَّ، فعدَّ الخلافة بلاء، وعددتها أنت وأصحابك نعمة.

فقال له سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله عز وجل فصم

عن الدنيا وليكن إفطارك فيها الموت.

وقال له محمد بن كعب القرظي: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أبًا وأوسطهم عندك أخًا وصغيرهم عندك ولدًا، فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله. فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت. ثم إني لأقول لك هـذا وإني أخاف عليك أشد الخوف يوم القيامة يوم تزل فيه الأقدام، فهل معك رحمك الله مثل هـؤلاء من يأمرك بمثل هـذا.

قال: فبكى هـارون بكاءً شديدًا حتى غشي عليه. فقلت: ارفق بأمير المؤمنين. فقال يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا. ثم أفاق فقال الرشيد: رحمك الله زدني. فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكى إليه، قال فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، فإن ذلك يطرد بك إلى الرب نائمًا ويقظانًا، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد ومنقطع الرجاء. قال فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز. فقال له: ما أقدمك. قال: خلعت قلبي بكتابك لا وليت ولاية حتى ألقى الله. قال: فبكى هـارون بكاءً شديدًا.

ثم قال: زدني رحمك الله. فقال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أمرني على إمارة. فقال النبي ﷺ: يا عباس يا عم النبي نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعل. قال: فبكى هـارون بكاءً شديدًا. ثم قال له: زدني رحمك الله. فقال: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هـذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هـذا الوجه من النار فافعل. وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيتك فإن النبي ﷺ قال: "من أصبح لهم غاشًّا لم يرح

رائحة الجنة".

قال فبكى هـارون بكاءً شديدًا حتى غشي عليه. ثم قال: عليك دين؟. قال: نعم دين لربي لم يحاسبني عليه فالويل لي إن ساءلني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهم حجتي. فقال: إنما أعني من دين العباد. قال: فقال: إن ربي لم يأمرني بهذا أمرني أن أصدق وعده وأن أطيع أمره فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: 56 – 58]، فقال له الرشيد: هـذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتقوَّ بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله أنا أدلك على النجاة وتكافئني بمثل هـذا، سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده، فلما صرنا على الباب، قال لي هـارون: يا عباسي إذا دللتني على رجل، فدلني على مثل هـذا،هـذا أزهد المسلمين اليوم.

فدخلت عليه امرأة من نسائه، فقالت: يا هـذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت هـذا المال فتفرحنا به.

فقال لها: مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هـارون هـذا الكلام، قال: ندخل فعسى أن يقبل المال. فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة، فجاء هـارون الرشيد فجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء، فقالت: يا هـذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة، فانصرف رحمك الله، فانصرفنا.[1].

ويحكي الفضيل موقفًا عظيمًا له مع الرشيد، يقول: "لما قدم هـارون الرشيد إلى مكة قعد في الحِجر هـو وولده وقوم معه من الهاشميين، وبعثوا إلى المشايخ فأحضروهم عنده، وبعثوا إليَّ، فأردت أن لا أذهب، واستشرت جارًا لي، فقال لي:

(1) ابن الجوزي: صفة الصفوة، 1/ 430 – 433. ابن عساكر: تاريخ دمشق، 48/ 437 – 440.

يا أبا علي لا تفعل، اذهب لعله إنما يريد أن تحدثه بشيء، أو تعظه بشيء. قال: فذهبت فجئت فدخلت المسجد، فلما صرت إلى الحِجر إذا هـم قعود، فقلت لأدناهم إليَّ رجلًا: أيهم أمير المؤمنين، فأشار لي إليه. فأقبلت عليه، فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال: فرد عليَّ، وقال: اقعد، ثم قال لي: أما إنا ما دعوناك لشيء تكره ولكن حدثنا بشيء، عظنا. قال: فأقبلت عليه، فقلت له: يا حسن الوجه حساب الخلق كلهم عليك. قال: فجعل يبكي ويشهق. قال: فرددت عليه، يا حسن الوجه حساب الخلق كلهم عليك. قال: فجعل يبكي، حتى جاء الخادم، فحملوني فأخرجوني من الحِجر، وقالوا: اذهب بسلام"[1].

وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده عن عبد الرزاق بن هـمام الصنعاني قال: كنتُ مَعَ الفُضَيْل بمكة، فمرَّ هـارون، فقال فُضَيْل: "النّاسُ يكرهون هـذا، وما في الأرض أعز عليَّ منه، لو مات لرأيت أمورًا عظامًا". وبسنده أيضًا عن يحيى بن أبي طالب، قَالَ: حَدَّثَنَا عثمان بن كثير الواسطي، قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: "ما من نفس تَموت أشد علي موتًا من هـارون أمير المؤمنين"، قال: وددت أنه، أو قال: "ولوددت أن الله، زاد في عمره من عمري"، قال: فكبر ذلك علينا، فلما مات هـارون، وظهرت تلك الفتن، وكان من المأمون ما حَمل الناس على قول القرآن مَخلوق، قلنا: الشيخ كان أعلم بِما تكلم به[2].

(1) ابن عساكر: تاريخ دمشق، 48/ 436.

(2) انظر أخبار الرشيد مع الفضيل في: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 16/ 13 - 18. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 1223 - 1225.

خامسًا: هارون الرشيد
مع الإمام الشافعي (مجدد الإسلام)

الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس الشافعي المُطَّلِبيُّ (150هـ – 204هـ)، عالم العصر، ناصر الحديث، إمام الدين والدنيا، مجدد الإسلام عل رأس المائة الثانية، اتفق مولد الإمام بغزة، ومات أبوه إدريس شابًا، فنشأ محمد يتيمًا في حجر أمه، فخافت عليه الضيعة، فتحولت به إلى محتده وهو ابن عامين، فنشأ بمكة، وأقبل على الرمي، حتى فاق فيه الأقران، وصار يصيب من عشرة أسهم تسعة، ثم أقبل على العربية والشرع، فبرع في ذلك وتقدَّم. ثم حبب إليه الفقه، فساد أهل زمانه. وأخذ العلم بمكة عن مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة، وسفيان بن عيينة، وفضيل بن عياض، وغيرهم، وارتحل وهو ابن نيف وعشرين سنة، وقد أفتى وتأهل للإمامة إلى المدينة، فحمل عن مالك بن أنس (الموطأ)، عرضه من حفظه. وأخذ باليمن عن مطرف بن مازن، وطائفة. وببغداد عن محمد بن الحسن، فقيه العراق، ولازمه. وصنف التصانيف، ودوَّن العلم، ورد على الأئمة متبعًا الأثر، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وبَعُد صيته، وتكاثر عليه الطلبة. من أشهر تصانيفه: الأم، والرسالة، والمسند، واختلاف الحديث، وغيرها كثير.

نظر إليه سفيان بن عيينة مرة، فقال: "هَذَا أَفْضَلُ فِتْيَانِ أَهْلِ زَمَانِهِ"، وقال له شيخه مسلم بن خالد الزنجي: "قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تُفْتِيَ"، وهو ابن خمس عشرة سنة. وقال أحمد بن حنبل: "ما أحد مس محبرة ولا قلمًا إلا وللشافعي في عنقه مِنَّة". وعنه أيضًا: "يقيض للنَّاس فِي رَأس كل مائَة سنة من يعلمهُمْ السّنَن وينفي عَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم الْكَذِب، فَنَظَرْنَا فَإِذا فِي رَأس الْمِائَة عمر بن عبد الْعَزِيز، وَفِي رَأس الْمِائَتَيْنِ

الشَّافِعِي". وقال الأصمعي: "أخذت شعر هـذيل عن الشافعي".

وقد قدم الشافعي بغداد سنة أربع وثمانين ومائة، ولازم محمد بن الحسن مدة، ولم يلق أبا يوسف القاضي، مات قبل قدوم الشافعي. وقال الإمام سحنون: "لم يكن في الشافعي بدعة". وصدق والله، فرحم الله الشافعي، وأين مثل الشافعي والله في صدقه، وشرفه، ونبله، وسعة علمه، وفرط ذكائه، ونصره للحق، وكثرة مناقبه رحمه الله(1).

كان أول دخول الإمام الشافعي بغداد سنة 184هـ مقيدًا بالحديد؛ ليمثل أمام هـارون الرشيد، وقد اختلفوا في سبب ذلك، فقد روى ابن كثير عن ابن أبي حاتم بسنده عن الشافعي: أنه ولي الحُكْمَ بنجران من أرض اليمن، ثُمَّ تعصبوا عليه ووشوا به إلى الرشيد أنه يروم الخلافة، فَحُمِلَ على بغل فِي قيد إلى بغداد، فدخلها في سنة أربع وثمانين ومائة، فاجتمع بالرشيد فتناظر هـو ومحمد بن الحسن بين يدي الرشيد، وأحسن القول فيه محمد بن الحسن، وَتَبَيَّنَ للرشيد بَرَاءَتَهُ مما نسب إليه، وأنزله محمد بن الحسن عنده(2).

وهناك رواية أخرى أن مصعب بن عبد الله قال للشافعي: "إن هـارون الرشيد كتب إليَّ أن أصير إلى اليمن قاضيًا (بدلًا من مطرف بن مازن قاضي اليمن) فتخرج معنا"، فخرج الشافعي معه، فكان من أمر الشافعي أن جالس الناس، وصار فيهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى علا نجمه، فوشى إليه مطرف بن مازن، وكتب إلى الرشيد: " إن أردت اليمن لا يفسد عليك ولا يخرج من يديك، فأخرج عنه محمد بن إدريس، وذكر أقوامًا من الطالبيين». ووصف الشافعي بأنه «يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه»، فأمر الرشيد عامله على اليمن حماد البربري

(1) ابن عبد البر: الانتقاء في فضائل الثلاثة (أبو حنيفة ومالك والشافعي)، ص66 - 71. الذهبي: سير أعلام النبلاء، 10/ 5 - 99. بتصرف.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 133.

بإحضار الشافعي ومن معه من الطالبيين، فأوثقوا بالحديد، وأمر بمحاكمتهم جميعًا بحضور قاضي القضاة محمد بن الحسن. وكان صديقًا للشافعي وأحد الذين جالسوه في العلم وأخذوا عنه، فلما بلغه أن الشافعي في القوم الذين أخذوا وَاتُّهِمُوا بالطعن على الرشيد، والسعي عليه، اغتم لذلك غمًا شديدًا، وراعى وقت دخولهم على الرشيد.

فلما مثَّلوا بين يدي الرشيد أقرَّ الطالبيون بثورتهم ضد الخلافة العباسية، فأعدموا، ولم يبق إلا حَدَثٌ علوي والشافعي، فقال الرشيد للعلوي: «أأنت الخارج علينا والزاعم أني لا أصلح للخلافة؟» فقال العلوي: «أعوذ بالله أن أدعي ذلك أو أقوله». فأمر الرشيد بضرب عنقه. فقال له العلوي: «إن كان لابد من قتلي، فأنظرني أكتب إلى أمي بالمدينة فهي عجوز لم تعلم بخبري». فأمر بقتله فقتل. ثم قدم الشافعي، ومحمد بن الحسن جالس مع الرشيد، فقال الرشيد مثل ما قال للفتى، فقال الشافعي: «يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي، وإنما دخلت في القوم بغيًا عليَّ، وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف من قصي، ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه والقاضي يعرف ذلك، أنا محمد بن إدريس بن العباس ..» .

فقال الرشيد: «أنت محمد بن إدريس؟» قال: «نعم يا أمير المؤمنين». قال: «ما ذكرك لي محمد بن الحسن». ثم عطف على محمد بن الحسن فقال: «يا محمد، ما يقول هـذا هـو كما يقوله؟» قال: «نعم وله من العلم محل كبير وليس الذي رفع عليه من شأنه». قال: «فخذه إليك حتى أنظر في أمره». قال الشافعي: «فأخذني محمد وكان سبب خلاصي لما أراد الله عز وجل منه». فبرَّت ساحة الشافعي مما نسب إليه، ولازم محمد بن الحسن وكتب عنه وقر بعير[1].

والأرجح من تلك الروايات ما أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في الحلية أن الشافعي لما رحل إلى اليمن، خرج بها أحد الخوارج على هـارون الرشيد، فشنَّع

(1) ابن عبد البر: الانتقاء في فضائل الثلاثة (أبو حنيفة ومالك والشافعي)، ص97 – 98.

عليه الشافعي وطعن عليه وأعرض عمن ساعده، ورفع من قعد عنه، فبلغ ذلك الخارجي ما يقول فيه فبعث إليه، فأحضره عنده وهمَّ بقتله، فلما سمع كلامه، وتبين له شرفه، وفضله وعفته عفا عنه، ثُمَّ أَشْخَصَ هـارون جيشه إلى ذلك الْخَارِجِيِّ، فقبض عليه وَحُمِلَ إِلَى هـارون، وَحُمِلَ مَعَهُ الشَّافِعِيُّ، وَأُحْضِرَا جَمِيعًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا، فقال له الشافعي: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْمَعَ كَلَامِي، وَتَجْعَلُ عُقُوبَتَكَ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِي، ثُمَّ تَضُمَّنِي بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا يَلِيقُ لِي مِنَ الشِّدَّةِ أَوِ الرَّخَاءِ»، فقال له: «هَاتِ». فَبَيَّنَ له القصة وَعَرَّفَهُ شرفه، وذكر له كلامًا اسْتَحْسَنَهُ هـارون، وأمره الرشيد أن يعيده عليه، فأعاد تلك المعاني بألفاظ أعذب منها. فقال له هـارون: «كَثَّرَ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي مِثْلَكَ»، وكان محمد بن الحسن حاضرًا، فَلَمْ يَقْصُرْ وَخَلَّى له السبيل، وسأله محمد بن الحسن، فنزل عليه أيامًا، ثُمَّ سأله الشافعي أن يمكِّنه من كتبه، وكتب أبي حنيفة، فأجابه[1].

ومنذ ذلك الحين علت شهرة الشافعي في بغداد، وتكررت اللقاءات بينه وبين هـارون، وكان الرشيد إذا أراد لقاء الشافعي يقول لحاجبه الفضل بن الربيع: «عَلَيَّ بِهَذَا الْحِجَازِيِّ». وكان هـارون يحب أن تعقد المناظرات العلمية والفقهية بحضرته، فدعا الشافعي مرة لمناظرة بينه وبين محمد بن الحسن وبشر المريسي، فقال محمد بن الحسن: «هَاتِ مَسْأَلَةً يَا شَافِعِيُّ نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا»، فقال له الشافعي: «سَلُونِي عَمَّا أَحْبَبْتُمْ»، فتجرد بشر، وقال له: «لَوْلَا أَنَّكَ فِي مَجْلِسِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَتُهُ فَرْضٌ، لَنُنْزِلَنَّ بِكَ مَا تَسْتَحِقُّهُ، فَلَيْسَ أَنْتَ فِي كَنَفِ الْعُمُرِ وَلَا أَنْتَ فِي ذِمَّةِ الْعِلْمِ فَيَلِيقُ بِكَ هـذَا». فقال له الشافعي: «عَضَّ مَا أَنْتَ». وذا بلغة أهل اليمن، فأنشأ يقول:

أَهَابُكَ يَا عَمْرُو مَا هـبْتَنِي ... وَخَافَ بُشْرَاكَ إِذْ هـبْتَنِي

وَتَزْعُمُ أُمِّي عَنْ أَبِيهِ ... مِنَ أَوْلَادِ حَامَ بِهَا عِبْتَنِي

---

(1) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9/ 81.

فأجابه الشافعي، وهو يقول:

وَمَنْ هـابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوهُ　　وَمَنْ حَقَرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يَهَابَا
وَمَنْ قَضَتِ الرِّجَالُ لَهُ حُقُوقًا　　وَلَمْ يَعْصَ الرِّجَالَ فَمَا أَصَابَا

فأجابه بشر، وهو يقول:

هَذَا أَوَانُ الْحَرْبِ فَاشْتَدِّي زِيَمْ

فأجابه الشافعي، وهو يقول:

سَيعْلَمُ مَا يُرِيدُ إِذَا الْتَقَيْنَا　　بِشَطِّ الرَّابِ أَيَّ فَتًى أَكُونُ

فقال بشر: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ دَعْنِي وَإِيَّاهُ». فقال له هـارون: «شَأْنَكَ وَإِيَّاهُ». وجرت بينهم مسائل كثيرة، أجاب عليها الشافعي إجابات تدل على سعة علمه وفقهه، فقال له هـارون الرشيد: «أَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتَ الْقُدْوَةُ، فَلَا يَدْخُلْ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ قَبْلَكَ». وأمر له الرشيد بخمسين ألف درهم، فانصرف الشافعي إلى بيته، وليس معه شيء، قَدْ تصدق بجميع ذلك، ووصل به الناس[1].

وأَمَرَ الرشيد للشافعي مرةً بألف دينار، فَقَبِلَهَا، فأمر الرشيد خادمه سراجًا باتباعِهِ، فما زال الشافعي يفرقها قبضة قبضة، حتى انتهى إلى خارج الدار، وما معه إلا قبضة واحدة، فدفعها إلى غلامه، وقال: «انْتَفِعْ بِهَا». فأخبر سراج الرشيد، بذلك، فقال: «لِهَذَا فَرَغَ هـمُّهُ، وَقَوِيَ مَتْنُهُ»[2].

وأخرج ابن أبي حاتم الرازي بسنده عن الشافعي، قال: خرج هـرثمة فأقرأني سلام أمير المؤمنين هـارون الرشيد، وقال: قد أمر لك بخمسة آلاف دينار. قال: فحُمل إليه المال، فدعا بِحَجَّامٍ فأخذ من شعره وأعطاه خمسين دينارًا، ثم أخذ رِقَاعًا وَصَرَّ من تلك الدنانير صُرَرًا، ففرقها في القرشيين الذين هـم بالحضرة، ومن

(1) أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 9/ 82 – 84.
(2) السابق، 9/ 131.

هــم بمكة، حتى ما رجع إلى بيته إلا بأقل من مائة دينارٍ[1].

ودخل الشافعي يومًا إلى بعض حجر هــارون الرشيد ليستأذن له، ومعه سراج الخادم، فأقعده عند أبي عبد الصمد مؤدب أولاد هــارون الرشيد. فقال سراج للشافعي يا أبا عبد الله هـؤلاء أولاد أمير المؤمنين وهذا مؤدبهم فلو أوصيته بهم، فأقبل الشافعي على أبي عبد الصمد فقال له: «لِيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَبْدَأُ بِهِ مِنْ إِصْلَاحِ أَوْلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِصْلَاحُ نَفْسِكَ؛ فَإِنَّ أَعْينَهُمْ مَعْقُودَةٌ بِعَيْنِكَ، فَالْحَسَنُ عِنْدَهُمْ مَا تَسْتَحْسِنُهُ وَالْقَبِيحُ عِنْدَهُمْ مَا تَرَكْتَهُ. عَلِّمْهُمْ كِتَابَ اللَّهِ، وَلَا تُكْرِهْهُمْ عَلَيْهِ فَيَمَلُّوهُ، وَلَا تَتْرُكَهُمْ مِنْهُ فَيَهْجُرُوهُ، ثُمَّ رَوِّهِمْ مِنَ الشِّعْرِ أَعَفَّهُ، وَمِنَ الْحَدِيثِ أَشْرَفَهُ، وَلَا تُخْرِجَنَّهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يُحْكِمُوهُ، فَإِنَّ ازْدِحَامَ الْكَلَامِ فِي السَّمْعِ مَضِلَّةٌ لِلْفَهْمِ»[2].

وبعث هــارون الرشيد للشافعي يومًا، فجعل يسأله في اللغة والفقه وعلوم العربية، والشافعي يجيبه بما يشفي صدره ويقرُّ عينه، فقال له: «يَا شَافِعِيُّ، لَوْلَا أَنَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ لَقُلْتُ: إِنَّكَ مِمَّنْ لِينَ لَهُ الْحَدِيدُ، فَهَلْ مِنْ مَوْعِظَةٍ؟»، فقال الشافعي: «إِنَّكَ تَخْلَعُ رِدَاءَ الْكِبْرِ عَنْ عَاتِقِكَ، وَتَضَعُ تَاجَ الْهَيْبَةِ عَنْ رَأْسِكَ، وَتَنْزِعُ قَمِيصَ التَّجَبُّرِ عَنْ جَسَدِكَ، وَتُفَتِّشُ نَفْسَكَ، وَتَنْشُرُ سِرَّكَ، وَتُلْقِي جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِكَ، مُسْتَكِينًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ. وَأَكُونُ وَاعِظًا لَكَ عَنِ الْحَقِّ، وَتَكُونُ مُسْتَمِعًا بِحُسْنِ الْقَبُولِ؛ فَيَنْفَعَنِي اللَّهُ بِمَا أَقُولُ، وَيَنْفَعُكَ بِمَا تَسْمَعُ».

فقال له الرشيد: «أَمَا إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ وَسَمِعْتُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ، وَلِلْوَاعِظِينَ بَعْدَهُمَا، فَعِظْ وَأَوْجِزْ». فحل الشافعي عنه إزاره، وحسر عن ذراعيه، وقال: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ امْتَحَنَكَ بِالنِّعَمِ، وَابْتَلَاكَ بِالشُّكْرِ فَفَضْلُ النِّعْمَةِ أَحْسَنُ لِتَسْتَغْرِقَ بِقَلِيلِهَا كَثِيرًا مِنْ شُكْرِكَ، فَكُنْ لِلَّهِ تَعَالَى شَاكِرًا، وَلِآلَائِهِ ذَاكِرًا، تَسْتَحِقَّ مِنْهُ الْمَزِيدَ. وَاتَّقِ اللَّهَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، تَسْتَكْمِلِ الطَّاعَةَ، وَاسْمَعْ لِقَائِلِ الْحَقِّ وَإِنْ كَانَ دُونَكَ

(1) ابن أبي حاتم: مناقب الشافعي، ص95 – 96.

(2) السابق، 9/ 147.

تَشْرُفْ عِنْدَ اللَّهِ، وَتَزِدْ فِي عَيْنِ رَعِيَّتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْتِشُ سِرَّكَ، فَإِنْ وَجَدَهُ بِخِلَافِ عَلَانِيَتِكَ شَغَلَكَ بِهَمِّ الدُّنْيَا، وَفَتَقَ لَكَ مَا يَزْنِقُ عَلَيْكَ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حُمَيْدٌ، وَإِنْ وَجَدَهُ مُوَافِقًا لِعَلَانِيَتِكَ أَحَبَّكَ، وَصَرَفَ هَـمَّ الدُّنْيَا عَنْ قَلْبِكَ، وَكَفَاكَ مَؤنَةَ نَظَرِكَ لِغَيْرِكَ، وَتَرَكَ لَكَ نَظَرَكَ لِنَفْسِكَ، وَكَانَ الْمُقَوِّيَ لِسِيَاسَتِكَ. وَلَنْ تُطَاعَ إِلَّا بِطَاعَتِكَ لِلَّهِ تَعَالَى، فَكُنْ طَائِعًا تَكْتَسِبْ بِذَلِكَ السَّلَامَةَ فِي الْعَاجِلِ وَحُسْنَ الْمُنْقَلَبِ فِي الآجِلِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: 128]، وَاحْذَرِ اللَّهَ حَذَرَ عَبْدٍ عَلِمَ مَكَانَ عَدُوِّهِ، وَغَابَ عَنْهُ وَلِيُّهُ، فَتَيَقَّظَ خَوْفَ السُّرَى، لَا تَأْمَنْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ لِتَوَاتُرِ نِعَمِهِ عَلَيْكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ لَكَ، وَذَهَابٌ لِدِينِكَ، وَأَسْقِطِ الْمَهَابَةَ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَعَلَيْكَ بِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضِلُّ الْمُسْتَرْشِدُ بِهِ، وَلَنْ تُهْلَكَ مَا تَمَسَّكْتَ بِهِ، فَاعْتَصِمِ بِاللَّهِ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَعَلَيْكَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَكُنْ عَلَى طَرِيقَةِ الَّذِينَ هَـدَاهُمُ اللَّهُ، فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِ وَمَا نَصَبَ الْخُلَفَاءُ الْمَهْدِيُّونَ فِي الْخَرَاجِ وَالْأَرَضِينَ وَالسَّوَادِ وَالْمَسَاكِنِ وَالدِّيَارَاتِ فَكُنْ لَهُمْ تَبَعًا، وَبِهِ عَامِلًا رَاضِيًا مُسَلِّمًا وَاحْذَرِ التَّلْبِيسَ فِيهِ، فَإِنَّكَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِكَ، وَعَلَيْكَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ فَاقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَآتِهِمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَتَاكَ، وَلَا تُكْرِهْهُمْ عَلَى إِمْسَاكٍ عَنْ حَقٍّ، وَلَا عَلَى خَوْضٍ فِي بَاطِلٍ فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ مَكَّنُوا لَكَ الْبِلَادَ وَاسْتَخْلَصُوا لَكَ الْعِبَادَ وَنَوَّرُوا لَكَ الظُّلْمَةَ وَكَشَفُوا عَنْكَ الْغُمَّةَ، وَمَكَّنُوا لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَعَرَّفُوكَ السِّيَاسَةَ، وَقَلَّدُوكَ الرِّيَاسَةَ، فَنَهَضْتَ بِثِقْلِهَا بَعْدَ ضَعْفٍ، وَقَوِيتَ عَلَيْهَا بَعْدَ فَشَلٍ، كُلَّ ذَلِكَ يَرْجُوكَ مَنْ كَانَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ لِعِفَّتِهِمْ، طَمَعَ الزِّيَادَةِ لَهُمْ؛ فَلَا تُطِعِ الْخَاصَّةَ تَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ بِظُلْمِ الْعَامَّةِ، وَلَا تُطِعِ الْعَامَّةَ تَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ بِظُلْمِ الْخَاصَّةِ؛ لِتَسْتَدِيمَ السَّلَامَةُ، وَكُنْ لِلَّهِ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَكَ أَوْلِيَاؤُكَ مِنَ الْعَامَّةِ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ؛ فَإِنَّهُ مَا وُلِّيَ أَحَدٌ عَلَى عَشَرَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَمْ يُحِطْهُمْ بِنَصِيحَةٍ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَدُهُ مَغْلُولَةٌ إِلَى عُنُقِهِ لَا يَفُكُّهَا إِلَّا عَدْلُهُ، وَأَنْتَ أَعْرَفُ بِنَفْسِكَ».

فبكى الرشيد – وقد كان في خلال هـذه الموعظة يبكي لا يسمع له صوت –

فلما بلغ إلى هـذا الفصل بكى الرشيد وعلا نحيبه وبكى جلساؤه، فقال الوالي: «يَا هـذَا الرَّجُلَ، احْبِسْ لِسَانَكَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ قَطَعْتَ قَلْبَهُ حُزْنًا»، وقال محمد بن الحسن وهو قائم على قدمه: «اغْمِدْ لِسَانَكَ يَا شَافِعِيُّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُ أَمْضَى مِنْ سَيْفِكَ»، والرشيد يبكي لا يفيق. فأقبل الشافعي على محمد والجماعة فقال: «اسْكُتُوا أَخْرَسَكُمُ اللَّهُ، لَا تَذْهَبُوا بِنُورِ الْحِكْمَةِ يَا مَعْشَرَ عُبَيْدِ الرِّعَاعِ، وَعُبَيْدِ السَّوْطِ وَالْعَصَا، أَخَذَ اللَّهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكُمْ لِتَلْبِيسِكُمُ الْحَقَّ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَرِثُكُمُ الْمَلِكَ لَدَيْهِ، أَمَا وَاللَّهِ مَا زَالَتِ الْخِلَافَةُ بِخَيْرٍ مَا صُرِفَ عَنْهَا أَمْثَالُكُمْ، وَلَنْ تَزَالَ بِشَرٍّ مَا اعْتَصَمَتْ بِكُمْ».

فرفع الرشيد رأسه وأشار إليهم أن كُفُّوا، وأقبل عليَّ بسيف، فقال: «خُذْ هـذَا الْكَهْلَ إِلَيْكَ، وَلَا تَحُلَّنِي مِنْهُ». ثم أقبل على الشافعي، فقال: «قَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِصِلَةٍ فَرَأْيُكَ فِي قَبُولِهَا مُوقَفٌ». فقال له الشافعي: «كَلَّا، وَاللَّهِ لَا يَرَانِي اللَّهُ تَعَالَى قَدْ سَوَّدْتُ وَجْهَ مَوْعِظَتِي بِقَبُولِ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا، وَلَقَدْ عَاهَدْتُ اللَّهَ عَهْدًا أَنِّي لَا أُخْلَطُ بِمَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ تَكَبَّرَ فِي نَفْسِهِ وَتَصَغَّرَ عِنْدَ رَبِّهِ إِلَّا ذَكَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى، لَعَلَّهُ أَنْ يُحْدِثَ لَهُ ذِكْرًا». ثم إن الشافعي بعد ذلك دخل على الرشيد فأمر له بألف دينار فقبلها، فضحك الرشيد، وقال: «لِلَّهِ دَرُّكَ مَا أَفْطَنَكَ؟ قَاتَلَ اللَّهُ عَدُوَّكَ فَقَدْ أَصْبَحَ لَكَ وَلِيًّا»[1].

خلاصة القول

أن هـؤلاء كانوا أعلام بطانة هـارون الرشيد رحمه الله، ومن تشكَّلت بهم شخصيته وملامح خلافته، دفعًا لما افتراه الكاذبون عليه، وما توهَّمه الكثيرون أن حياته كانت مليئة بالمجون والخلاعة واللهو والموسيقى والرقص والغناء، على نحو ما نقرأه في حكايات ألف ليلة وليلة وما سار على منوالها. كانت هـذه البطانة الصالحة لأعلام السلف في العلم والفقه والدين، خير دليل على صلاح سيرة الرشيد وحسن سياسته، وعنايته بتطبيق الشرع وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ونحن لا ندَّعي للرشيد العصمة، بقدر ما نتحرى في سيرته الصدق والأمانة.

(1) السابق، 9/ 89 – 90.

الباب الثاني: سياسة هارون الرشيد الخارجية

هذه الصفحات تعرض الجانب المشرق الذي شوَّهَهُ الحاقدون والمستشرقون، جانب الجهاد والعظمة للخليفة المسلم، الذي توافرت للخلافة الإسلامية في عصره عناصر السيادة والقوة والمهابة، الكل يخطب ودَّه ويقدِّم له يد الطاعة والجزية.

لَقَد اتَّقيْتَ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَجَاهدَّتَ نَفسَكَ فَوقَ جهْدِ المُتَّقِي

وأخفْـت أهل الشركِ حتى أنهُ لتخافُك النطفُ التي لم تُخْلَقِ

الشاعر أبو نواس مادحًا هـارون الرشيد.

ابن عبد ربه: العقد الفريد (6/ 183)

الفَصْلُ الأَوَّلُ

سياسة الرشيد مع الإمبراطورية البيزنطية

- أولًا : العلاقة بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية.
- ثانيًا : سياسة الرشيد مع الإمبراطورية البيزنطية.

«بنى الثغور، ومَدَّن المدن، وحَصَّن فيها الحصون،..، وأحكم بناء الحرب، وغير ذلك من دور السبب والمواضع للمرابطين، واتبعه عماله، وسلكوا طريقته، وقَفَتْهُ رعيف مقتدية بعمله، مُسْتَنِدة بإمامته، فقمع الباطل، وأظهر الحق، وأنار الأعلام، وبرز على سائر الأُمم»

المسعودي: مروج الذهبي (4/ 252)

هذه صورة مشرقة لطالما تغافل عنها مزورو التاريخ عمدًا عند تناولهم لسيرة الرشيد رحمه الله، فليس الرشيد هنا ذلكم اللاهي العابث كما يشيعون عنه في كتب الأدب والمحاضرات، وإنما هنا ذلكم المجاهد الغازي المنصور، الذي يهاب لقاءه أباطرة الغرب، ويتودد إليه ملوك العالم، حتى لقِّب بجبار بني العباس، قال القلقشندي: «جبار بني العباس هو هارون الرشيد؛ لأنه أغزى ابنه القاسم الروم فقتل منهم خمسين ألفًا، وأخذ منهم خمسة آلاف دابة بالسروج واللجم الفضة، وأغزى علي بن عيسى بن ماهان بلاد الترك فقتل منهم أربعين ألفًا، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هرقلة، وأخذ الجزية من ملك الروم»[1].

لا يروق لهؤلاء من المستشرقين ومن في أذنابهم أن تكون هذه صورة الحاكم، الذي يجمع بين حب رعيته وبطشه بأعدائه، فعملوا على تشويه كل حميدة عند الرشيد، حتى لكأنك تسمع كلمة الرشيد، فلا يدور في خلدك إلا الملاهي والمذات.

وليس الرشيد كذلك!!

فسيرته رحمه الله قبل خلافته وجهاده في زمن والده المهدي، تدل على مدى شغفه بالجهاد، إذ هو ذروة سنام الإسلام، وكأن المهدي كان يعدُّ ولده هارون لحروب دامية بينه وبين البيزنطيين، وعليه فلابد من إعداده العدة القوية، من خلال قيادته لجيوش أبيه في غزو البيزنطيين، وقد رأينا ذلك في غزوة 164هـ/ 780م، وغزوة 165هـ/ 781م.

ففي 14 ربيع الأول سنة 170هـ / 14 سبتمبر 786 م، بويع هارون الرشيد خليفة للمسلمين وأميرًا للمؤمنين، وله من العمر 22 سنة، وكان من جملة ما ورثه عن آبائه الجهاد، وقد استكثر بعض الناس أن الرشيد رحمه الله كان يغزو عامًا ويحج عامًا.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 1/ 452.

مع أن التحقيق العلمي السليم يؤكد ذلك ويثبته بالأرقام والجهات والسنوات.

إن من حسنات الرشيد أنه كان يكثر الحج والغزو، واتخذ قلنسوة مكتوب عليها: غازٍ حاجٍ. وذكر المؤرخون أنه كان يحج سنة ويغزو سنة، حج في خلافته ثماني حجج وغزا ثماني غزوات، وفيه يقول ابن أبى السَّعْلِيِّ، وقيل أَبُو الْمُعَلَّى الْكِلَابِيُّ:

فَمَنْ يَطْلُبْ لِقَاءَكَ أَوْ يُرِدْهُ ... فَبِالْحَرَمَيْنِ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ

فَفِي أَرْضِ الْعَدُوِّ عَلَى طِمِرٍّ ... وَفِي الأَرْضِ التَّرَفُّهِ فَوْقَ كور

وقد روي أن الرشيد في بعض الشواتي غمره الثلج، فقال له بعض أصحابه: «أما ترى يا أمير المؤمنين ما نحن فيه من الجهد، والرعية وادعة، فقال: اسكت، على الرعية المنام، وعلينا القيام، ولا بد للراعي من حراسة رعيته». فقال بعض الشعراء فِي ذلك:

غضبت لغضبتك القواطع والقنا ... لما نهضت لنصرة الإسلام

ناموا إِلَى كنف بعدلك واسع ... وسهرت تحرس غفلة النوَّام (1)

وإليكم الدليل..

(1) المسعودي: التنبيه والإشراف، جـ1/ 299. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 321. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، 8/ 325.

أولًا: العلاقة بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية

الإمبراطورية البيزنطية[1] هي تلك التي مركزها القسطنطينية، وقد ناصبت الدولة الإسلامية العداء، ورفعت راية الحرب الصليبية قرونًا طوالًا، حتى أسقطها العثمانيون إلى الأبد بفتح القسطنطينية جمادى الأولى 857هـ / مايو 1453م. ونظرًا للحدود المشتركة بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، فكان من الطبيعي أن تقوم بينهما الحروب، التي اتسمت بالصبغة الدينية الجهادية؛ نظرًا لطبيعة الصراع بينهما، وهو صراع ديني عقدي في الأساس.

ولم تتوقف حركة الجهاد الإسلامي ضد البيزنطيين منذ رسول الله ﷺ مرورًا بفترة الخلفاء الراشدين، إلا أنها اتسمت بالقوة والجرأة في عهد الخلافة الأموية، إذ انطلقت الجيوش الإسلامية تهاجم البيزنطيين في عقر دارهم، حتى وصلت إلى حصار القسطنطينية نفسها.

ورث العباسيون النزاع مع البيزنطيين، وهو تتمة النضال القديم بين الشرق والغرب، ونزاعهما أمر لا بد منه لوجود الحدود المشتركة بين الدولتين في الأناضول وأرمينية من جهة، ولوجود مصالح اقتصادية متعارضة ناتجة عن الإشراف على التجارة من الشرق والغرب من جهة أخرى، فهناك طريقان من الهند والصين وآسيا الوسطى وبين أوروبا الشرقية، أحدهما بري يمر بإيران والقفقاس، والآخر - وهو جنوبي - بحري ويمر بالبصرة وبغداد والموصل، فكان على التجارة أن تمر بأراضي المسلمين، وأن تدفع مكوسًا للخليفة قبل أن تصل إلى

(1) كانت الإمبراطورية البيزنطية تعرف عند العرب باسم الروم.

القسطنطينية، التي ظلت مركزًا للأسواق التجارية في أوروبا الشرقية [1].

غير أن تهديد المسلمين للحدود البيزنطية في العصر العباسي قلَّ بصورة جليَّة؛ نظرًا لانتقال مقر الخلافة من بلاد الشام - القريبة من الثغور - إلى الأنبار ثم بغداد في العراق، فأصبح الاستيلاء على القسطنطينية حلمًا لا هـدفًا. فلم تعدو المناوشات بين الطرفين سوى غارات يصحبها سبي أو غنائم أو قتل وترهيب لعدو، على عكس سياسة التوسع التي انتهجتها الخلافة الأموية.

وذلك يرجع إلى أسباب منها: انشغال العباسيين بقمع الحركات الداخلية التي كانت تهدف لإسقاط الدولة، والهدوء النسبي في البحر الأبيض المتوسط، لانشغال الفرنجة عن البحر المتوسط بمشاكلهم الداخلية، وانشغال البيزنطيين بحروب البلغار في أوروبا، وإن تمكنوا من السيطرة البحرية لأكثر من نصف قرن [2].

هناك أمر آخر وهو أن العباسيين ورثوا مشكلة كبرى نتيجة ضعف الخلافة الأموية في أواخر عهدها، وهي مشكلة النفوذ البيزنطي، فقد تحصن البيزنطيون في مواقع حصينة في جبال طوروس وآسيا الصغرى وبحر مرمرة، يطلون منها في ساعات الضعف أو الانشغال، ويتقهقرون إليها في ساعات القوة والوحدة، وهو ما عانى منه العباسيون الأوائل[3]. فقد استغل البيزنطيون الفوضى السائدة في أواخر الأمويين، فاسترجعوا جزيرة قبرص سنة 128هـ/ 746م، وبدأ البيزنطيون علاقاتهم مع العباسيين في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس بالهجوم على الحدود، وذلك سنة 133هـ/ 751م، فحاصر ملطية ودمرها وخربها، ثم بولي، ثم أرسل قائده الأرمني كوشن فسيطر على كُمَّخ ثم أرضروم، ونقل سكانهما إلى بيزنطة، واستولى على الحدث وقولدية وسميساط، بل وتمكن من تدمير خط

(1) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص73.

(2) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص189 - 190.

(3) حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص162 - 163.

حصون الفرات، ثم الخط الممتد من الفرات إلى البحر، وهدد النظام الثغري كله تهديدًا خطيرًا [1].

وقد جاء الرد العباسي سريعًا، إذ وقف الخليفة أبو العباس السفاح ومن بعده أبو جعفر المنصور موقفًا حازمًا من البيزنطيين، مستغلين الحرب الداخلية بين البيزنطيين بسبب الخلاف على الأيقونات، فضلًا عن حروب قسطنطين مع البلغار، ولم تمض ست سنوات (133 – 139هـ/ 751 – 756، 757م) من تنظيم الصفوف والجهاد حتى استرجع العباسيون ملطية ثم بولي والحدث وسميساط، وأمر المنصور بتعمير الحصون والثغور، فحصن المصيصة 139هـ – 140هـ، كما بنى مرعش سنة 139هـ، وقام بتحصين أهم ثغور الجزيرة وهي مدينة ملطية [2]. وهكذا فإنه يبدو واضحًا أن المنصور اهتم اهتمامًا بالغًا بالثغور وبث الثقة في أهاليها، وفوق كل هـذا فقد حدد أسلوب القتال وتقاليده، حافظ عليها الخلفاء الذين تعقبوه، وهو نظام الصوائف والشواتي.

وقد اتبع المهدي (158 – 169هـ) سياسة أبيه، فاهتم ببناء الحصون ومواجهة الأعداء، وقد كان يخرج بنفسه ويستصحب معه ابنه هـارون، واستطاع أن يرد حملات الإمبراطور البيزنطي ليو الرابع على الثغور، ومنها ما كان سنة 164هـ/ 780م، حيث وصل المهدي إلى نهر جيحان، وترك أمر القيادة لولده هـارون بمرافقة كبار القادة المشهورين من أمثال خالد بن برمك وعيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح وحسن بن قحطبة، فحاصر هـارون حصن سمالو (38 ليلة)، حتى استسلمت، ودخل العرب طرسوس وحصنوها بأمر الخليفة.

وكانت أكبر حملة قادها المهدي سنة 165هـ، التي أنفذ فيها الخليفة ابنه

(1) حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص162 – 163. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص390.

(2) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص73 – 74. بتصرف.

هــارون للمرة الثانية، ومعه عدد من القادة البارزين، منهم الربيع بن يونس ويزيد بن مزيد الشيباني، كان تعداد جيشها (95،793 جنديًا)، وهذا العدد يدل على أن الدولة العباسية كانت تلقي بثقلها كله في هــذه الحرب الضروس، وتوغل هــارون الرشيد في آسيا الصغرى ودمر حصن ماجدة، وواصل سيره حتى أشرف على خليج البحر الذي على القسطنطينية، وكانت حملة الرشيد هــذه المرة الأولى التي يصل فيها جيش إسلامي منذ عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك إلى مضيق البوسفور ويهدد العاصمة القسطنطينية، وكانت كذلك هــي خاتمة الحملات العربية على البوسفور.

وكان إمبراطور بيزنطة في ذلك الوقت الإمبراطورة إيرين أغسطة أرملة ليو الرابع والوصية على عرش ابنها الصغير قسطنطين السادس، وقد أظهر هــارون في هــذه الغزوة من البسالة ما أهله ليحمل لقب (الرشيد)، وكان من أثر ذلك النصر أن الإمبراطورة أيرين اضطرت إلى طلب الصلح، وعقدت هــدنة بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات، ونترك المجال للطبري يحكي لنا أحداث الغزوة ويعدد لنا نتائجها، يقول: «وصاحب الروم يومئذ أغسطة امرأة أليون، وذلك أن ابنها كان صغيرًا قد هــلك أبوه وهو في حجرها، فجرت بينهما وبين هــارون بن المهدي الرسل والسفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطائه الفدية، فقبل ذلك منها هــارون، وشرط عليها الوفاء بما أعطت له، وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه، وذلك أنه دخل مدخلًا صعبًا مخوفًا على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار، تؤديها في نيسان الأول في كل سنة، وفي حزيران، فقبل ذلك منها، فأقامت له الأسواق في منصرفه، ووجهت معه رسولًا إلى المهدي بما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعرض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وسلمت الأسارى وكان الذي أفاء الله على هــارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعين

رأسًا، وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفًا، وقتل من الأسارى صبرًا ألفان وتسعون أسيرًا، ومما أفاء الله عليه من الدواب الذلل بأدواتها عشرون ألف دابة، وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس، وكانت المرتزقة سوى المطوعة وأهل الأسواق مائة ألف، وبيع البرذون بدرهم، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم وعشرين سيفًا بدرهم».

وفي هـذه الغزوة الميمونة يقول الشاعر مروان بن أبي حفصة مخاطبًا الرشيد:

أَطَفْتَ بقسطنطينة الروم مُسنِدً إليها القنا حتى اكتسى الذلُّ سورُها

وما رُمْتَهَا حتى أتتك ملوكُـها بجزيتها، والحـرب تغلي قدورُهـا[1]

أما في عهد الخليفة الهادي (169 - 170هـ) فلم تكن تتوتر العلاقات كثيرًا بين الدولتين، لقصر المدة التي حكمها الهادي، ولانشغال البيزنطيين بمشاكلهم الداخلية، ولم تحدث مناوشات سوى مرة واحدة سنة 169هـ، فقد هـاجم البيزنطيون مدينة الحدث ودمروها وسووها أرضًا، فسيَّر الهادي صائفة بقيادة معيوف بن يحيى، يحكي الطبري فيقول: «وغزا الصائفة في هـذه السنة معيوف بن يحيى من درب الراهب، وقد كانت الروم أقبلت مع البطريق إلى الحدث، فهرب الوالي والجند وأهل الأسواق، فدخلها العدو، ودخل أرض العدو معيوف بن يحيى، فبلغ مدينه أشنة، فأصابوا سبايا وأسارى وغنموا»[2].

---

(1) انظر تفاصيل تلك الأحداث في: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 147 - 153. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص218 - 221. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص94 - 95. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص400 - 404. بتصرف.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 203 - 204.

ثانيًا: سياسة هارون الرشيد مع الإمبراطورية البيزنطية

حرص هارون الرشيد على استكمال النشاط الجهادي على الجبهة البيزنطية، فكانت غزواته سنوية أو شبه سنوية، وكان على رأس معظمها، فبعد ثلاثة أشهر من توليه الخلافة سنة 170هـ، خرج على رأس صائفة، ومعه قائدة سليمان بن عبد الله البكائي، وقد مدحه داوود بن رزين الشاعر بقوله:

بِهَارُونَ لَاحَ النُّورُ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... وَقَامَ بِهِ فِي عَدْلِ سِيرَتِهِ النَّهْجُ
إِمَامٌ بِذَاتِ اللَّهِ أَصْبَحَ شُغْلُهُ ... وَأَكْثَرُ مَا يُعْنَى بِهِ الْغَزْوُ وَالْحَجُّ
تَضِيقُ عُيُونُ النَّاسِ عَنْ نُورِ وَجْهِهِ ... إِذَا مَا بَدَا لِلنَّاسِ مَنْظَرُهُ الْبَلْجُ
وَإِنَّ أَمِينَ اللَّهِ هَارُونَ ذَا النَّدَى ... يُنِيلُ الَّذِي يَرْجُوهُ أَضْعَافَ مَا يَرْجُو[1]

والمتتبع لسيرة هارون الرشيد في حروبه مع البيزنطيين يلاحظ أن هناك ثمة تطورات جديدة استحدثها الرشيد، تدل على سعة الأفق وحسن القيادة والحمية لنصرة الدين والشريعة، منها:

أولًا: تنظيم العواصم والثغور

يقصد بالعواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية؛ لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين، ولأن المسلمين كانوا يعتصمون بها من العدو، ثم هي للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية، وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور، لمواجهتها للثغرات أو المنافذ التي في أرض العدو.

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 234. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 275. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص405.

وكانت الثغور تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الشمال الشرقي، وتسمى بالثغور الجزيرية، وتشمل الجزيرة شمال العراق وقنسرين، ومنها كذلك الحدث وزبطرة وحصن منصور.

القسم الثاني: الجنوب الغربي، وتسمى بالثغور الشامية، ومن أهم حصونها المصيصة وأذنة وطرسوس.

نظر الرشيد في بداية خلافته فوجد أن حدوده المواجهة للبيزنطيين تحتاج إلى تنظيم وإدارة وتحصين، فقام عام 170هـ/ 786م بفصل الثغور الشامية عن الجزيرة، وسماها العواصم بين شمال الجزيرة وشمال الشام، وجعلها منطقة عسكرية خاصة قاعدتها منبج في شمال شرق حلب، واهتم بتحصينها، ورتب فيها جيشًا دائمًا على طول الحدود، وكان الرشيد لا يولي هـذه الثغور إلا من يثق فيه ويأمن جانبه ودينه، وكان منهم ابنه القاسم بن الرشيد.

كذلك اهتم الرشيد بمنطقة الثغور الشامية على الحدود بين آسيا الصغرى وسوريا، فعمَّر فيها طرسوس 170هـ وأتم بناءها سنة 172هـ، كما أمر الرشيد سنة 180هـ ببناء مدينة عين زربه (ناورزا) وتحصينها وندب إليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم فأقطعهم بها المنازل، كما أقام فيها حصونًا جديدة مثل حصن الهارونية بين مرعش وعين زربه وذلك سنة 184هـ، وأمر ببناء مدينة الكنيسة السوداء وأمر بتحصينها وندب إليها المقاتلة في زيادة العطاء.

هكذا كان اهتمام الرشيد بمنطقة العواصم والثغور واضحًا وجليًّا في الداخل والخارج، حتى قال معاوية بن عمرو: «وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هـارون في الغزو نفاذ بصيرته في الجهاد أمرًا عظيمًا، أقام منَ الصناعة ما لم يقم قبله، وقسم الأموال في الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم»[1].

(1) البلاذري: فتوح البلدان، 1/ 163، 171. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 234. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 3/ 282. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة، 1/ 28. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 563. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص 221 – 222. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية – الخلافة العباسية، 3/ 245.

ثانيًا: الاهتمام بالجيش الإسلامي عدة وعتادًا

كان اهتمام الرشيد بالجيش الإسلامي على الحدود البيزنطية أمرًا حتميًا وضروريًا، نظرًا لطبيعة الصراع المستمر بين الطرفين على طول الخط، لذلك أولى الرشيد لجيشه عنايته، حتى تكامل قدرة ونظامًا وتدريبًا وكفاية، والدليل على ذلك القوات الهائلة التي جندها في منطقة العواصم والفرق التي سخرها في حملاته المتكررة والتي تدل على حسن التسليح وكفاية التدريب، حتى بلغ تعداد جيش الرشيد في فتح هـرَقْلَةَ سنة 190هـ مائة ألف وخمسة وثلاثين ألف مرتزق، سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له، كما قاد داوود بن عيسى وشراحيل بن معن بن زائدة في بعض الحملات سبعين ألفًا، فقد كان الجيش العباسي في عهد هـارون الرشيد من أكفأ الجيوش التي عرفها العالم إذ ذاك [1].

ثالثًا: الاهتمام بالبحرية الإسلامية

اعتنى الرشيد بالأسطول الإسلامي عناية كبيرة أكثر من أسلافه، فقد شهدت سنة 174هـ تحركات عسكرية بحرية للجيش العباسي، إذ كانت الاستعدادات جارية لغزو قبرص، فهاجم الأسطول البيزنطي بعض قطع البحرية العباسية القادمة من مصر إلى الشام، فردَّ هـارون الرشيد على هـذا الهجوم بهجوم على الأسطول البيزنطي، بواسطة الأسطول العباسي الشامي، في نفس العام على جزيرة قبرص، حتى وصل إلى خليج أطاليا (ATTALIA) على الجانب الجنوبي لآسيا الصغرى، وهزم الأسطول البيزنطي وأسر أمير البحر البيزنطي.

وقد ترتب على ذلك أن وافقت الإمبراطورية إيرين على دفع الجزية وتبادل الأسرى، وتعاهد أهل قبرص بالتزام الحياد بين الإمبراطورية البيزنطية والإسلامية، وأن يكون حكم قبرص مشتركًا بين البيزنطيين والدولة العباسية. وقد استمرت حملات

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 320. حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص167. بتصرف.

هـارون الرشيد على بيزنطة في السنوات من 175هـ إلى نهاية حكمة في 193هـ [1].

وكان الرشيد قد ولى حميد بن معيوف الهمداني الأسطول الإسلامي من سواحل الشام إلى مصر، وقد ذكر الطبري في حوادث 190هـ أنه تمكن من غزو قبرص، فهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفًا، وكان من بينهم أسقف قبرص، فتولى بيعهم أبو البختري القاضي، فبلغ أسقف قبرص ألفي دينار [2].

ونظرًا للتبعية الاسمية لدولة بني الأغلب للدولة العباسية، منذ تولي إبراهيم بن الأغلب تونس 184هـ، فقد أولى هـارون الرشيد للنشاط البحري في شمال أفريقيا عناية كبيرة، وخاصة في غزو جزر البحر المتوسط.

وعلى هـذا يكون للرشيد ثلاثة أساطيل: أسطول في الشام، وأسطول في مصر، وأسطول في إفريقية، فأقام الرشيد دورا لصناعة السفن، وجعل للأسطول البحري ديوانًا خاصًا، وجهز السفن البحرية بأقوى الفرق القتالية وأحدث الأسلحة، وأقام الربط على السواحل لمواجهة الغارات البيزنطية، كرباط المنستير والقصور والمحارس، وقد غزا الأسطول العباسي بقيادة الأغالبة سواحل اليونان سنة 190هـ، وجزيرة رودس سنة 191هـ [3].

غزوات الرشيد في بلاد البيزنطيين

لم تنقطع غزوات أمير المؤمنين هـارون الرشيد على أراضي الإمبراطورية البيزنطية طوال 23 سنة هـي فترة خلافته، سواء على شكل الصوافي أو الشواتي أو الغارات البحرية.

ويمكن أن نجملها من خلال هـذا الجدول[4]:

(1) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص191 - 192.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 320.

(3) محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص192 - 193. بتصرف.

(4) هذا الجدول تم تجميع مادته من خلال تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير وتاريخ خليفة بن خياط، وكذلك من خلال كتاب محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص406 - 416. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص222 - 227. بتصرف.

الجهة	السنة	القائد	نوع الغارة	النتيجة
أراضي البيزنطيين	170هـ	هارون الرشيد	صائفة	
طرسوس	171هـ	هرثمة بن أعين	صائفة	إعمار طرسوس
شواطئ البحر المتوسط	172هـ	أيوب بن سليمان بن علي	بحرية	هزيمة الأسطول البيزنطي
ثيم الأناضول	172هـ	إسحاق بن سليمان بن علي	صائفة	هزيمة وقتل القائد البيزنطي
ثيم خالديا	174هـ	عبد الملك بن صالح	صائفة	غنم الكثير من الماشية
خليج أطاليا	174هـ	حميد بن معيوف الهمداني	بحرية	أسر أمير البحر البيزنطي
بيزنطة	176هـ	عبد الرحمن بن عبد الملك	صائفة	فتح حصن ربسة (يثباسا)
قبادوقية	177هـ	محمد بن عبد الله الأنصاري	صائفة	أسر قائد مدينة كمخ
بحر البصرة	178هـ	مسلم بن زياد الأصم	بحرية	أسر 11 بارجة بيزنطية
باميسون بآسيا الصغرى	178هـ	سليمان بن راشد الثقفي	شاتية	مات 4000 مسلمًا من البرد
أورجوب جنوب الأناضول	179هـ	الفضل بن محمد	صائفة	تمكن البيزنطيين من صدها
قرر الرشيد سنة 180هـ الإقامة في الرقة وجعلها عاصمة له بدلًا من بغداد ليكون قريبًا من مسرح الأحداث				
أرض البيزنطيين	181هـ	الخليفة هارون الرشيد	صائفة	فتح حصن الصفصاف
افسوس على ساحل بحر ايجة	182هـ	عبد الرحمن بن عبد الملك	صائفة	أسر 7000 رجلًا بيزنطيًا

في سنة 182هـ/ 797م انقلبت ايريني على ولدها قسطنطين السادس وتلقبت بأغسطة

في سنة 183هـ تعرضت الحدود الإسلامية في أرمينية لغزو الخزر، فعقدت هـدنة مع إيريني وتم تبادل 3700 أسيرًا

أراضي البيزنطيين	184هـ	صالح بن بيهس الكلابي	صائفة	في فترة الفداء
أراضي البيزنطيين	185هـ	أحمد بن هـارون الشيباني	صائفة	في فترة الفداء

انقلب نقفور الأول على الملكة إيريني سنة 186هـ/ 802م وتقلد الإمبراطورية البيزنطية

حصن قرة وحصن سنان	187هـ	القاسم بن هـارون الرشيد	صائفة	تم الصلح وفداء 320 أسيرًا مسلمًا
قبادوقيا	188هـ	القاسم بن هـارون	صائفة	هزيمة نقفور وكاد أن يؤسر
حدود بيزنطة حتى هـرقلة	أواخر 188هـ	الخليفة هـارون الرشيد	صائفة	طلب نقفور المصالحة مقابل دفع الجزية
نهر اللامس	189هـ	خادم الرشيد أبو سليم فرج		تم فداء 3700 أسيرًا مسلمًا
هرقلة	190هـ	الخليفة هـارون الرشيد		فتح هـرقلة وسبي 16 ألف
جزيرة رودس وكريت	191هـ	حميد بن معيوف	بحرية	غنم وأسر وعاد
قبادوقيا	191هـ	هرثمة بن أعين	صائفة	

أراضي البيزنطيين	191هـ	يزيد بن مخلد الهبيري	صائفة	قتل يزيد بن مخلد
نهر البدندون	192هـ	ثابت بن نصر الخزاعي		تم فداء 2500 أسيرًا مسلمًا
جزيرة كريت	193هـ	حميد بن معيوف الهمداني	بحرية	فتح أجزاءً منها

لقد كان أكبر هـمٍّ هـارون الرشيد ألا يدع البيزنطيين يتنفسون الصعداء، هـكذا يتبين لنا من الجدول السابق، فغزوات المسلمين في عهد الرشيد على الإمبراطورية البيزنطية لا تكاد تنقطع طوال أيام الصيف (الصوافي)، أما أيام الشتاء (الشواتي) فقلَّما تكون، بل ربما تكون منعدمة؛ لشدة البرد في بلاد البيزنطيين في فصل الشتاء وكثرة الثلوج التي تعدم حركة الجيوش الإسلامية.

بين هـارون الرشيد والإمبراطور البيزنطي نقفور

كانت شهرة هـارون الرشيد السياسية والحربية قد سبقته أميرًا قبل أن يكون خليفة، وذلك منذ انتصاره على الإمبراطورة إيرنيي الوصية على عرش ولدها الصغير قسطنطين السادس، وذلك سنة 165هـ وإرغامها على الصلح، وظلت تدفع الجزية السنوية للمسلمين، إلا أنه حدث نزاع بين إيريني وابنها قسطنطين السادس بسبب تمسكها بالوصاية واحتفاظها بالسلطة رغم بلوغه سن الرشد، وانتهى الأمر بمؤامرة ضدها استولى بها قسطنطين السادس على الحكم، إلا أن سياسة قسطنطين السيئة أدت إلى حدوث الفرقة من جديد، انتهت بمؤامرة دبرتها إيريني في سنة 182هـ/ 797م على ولدها قسطنطين، وأمرت بسمل عيني ولدها، متجردة بذلك من كل معاني الأمومة والإنسانية.

وانفردت إيريني بالسلطة من جديد، وواجهت الإمبراطورة الجديدة عند توليها العرش الكثير من الصعوبات، أهمها تقدم الجيوش العباسية في آسيا الصغرى حتى

وصلت البوسفور، واضطرت إيريني إلى شراء الصلح من المسلمين بدفع جزية سنوية، تقدَّر بسبعين ألف دينار.

وكان آخر حملات المسلمين في عهد إيريني في شعبان سنة 187هـ، حيث أخرج الرشيد صائفة بقيادة ابنه القاسم، وجعله قربانًا للَّه ووهبه الله عز وجل، وولَّاه العواصم، فحاصر مدينة قرَّة وضيَّق عليها، وبعث العباس بن جعفر بن الأشعث فحاصر حصن سنان حتى جهد أهله، فبعث إليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيرًا من المسلمين على أن يرحل عنهم، فأجابهم ورحل عنهم صلحًا.

وأمام الفتن والاضطرابات التي اجتاحت الإمبراطورية البيزنطية نتيجة لسياسة إيريني فقد قام العسكريون بانقلاب عسكري، كان من نتيجته عزل إيريني وقيام نقفور الأول بمقاليد عرش الإمبراطورية البيزنطية في سنة 186هـ/ 802م، ثم ماتت إيرينى بعد خمسة أشهر من خلعها[1].

وما إن استتب أمر الإمبراطورية البيزنطية لنقفور الأول وثبّت أقدامه حتى نقض المعاهدة التي كانت بين إيريني وهارون الرشيد، ورفض إعطاء الجزية للمسلمين، وفوق ذلك كله أرسل برسالة إلى هـارون الرشيد يتوعده ويتحداه، يقول فيها:

«من نقفور ملك الروم، إلى هـارون ملك العرب، أما بعد، فإن الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرخ (أقوى قطع الشطرنج عند العرب. كالقائد، وكصاحب الجيش)، وأقامت نفسها مقام البيدق (جمعه: البيادق: أضعف قطع الشطرنج. كالرجالة تدفع ما بين أيديها)، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك».

هي إذًا رسالة وعيد، وفوق ذلك استهزاء بشخص الخليفة رمز الدولة والأمة، وقد فهمها هـارون من أول وهلة، ولم يتردد لحظة واحدة في رد مماثل شديد، وقد

(1) محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص141 – 148. بتصرف.

كان الرشيد بما يحمله من عزة المسلم فوق كونه خليفة المسلمين في حالة غضب شديد، يصورها الطبري بقوله: «فلما قرأ الرشيد الكتاب، استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدًا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه، وتفرق جلساؤه خوفًا من زيادة قول أو فعل يكون منهم»، وعلى الفور وبلا تردد دعا الرشيد بدواة وكتب على ظهر كتاب نقفور، يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم من هـارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام».

ثم شخص هـارون الرشيد من يومه وجهز جيشًا عظيمًا، وتوغل في آسيا الصغرى حتى بلغ مدينة هـرقلة (هي الآن تسمى اركلي) عاصمة كورة بيثينيا، ولما رأى نقفور هـذا الجيش العظيم أسقط في يده وفي يد أتباعه، فهو لم يتخيل يومًا أن تكون قوة المسلمين تصل لهذا الحد من الحزم والبطش بأعدائها وفي أسرع وقت، نزل الرشيد هـرقلة بجيشه الجرار ففتح وغنم وأحرق وخرب، واستولى عليها عنوة في 187هـ/ 804م، ولم يكن أمام نقفور سوى طلب الموادعة والصلح على مال يؤديه للمسلمين كما كانت تفعل إيريني من قبل، فقبَل الرشيد منه بعد أن عرَّفه قدره.

قفل هـارون الرشيد عائدًا مظفرًا حتى إذا وصل الرقة، لم يستطع نقفور أن يوفي بعهده الذي قطعه على نفسه مع الرشيد، فنقض عهده وخان ميثاقه، ظانًا منه أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه، فلما جاء الخبر بنقضه إلى وزراء الرشيد ما جسر أحد على إخباره، خوفًا على أنفسهم من العود في مثل ذلك البرد، وإشفاقًا من الرشيد، فاحتيل له بشاعر من أهل جنده، وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف، وقيل هـو الحجاج بن يوسف التميمي، فقال أبياتٍ، منها:

نَقَضَ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ نِقْفُورُ ... فَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ

أَبْشِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّـهُ ... غُنْمٌ أَتَاكَ بِهِ الإِلَهُ كَبِيرُ

فلما فرغ من إنشاده، قَال الرشيدَ: أو قد فعل نقفور ذلك! وعلم أن الوزراء قد

احتالوا له في ذلك، فكَرَّ راجعًا في أشد محنة وأغلظ كلفة، حتى أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد، غير أنه لم يفتحها. وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

أَلا نَادَتْ هِـرَقْلَةُ بِالْخَرَابِ مِنَ الْمَلِكِ الْمُوَفَّقِ للصوابِ

غَدَا هـارُونُ يُرْعِدُ بِالْمَنَايَا وَيُبْرِقُ بِالْمُذَكَّرَةِ الْقِضَابِ

وَرَايَاتٍ يَحِلُّ النَّصْرُ فِيهَا تَمُرُّ كَأَنَّهَا قِطَعُ السَّحَابِ

أَمِيرَ المؤمِنينَ ظَفَرْتَ فاسْلَم وَأَبْشِر بالغَنِيمَةِ وَالإِيَابِ[1]

ثم إن هـارون الرشيد أعقب ذلك بتوجيهات عسكرية قوية ومتتابعة، حتى ينهك نقفور فلا يفكر أن يعود إلى حماقته مرة أخرى، فأخرج له صائفة سنة 188هـ بقيادة ولده القاسم بن هـارون، الذي كلف قائده إبراهيم بن جبرائيل، فدخل بلادهم من درب الصفصاف، فتحرك له نقفور إلى كراسوس، والتقى الجيشان، وقد مني فيها نقفور هـزيمة ساحقة حتى كاد أن يقع في الأسر، وجرح ثلاث جراحات، وقتل من جيشه أربعون ألفًا وسبعمائة، وأخذ أربعة آلاف دابة [2].

وفي سنة 189هـ/ 805م وقع أول فداء بين المسلمين والبيزنطيين على نهر اللامس، على نحو من خمسة وثلاثين ميلًا من طرسوس، وكان يمثل المسلمين فيه أبو سليم فرج خادم الرشيد وسالم البرلسي البربري مولى بنى العباس، في ثلاثين ألفًا من المرتزقة، وحضره من أهل الثغور وغيرهم من أهل الأمصار وغيرهم نحو من خمسمائة ألف، وقيل أكثر من ذلك بأحسن ما يكون من العدد والخليل والسلاح والقوة..، وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزي ومعهم أسارى المسلمين، وكان عدة من فُوديَ به من المسلمين في اثنى عشر يومًا ثلاثة آلاف وسبعمائة، وقيل أكثر من ذلك وأقل. ويقال: يقال إنه فودي بكل أسير كان بأرض

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 307 – 310. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 358 – 360.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 313. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 364. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 3/ 283.

الروم من ذكر وأنثى، وكان ذلك كله تحت إشراف القاسم ابن الرشيد وباسمه، وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين من أعمال حلب.

وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة:

وَفُكَّتْ بِكَ الْأَسْرَى الَّتِي شُيِّدَتْ لَهَا ... مَحَابِسُ مَا فِيهَا حَمِيمٌ يَزُورُهَا

عَلَى حِينِ أَعْيَا الْمُسْلِمِينَ فِكَاكُهَا ... وَقَالُوا سُجُونُ الْمُشْرِكِينَ قُبُورُهَا[1]

فتح هرقلة 190هـ

قلما يتحدث المؤرخون عن هـذا الفتح العظيم (فتح هـرقلة سنة 190هـ/ 806م) على يد الخليفة العظيم هـارون الرشيد، مع أنه يضاهي في عظمته وأحداثه كبار الفتوحات الإسلامية على مرِّ التاريخ، إذ ظهرت فيه قوة الدولة وعظمة الخلافة وهيبة الخليفة، ومدى ما وصل إليه أعداء الدين من الذلة والهوان. بل وتعاطى معه كبار الشعراء بمثل ما يتعاطون مع مثل هـذه الفتوحات العظيمة.

فكما هـي أخلاقهم دائمًا فقد نقض البيزنطيون الهدنة مجددًا مع هـارون الرشيد، وهاجمت القوات البيزنطية حصون المسلمين في عين زربة وكنيسة السوداء، فخربوهما وأسروا من المسلمين، غير أن حامية المصيصة هـاجمتهم واستنقذت ما في أيديهم من الأسرى والأسلاب.

وكان هـذا التحرك من نقفور خطيرًا في نظر الرشيد، فما كان منه إلا أن جيَّش جيشًا جرارًا، وخرج في 190هـ/ 806م في (135 ألفًا)، سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لا ديوان له، وكانت خطة الرشيد في فتح هـرقلة هـي تشتيت جموع القوات البيزنطية وإنهاكها تمامًا، فوجَّه الرشيد كبار قادة جيشه أمثال: داود بن عيسى بن موسى في سبعين ألفًا، وشراحيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد، ففتحوا حصون البيزنطيين وخربوها، مثل حصون الصقالبة ودبسة والصفصاف

(1) المسعودي: التنبيه والإشراف، جـ1/ 160 – 161. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 318. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص412. بتصرف.

وملقوبية، وقد هـزمت جيوش الإمبراطورية البيزنطية شرَّ هـزيمة، فقد كانت نية الرشيد تمشيط كل الجهة الفاصلة بين العواصم وقبادوقيا.

وصلت جيوش الرشيد إلى أبواب هـرقلة أعظم مدن البيزنطيين، وضرب عليها الحصار، واستخدم فيها الرشيد أحدث ما لديه من الأسلحة والذخيرة، فلما عجزت المدينة عن فتحها، صاح الرشيد في قواده: "اجعلوا النار في المجانيق وارموها، فليس عند القوم دفع بعدها"، ففعلوا وجعلوا الكتان والنفط على الحجارة، وأضرموا فيها النار، ورموا بها السور، فكانت النار تلصق به، فيتصدع وتتهافت منه الحجارة، حتى سقطت المدينة، ودخلها الرشيد فاتحًا مظفرًا منصورًا.

وقد صور الشعراء اضطرام النيران بهرقلة تصويرًا بديعًا، حتى قال أحدهم:

هَوَت هـرَقْلةُ لمَّا أنْ رَأَتْ عَجَبًا حَوَائِمًا تَرْتَمِي بالنِّفْطِ وَالنَّارِ

كَأَنَّ نِيرَانَنا فِي جَنْبِ قَلْعَتِهِمْ مُصَبَّغاتٌ عَلَى أَرْسَانِ قَصَّارِ

وكان فتح الرشيد هـرقلة في شوال 190هـ/ 806م بعد حصار دام شهرًا كاملًا، وسبى (16 ألفًا) من أهلها. ولم يبرح الرشيد حتى أخذ الجزية من نقفور وهو صاغر ذليل، عن رأسه وولي عهده وبطارقته وسائر أهل بلده (300 ألف) دينار، وأن يدفع جزية شخصية عن رأسه أربعة دنانير سنويًا، وعن رأس ابنه استبراق دينارين سنويًا، وبذلك اعترف بأنه تحت ذمة الخليفة، واشترط الرشيد عليه ألا يبني حصنًا ولا يعمر هـرقلة، كما اشترط نقفور ألا يخرب (الرشيد) ذا الكلاع ولا صملة ولا حصن سنان.

وفي ذلك يقول أبو العتاهية:

قضى الله أن يصفو لهارون ملكه وكان قضاء الله في الخلق مقضيا

تحلبت الدنيـا لهـارون بالرضا فأصبح نقفـور لهـارون ذميـا

ثم إن نقفور استغل انشغال هـارون الرشيد بثورة رافع بن ليث في خراسان، فنقض عهده وخان ميثاقه مع المسلمين من جديد سنة 191هـ/ 807م، فقام بإعادة تعمير الحصون، واستولى على حصن ربسة مرة أخرى، وتجددت الحرب بينهما. حيث أخرج هـارون الرشيد الصائفة بقيادة يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف جندي، فأخذ البيزنطيون عليه المضيق، فقتلوه في خمسين من الجند، على مرحلتين من طرسوس.

فلما كان ذلك ولَّى الرشيد أمر الصائفة لقائده المحنك هـرثمة بن أعين، وضم إليه ثلاثين ألفًا من جند خراسان، ومعه مسرور الخادم، وخرج الرشيد إلى ثغر الحدث ليكون قريبًا من مسرح الأحداث وليتابعها عن قرب، فأقام الرشيد بالحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان، ثم عاد إلى الرقة، بعد أن أمر هـرثمة ببن أعين بتعمير الثغور وتحصينها جيدًا، استعداد لحملة عسكرية كبرى، يؤدب فيها نقفور ومن معه، فعمَّر هـرثمة مدينة طرسوس، وسيَّر إليها جندًا من أهل خراسان ثلاثة آلاف، ثم أشخص إليهم ألفًا من أهل المصيصة، وألفًا من أهل أنطاكية، وبنى مسجدها، وتم بناؤها سنة 192هـ، ثم إن أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور، وألزم أهل الذمة ببغداد وغيرها من بلاد المسلمين بمخالفة هـيئتهم هـيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم، ولم يكن للمسلمين بعد سنة 191هـ صائفة إلى سنة 215هـ[1].

وفي سنة 192هـ/ 808م وقع الفداء الثاني بين المسلمين والبيزنطيين على نهر البدندون، وكان يمثل المسلمين فيه ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي أمير الثغور الشامية، حضره مئات الألوف من الناس، وكان عدة من فودي به من المسلمين في

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 320 – 324، 337. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 370 – 372،380 – 381. ياقوت الحموي: معجم البلدان، 5/ 398. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 674. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 3/ 285. المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، ص194.

سبعة أيام (2500 ونيِّفًا) من ذكر وأنثى[1].

ويبدو أن الضربات التي وجهها الرشيد إلى الدولة البيزنطية كانت عنيفة وحاسمة، فقد تركت جرحًا عميقًا في جسم الإمبراطورية البيزنطية، لم تستطع أن تفيق منه في سهولة ويسر، بدليل أنها لم تحاول الاستفادة بعد ذلك من التصدع داخل الدولة العباسية خلال الفتنة التي دبت بين الأمين والمأمون، وكانت الفتنة فرصة مواتية لأي هجوم مضاد يستعيد ما فقدته في عهد الرشيد[2].

إن غزوات هارون الرشيد على الساحة البيزنطية لم تتوقف أبدًا طوال سني خلافته، فهي ما بين صائفة وشاتية وغزوة بحرية، ولم يكن لتتوقف إلا لفتنة أو اضطراب داخلي، غير أنها لم تكن حاسمة في إنهاء الصراع الإسلامي البيزنطي.

---

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 338، 340. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 384 - 385. وقيل على نهر اللامس، انظر: المسعودي: التنبيه والإشراف، 1/ 161.

(2) حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص174. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص92. بتصرف.

الفَصْلُ الثَّانِي

سياسة الرشيد مع الإمبراطورية الرومانية

- **أولًا: شارلمان.. إمبراطور الفرنجة (فرنسا).**
- **ثانيًا: هارون الرشيد وشارلمان إمبراطور الكارولينجيين.**

وعلى عَدُوِّك يا ابنَ عَمِّ محمدٍ رَصَدانِ ضَوْءُ الصبحِ والإظْلامُ
فــــإذا تنبَّــــه رُعْتَه وإذا غَفَا سَلَّتْ عليه سيوفَــك الأحْـلامُ

أشجع السلمي يمدح الرشيد.

ابن عساكر: تاريخ دمشق، (9/ 107 – 108)

لا تكاد تذكر المصادر العربية شيئًا عن علاقة هـارون الرشيد بملك الفرنجة شارلمان، أو شيئًا عن المراسلات والهدايا المتبادلة بينهما، على عكس التفصيلات التي أبرزتها عن علاقته بالإمبراطورية البيزنطية. غير أن المصادر اللاتينية انفردت بإبراز تلك العلاقة بين الرشيد وشارلمان وحمَّلتها الكثير من التفصيلات والنتائج، وقد أدى هـذا الانفراد- فضلًا عن اضطرابها وغموضها - إلى اختلاف كبير بين المؤرخين المحدثين بشأن صحتها، أو تفسير نتائجها.

وقبل أن نخوض في صحة هـذه العلاقة من عدمها، يجب علينا أن نتساءل أولًا: من هـو شارلمان؟ وما تاريخه بالنسبة للإسلام؟، وذلك لتتضح الصورة للقارئ الكريم، وليعرف: عمَّن نتحدث؟ وهل يعقل أن تتم علاقة بين خليفة مسلم بأخلاق الرشيد وجهاده مع مثل هـذا الإمبراطور؟!!

أولًا: شارلمان.. إمبراطور الفرنجة (فرنسا)

شارلمان أو ما تسميه المصادر العربية (قارلة) هـو ملك الفرنجة (151هـ - 184هـ / 768م - 800م) وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة (184هـ - 199هـ / 800م - 814م)، من أعظم شخصيات الأسرة الكارولينجية arlovingians أو Carolingians التي حكمت مملكة الفرنجة. ورث شارلمان حقده للإسلام والمسلمين من جده شارل مارتل، الذي أوقف المد الإسلامي بهزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء - بواتييه، واستشهد فيها المجاهد المسلم التابعي الجليل عبد الرحمن الغافقي في رمضان 114هـ/ أكتوبر 732م.

لذا كان شارلمان عدو الإسلام الأول في الأندلس، وكان يحاول دائمًا الاستفادة من الاضطرابات الداخلية التي تحدث في الأندلس، ويشجع روح التمرد والخلاف على الأمراء الأمويين، وقد اعتمد في حروبه على الأندلس بجانب أطماعه التوسعية والسياسية إلى إثارة النزعة الدينية، فكان أول من نادى بالحرب الصليبية سواء كان في غزوه للأندلس أو حروبه في أوروبا.

كانت أشهر حملات شارلمان على الأندلس، تلك الحملات الدامية على الثغر الشمالي وخاصة ولايتي برشلونة وسرقسطة، ففي عام 157هـ أعلن سليمان بن يقظان الكلبي الأعرابي والي برشلونة والحسين بن يحيى الأنصاري والي سرقسطة تمردهما ضد الأمير عبد الرحمن الداخل، وهزما جيش الداخل سنة 158هـ/ 775م، تقول الرواية العربية إن سليمان بن يقظان قرر الاستعانة بشارلمان، وأرسل إليه في ربيع سنة 160هـ/ 777م بخطة مع ثقاته، مقابل تسليمه

برشلونة أو سرقسطة في شمالي الأندلس.

قام شارلمان بالتوجه إلى الأندلس في سنة 162هـ/ 778 م وذلك تنفيذًا للاتفاق الذي بينه وبين المتآمرين. فاتجه نحو جبال البرتات وعبرها، ثم هاجم بنبلونة عاصمة الباسك واستولى عليها. غير أن خيوط المؤامرة لم تحكم جيدًا؛ حيث انسحب الحسين بن يحيى الأنصاري وأغلق أبواب سرقسطة في وجه شارلمان، في المقابل تلقى شارلمان أنباء تفيد بحدوث اضطرابات في بلاده، فاضطر إلى رفع الحصار عن سرقسطة، ورجع إلى بلاده بعد أن أخذ سليمان الأعرابي معه أسيرًا، ودمر في طريقه مدينة بنبلونة. وبينما كان شارلمان يعبر مع جنوده من ممر رنسفالة أو باب شزروا، كما يسميها العرب، في جبال البرتات، هاجمته قوات المسلمين بمعاونة البشكنس، وقضت على مؤخرة جيشه، وقتل عدة قواد من أشهرهم رولان Roland، بطل ملحمة رولان الشهيرة.

وبعدما فشل شارلمان في حملته على مسلمي الأندلس أرسل من عنده وفدًا إلى قرطبة يحمل رسالة للأمير عبد الرحمن الداخل يدعوه فيها إلى المصاهرة والسلم، فأجابه الداخل إلى السلم ولم تتم المصاهرة، وفي هذه المناسبة جرى توقيع هدنة بين الطرفين سنة (164هـ / 780م) تقريبًا. على أن سياسة شارلمان لبثت – بالرغم من هذه الصدمة المؤلمة في جبال البرتات – ترقب سير الحوادث في الأندلس لتجد فيها ثغرة تتخذها وسيلة لتحقيق غاياتها، وكان الفرنج ينظرون بعين التوجس، وكان شارلمان يلتمس الفرصة كلما اضطرمت الأندلس بالثورة.

وقد وقع غزو شارلمان للمرة الثانية لشمال الأندلس في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (180هـ/ 796 – 206هـ/ 822م) بين سنتي 181هـ و185هـ، أي في أواسط عهد الرشيد (170هـ – 193هـ)، حيث عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية، فألفى الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب، وكان شارلمان يطمح بالأخص

إلى افتتاح ثغر برشلونة المنيع ليكون معقلًا لحماية أملاكه الجنوبية، وعقد محالفة بينه وبين أمير جليقية ألفونسو الثاني سنة 798م، لكي يكتسب ولاء البشكنس ومعاونتهم.

وفي سنة 185هـ/ 801م سير شارلمان إلى الأندلس جيشًا ضخمًا لافتتاح برشلونة بقيادة ولده لويس أمير أكوتين، ولم تستطع برشلونة ثباتًا بعد أن هلك ألوف من أهلها، وفتحت ثغرات عديدة في أسوارها، فاضطرت إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر. وجعل شارلمان برشلونة قاعدة الثغر القوطي أو الثغر الإسباني، الذي أنشأه فيما وراء البرنيه، حماية لحدود فرنسا الجنوبية، وخسر الإسلام بفقد برشلونة أمنع ثغوره في قاصية الأندلس، وارتدت حدود الأندلس إلى الثغر الأعلى، بعد أن كانت تجاوز جبال البرينيه، ولم تمض بضعة أعوام أخرى، حتى عبرت جيوش شارلمان البرينيه للمرة الثانية (193هـ/ 809م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها[1].

لم نقصد من سرد تلك الوقائع التاريخية سوى أن نبيِّن للقاري من هو شارلمان، وما هي مكانته عند الأوروبيين، ليتضح لنا من تلك الروايات هالة الصورة التي يرسمونها له، في مقابل الخليفة المسلم الذي يخضع لشروطه التي يمليها عليه.

فما هي إذًا طبيعة العلاقة بين هارون الرشيد وشارلمان؟

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 191، 235 – 236. ول ديورانت: قصة الحضارة، 14/ 230 – 231. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 168 – 185، 233 – 238. سالم عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، 1/ 237 – 239. بتصرف.

ثانيًا: هارون الرشيد وشارلمان إمبراطور الكارولينجيين

أغفلت المصادر العربية الحديث عن العلاقة بين هـارون الرشيد وبين شارلمان إمبراطور الفرنجة، وأما المصادر اللاتينية التي ذكرت تفاصيل تلك العلاقة، فهي ثلاثة: حياة شارلمان لإينهارد، والأخبار الملكية الفرنجية، ورواية الراهب سانت كول.

والملاحظ في هـذه الكتابات أن روايات إينهارد تميل إلى تفخيم سيده، بينما رواية سانت كول التي كتبها بعد وفاة شارلمان بنحو خمسين سنة تميل إلى الأسطورية، بينما الأخبار الملكية فهي مقتضبة لا تعين على تحديد طبيعة هـذه الصلات[1].

تذكر المصادر اللاتينية أن شارلمان أرسل وفدين إلى الرشيد، الأول سنة 184هـ/ 797م، والثاني سنة 187هـ/ 802م، ورسولًا إلى بطريق القدس سنة 184هـ/ 799م. فأجاب الرشيد بإرسال وفدين، الأول سنة 186هـ/ 801م، والثاني سنة 1919هـ/ 807م، بينما أرسل بطارقة القدس أربع سفارات على الأقل إلى شارلمان، سنة 799م، 800م، 803م، وسنة 807م. ويبدو من المصادر الغربية أن زمام المبادرة بين الطرفين كانت من قبل شارلمان.

السفارة الأولى عام 184هـ/ 797م

ففي عام 184هـ/ 797م أوفد شارلمان وفدًا من ثلاثة: لانتفريد وسيجموند ويهودي اسمه إسحاق مترجمًا، وقضى الوفد في مهمته ثلاث سنوات، توفي أثناءها الممثلان الأولان بعد أن أنجزا مهمتهما، بدليل أن الرشيد رد على هـذه السفارة

(1) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص117. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، هامش (1) ص240.

بسفارة إسلامية تتألف من مبعوثين أحدهما فارسي عن الخليفة، والآخر من إفريقية ممثلًا عن الأغالبة، وصلا في سنة 187هـ/ 802م، ولحق بهما إسحاق اليهودي، الذي حمل لشارلمان فيلًا اسمه (أبو العباس) أهداه الرشيد إليه.

السفارة الثانية 187هـ/ 802م

أما السفارة الثانية، فقد أرسل شارلمان وفده الثاني إلى الخليفة هـارون سنة 187هـ/ 802م، وتشير الأخبار الملكية إلى هـذا الوفد دون بيان مهمته، بينما إينهارد في كتابه يذكر أن سفراء شارلمان أخذوا هـبات لكنيسة القيامة، ثم ذهبوا بها إلى الرشيد، فأجاب لهم عن رغبات سيدهم، وأوكل لشارلمان أمر الأماكن المقدسة. غير أن (هـلفن) محقق كتاب إينهارد يرى أنه لا يمكن الوثوق بمعلومات ذلك المؤرخ، الذي كان هـمه تفخيم سيده.

وقد رد الرشيد على هـذه السفارة بسفارة إسلامية وصلت إلى بلاط شارلمان 807م، ويمثلها رسولًا من الخليفة اسمه عبد الله، كان يحمل معه هـدايا نفيسة لشارلمان، عبارة عن صوان ملون بألوان متعددة، وأقمشة حريرية، وعطور وبلسم، وساعة مائية عجيبة، وأوانٍ نحاسية. وقد وعد هـارون الرشيد أن يجعل تحت شارلمان بيت المقدس والضريح المقدس(1).

العوامل التي أدت إلى هذه العلاقة .. الشبهات والردود

أخذ المؤرخون الغربيون ما جاء في تلك المصادر اللاتينية فشرحوها وأولوها وحملوها أكثر مما تحتمل، متحيزين في ذلك لأوروبا الغربية، على حساب التاريخ الإسلامي وحضارته العريقة. متناسين أن الشرق الإسلامي كان يعيش أزهى عصوره في الرقي والثقافة في الوقت الذي كانت تعيش فيه أوروبا كلها ظلمات العصور الوسطى. هـذا فضلًا عن أن تلك المصادر اللاتينية يشوبها الغموض والاضطراب.

(1) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص117. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص240 – 241.

ذهب كثير من المؤرخين إلى أن العوامل التي أدت إلى هـذه العلاقة الوطيدة، أن شارلمان أراد من وراء هـذا التحالف أن يضعف من نفوذ إمبراطور الدولة البيزنطية، بينما استغل الرشيد هـذا الحلف ضد أعدائه البيزنطيين والأمويين في الأندلس على السواء، وأن شارلمان أراد تسهيلًا لمجيء الحجاج الأوروبيين إلى الأماكن المقدسة، مما دعا بطريق القدس بموافقة الرشيد إلى إرسال وفد سنة 185هـ/ 800م يحمل مفاتيح كنيسة القيامة ومدينة القدس ورايتها إلى شارلمان، وبذلك أصبح شارلمان حامي الأماكن المقدسة في فلسطين، كل ذلك - حسب زعمهم - مقابل موافقته على محاربة أمويي الأندلس باسم العباسيين، والوقوف في صف العباسيين ضد البيزنطيين [1].

نقد الروايات اللاتينية بخصوص العلاقة بين الرشيد وشارلمان

وكما أن المؤرخين الغربيين أنفسهم اختلفوا فيما بينهم حول طبيعة هـذه العلاقة وأهدافها، فمنهم من أنكر تلك الصلات جملة واحدة، مثل المؤرخ الروسي بارتولد V.V . Bartold، في مقالة له سنة 1912م، أنكر فيها أية صلات بين الرشيد وشارلمان، ويمكن لنا أن نجمل مآخذنا على هـذه الروايات اللاتينية في النقاط التالية:

1 - سكوت المصادر العربية عن ذكر مثل هـذه العلاقات يعني نفيًا قاطعًا لقيامها.

2 - أن العلاقات بين شارلمان والبيزنطيين كانت إبان السفارة الأولى 797م حسنة، ففي سنة 798م أرسلت إيريني وفدًا إلى شارلمان للمفاوضة في عقد حلف، واقترحت عليه الزواج.

3 - لا يعقل أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحاق اليهودي، بينما أرسل سفراءه قبله دون أن يحملوا معهم أي هـدية، ولهذا يرجح أن إسحاق المذكور لم يكن مترجمًا وإنما كان تاجرًا.

(1) أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص219.

4 – أن الرشيد لم يعط شارلمان حق الحماية على فلسطين، ولو كان ذلك حدث فعلًا لذكرته المصادر العربية والبيزنطية.

5 – لم تكن هـناك وفود رسمية بين الطرفين، بل زيارات من قبل تجار من اليهود الفرنجة، وأن إعطاء هـذا الحق من قبل الرشيد لشارلمان لا ينسجم مع سياسة هـارون الرشيد وروح العصر الذي عاش فيه.

6 – ويرجع بعض المؤرخين الأوروبيين أمثال بارتولد وبروكلمان أن بعض التجار العراقيين الذين ذهبوا إلى مدينة اكس لاشابل (آخن) قاعدة شارلمان انتحلوا صفة السفراء الناطقين باسم الرشيد لدى شارلمان من غير تفويض، ولهذا لم يرد ذكرهم في المراجع العربية، على أنه يلاحظ أن ما نسميه اليوم بالسلك الدبلوماسي، لم يكن معروفًا في العصور الوسطى سواء في الشرق أو الغرب، وكان اعتماد الجانبين في أداء هـذه المهام الدبلوماسية على العلماء والفقهاء في أغلب الأحيان.

7 – وإذا سلمنا بصحة تلك العلاقة بين هـارون الرشيد وشارلمان كما وردت في المصادر اللاتينية، فإننا نذهب إلى أن شارلمان أراد أن يوثق صلاته بهارون الرشيد ليكسب وده، ويحول بينه وبين أبناء عمومته من الأمويين من التآلف والتكاتف ضده، وليتفوق بشهرته وسطوته على ما لنقفور ملك القسطنطينية من شهرة وسطوة عند الغربيين، وأن يكون له اليد البيضاء عند النصارى بمصافاة الرشيد وصداقته؛ ليضمن وصول الحجاج النصارى إلى بيت المقدس بأمان، وأن يظهر بالحامي المدافع عن حقوق النصارى في العالم، كما أراد أن يستفيد من التألق العلمي والحضاري عند العرب في ذلك الوقت.

8 – أما عن رد الرشيد على شارلمان– لو سلمنا بصحة تلك العلاقة، فإن الرشيد أراد إضعاف نقفور الخصم اللدود للخلافة العباسية، وليقطع الطريق للتحالف بين المملكتين البيزنطية والرومانية المقدسة آنذاك، فيكون قد حقق ما

يريده من هـذه الصلة [1].

9 - وأما بخصوص ما يتعلق بحقوق المسيحيين في الشرق، فهل كانت الأقلية المسيحية في بلاد المسلمين تتعرض للاضطهاد والعنف في خلافة الرشيد، لدرجة أن يتدخل إمبراطور الفرنجة لحمايتهم ورعايتهم؟!! إن ذلك كله من الأكاذيب التي اخترعتها تلك الروايات اللاتينية، فقد كان النصارى في بلاد مصر يؤدون الجزية لهارون الرشيد دينارًا واحدًا ميمونيًا (ذكر الأصفهاني في الأغاني أنها سميت بالميمونية نسبة إلى ميمون بن عامر)، بعد أن ضربها عليهم عمرو بن العاص دينارين، بل تغاضى ولاة المسلمين للمسيحيين عن أفعال لو فعلوها في العراق أو بلاد الحرمين لجلبت عليهم الحيْن في طرفة عين، كتطاولهم في البنيان على بنيان المسلمين، ومجاهرتهم بالإنجيل وإخراج آنيتهم إلى الأسواق وحمل صلبانهم على رؤوس الرماح، وغير ذلك مما لا ينقمه منهم المسلمون؛ طمعًا في استمرار الخلطة التي وقعت بينهم، وأشبهت أن تكون ألفة وصفاء، بل مودة وإخاء[2]. وأما بخصوص أمر الرشيد بهدم الكنائس بالثغور سنة 191هـ/ 807م، وإلزام أهل الذمة ببغداد وغيرها من بلاد المسلمين بمخالفة هـيئتهم هـيئة المسلمين في لباسهم وركوبهم، فقد أفتاه بذلك علماء المسلمين، كما صرح ابن القيم[3]، إعزازًا للدين ورفعة له، هـذا غير المعاملة الحسنة والإحسان إليهم والبر بهم.

10 - كما أن العلاقة بين الرشيد والأمويين في الأندلس لم تكن سيئة جدًا، لدرجة أن يتحالف الرشيد مع الفرنجة ضدهم، وإنما كانت العلاقة بينهما هـي القطيعة، ولم تحدثنا المصادر العربية عن أي تحرك اتخذه الرشيد تجاه الأندلس،

(1) السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص241 - 242. أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، ص219 - 220. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، ص90. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هارون الرشيد الخليفة المظلوم، ص123 - 124. بتصرف.

(2) جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، ص246 - 248. بتصرف.

(3) ابن القيم: أحكام أهل الذمة، 1/ 464 - 465.

لانشغاله بالثورات الداخلية وغزواته ضد البيزنطيين.

11 – من يقرأ التاريخ يعرف أن الرشيد تخلى عن سلطته الحقيقة في تونس تحت سلطان الأغالبة؛ لانشغاله بحرب البيزنطيين، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، فكيف يفكر في قتال الأندلس؟!!

12 – ليس من أخلاق الرشيد الذي تربى على الجهاد وحب الدين، وما عرف عنه من تقريب العلماء والفقهاء، ومواقفه في الزهد والبكاء من الله تعالى، أن يتعاون مع الكافرين ضد إخوانه من المسلمين، ولو كان ذلك لتردد في المصادر العربية في بلاد المشرق والمغرب أنباء ذلك، وهو ما لم يحدث.

الفصل الثالث

علاقة الرشيد بالترك والهند والصين

- **أولًا : سياسة هارون الرشيد مع الترك.**
- **ثانيًا : سياسة هارون الرشيد مع الهند والسند.**
- **ثالثًا : سياسة هارون الرشيد مع الصين.**

«وكان مجد بغداد متناسقًا مع الإمبراطورية التي كانت هـي عاصمتها، حتى قيل: (لم يكن لبغداد في الدنيا نظير)»

فيليب حتى: العرب تاريخ موجز، (ص116)

أولًا: سياسة هارون الرشيد مع الترك

لم تحدثنا كتب التاريخ عن توتر في العلاقات بين الخلافة العباسية وخاصة أيام هـارون الرشيد وبين بلاد الترك، فقد كانت سياسة الدولة العباسية نحو جيرانها من الترك سياسة سلمية، وقد آثر العباسيون السلم في هـذه النواحي الشرقية؛ لأنهم وجدوا من جيرانهم الترك تقبلًا للدعوة الإسلامية، وتهافتًا على اعتناق الإسلام. فدور العباسيين في نشر الإسلام والدعوة إليه ولو سليمًا لا يقل عن دور الأمويين [1].

فقد كان واضحًا منذ قيام الدولة العباسية أن هـناك خطرًا عظيمًا في الأقاليم الشرقية الواقعة على أطراف إقليم ما وراء النهر[2]، هـو الخطر الصيني، وهذه الأطماع الصينية ليست لمجرد فرض السيطرة السياسية، وإنما القصد منها الاستيلاء على طرق القوافل التي تعبرها متاجر الشرق الأقصى إلى بلاد ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوروبا.

فكان على العباسيين أن يقضوا على الخطر الصيني، ليتسنى لهم نشر الإسلام

---

(1) السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص208.

(2) كانت بلاد ما وراء النهر تُعرف في الماضي ببلاد تركستان الكبرى، وعندما فتحها المسلمون العرب في القرن الأوَّل الهجري أطلقوا عليها: «بلاد ما وراء النهر»، ومعناها البلاد الواقعة خلف نهر جيحون (أموردريا) وسيحون (سيردريا)، وهي منطقة شاسعة عظيمة الاتِّساع، تمتدُّ من تركيا غربًا حتى حدود الصين شرقًا، ويقصد بها بلاد آسيا الوسطى، وقد باتت مقسَّمة إلى تركستان الشرقيَّة وتركستان الغربيَّة، وتخضع منطقة تركستان الشرقيَّة (سينكيانغ) الآن للاحتلال الصيني البغيض، أما منطقة تركستان الغربيَّة فتضمُّ دُولًا خمسًا هي: طاجيكستان، وتركمانستان، وقيرغيزستان، وأوزبكستان، وكازاخستان، بالإضافة إلى أذربيجان التي يشملها إقليم القوقاز مع جمهوريات وأقاليم أخرى ذات استقلال ذاتي في جمهوريتي أرمينيا وجورجيا. انظر محمود شاكر: التاريخ الإسلامي – المسلمون في الإمبراطورية الروسية، 21/ 224 – 225.

في تلك البلاد وإحكام السيطرة الإسلامية عليها، وهذا ما استطاعه العباسيون فعلًا. فقد استطاعت جيوش العباسيين أن ترد عدوان الصينيين مرتين وتضع حدًا لهذه الأطماع السافرة، الأولى سنة 133هـ/ 752م حيث قُتل من الصينيين زهاء خمسين ألفًا، وأسروا نحو عشرين ألفًا، وهرب الباقون إلى الصين. والثانية كانت من خلال تأليب حكام الأتراك الوطنيين على العرب، إلا أن هـذه المحاولة باءت بالفشل كذلك، ونتج عن ذلك أن خرجت الصين من المعركة بين العرب وبين الترك في شرق بلاد ما وراء النهر، كما ضعف عدوان الأتراك الشرقيين كذلك، حيث تفرقت وحدتهم، وأصبحوا لا يشكلون خطرًا على المسلمين في بلاد ما وراء النهر وبدأوا يستسلمون للحكم الإسلامي أو يذعنون له بالطاعة، ولم يعد العباسيون يجابهون قوات كبيرة كما فعل الأمويون من قبل، وهكذا استطاع العرب أن يوقفوا الخطر الصيني والتركي في آن واحد[1].

وقد تطورت العلاقة بين الخلافة العباسية وبلاد الترك كثيرًا في عهد هـارون الرشيد، فقد بدأ العباسيون يبسطون نفوذهم خارج حدود بلاد ما وراء النهر ويخضعون الإمارات الشرقية المجاورة، بل أوغل نفوذهم صوب الشرق بصورة لم تشهدها المنطقة من قبل، من ذلك حملات الغطريف بن عطاء والي هـارون الرشيد على خراسان من سنة 175هـ إلى سنة 176هـ، والذي توغل في مناطق لم يجرؤ المسلمون على اقتحامها من قبل، فقد بسط نفوذه على إمارة القرلوق وطرد ملكها[2].

وقد استطاع هـارون الرشيد بجهوده المضنية في بلاد ما وراء النهر أن يبسط الأمن والاستقرار السياسي في المنطقة بأسرها، من خلال إشراك الترك في الحياة العسكرية والإدارية في البلاد، ففي سنة 178هـ أنشأ الفضل بن يحيى البرمكي

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 40. حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص176 – 178. بتصرف.

(2) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ 8/ 241، 252. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 288. حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص179.

والي الرشيد على خراسان فرقة من الجنود التركية سماهم العباسية، وجعل ولاءهم لهم، بلغ عددهم خمسمائة ألف جندي، قدم منهم إلى بغداد عشرون ألف جندي، فسموا ببغداد الكرنبية، وخلف الباقي منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم، كما استطاع الفضل بن يحيى إخضاع ملك أشروسنة، الذي كان ممتنعًا ولم يخضع للعباسيين من قبل[1].

غير أنه في أواخر عهد الرشيد كان للترك دور كبير في دعم رافع بن ليث في ثورته 190هـ وخروجه عن طاعة الرشيد، وفي سنة 191هـ دخل في طاعته وتحت ثورته أهالي نسف وبخارى وفرغانة وخوارزم حتى استفحل أمره، فأرسل لهم هـارون الرشيد قائده هـرثمة بن أعين في أوائل سنة 193هـ، إلا أن رافع ومن والاه من الترك احتموا داخل سمرقند، مما دعا الرشيد للخروج بنفسه لحربهم وردهم، غير أنه وافته المنية بطوس في ذي الحجة سنة 193هــ / 808م. ثم إن الترك تخلوا عن رافع بن ليث، فضعف أمره، حتى أذعن بالطاعة في خلافة المأمون سنة 195هـ[2].

وقد كانت خلافة المأمون ذروة النصر العباسي على الأتراك، فقد أوغلت الجيوش العباسية في قلب آسيا الوسطى، وتوافدت سفارات ملوك أشروسنة والصغد والتبت لتقديم فروض الطاعة للخليفة المأمون، ويبعثون بالهدايا وتفرض عليهم الجزية، ولم يعد نفوذ العرب والمسلمين قاصرًا على إقليم ما وراء النهر بل امتد إلى أسوار الصين.

وكما كان للعباسيين دورهم الواضح في المجال السياسي فقد كان لهم الدور الأكبر في انتشار الإسلام والثقافة العربية في وطن الأتراك، فقد كان لشيوع الأمن

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ 8/ 257. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 307.

(2) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 459، 466. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ 8/ 319 – 320، 323، 340، 373. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 399.

والاستقرار السياسي والإداري في البلاد أثر كبير في إعلاء شأن الحكم العربي الإسلامي والتمكين للدعوة الإسلامية، ونجاح الإدارة العربية في حل المشكلات التي استعصى حلها يعلي من شأن الحضارة الإسلامية في نظر الناس[1].

(1) حسن أحمد محمود – أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص181 – 182. بتصرف.

ثانيًا: سياسة هارون الرشيد مع الهند والسند

ترجع علاقة المسلمين ببلاد الهند والسند[1] منذ زمن بعيد منذ عهد الخلفاء الراشدين، وازداد حملات المسلمين في عهد الخلفاء الأمويين وخاصة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، حتى تم فتح بلاد السند في عهد الوليد بن عبد الملك على يد القائد محمد بن القاسم الثقفي وقتل ملكهم داهر في رمضان 92هـ، واستمر في فتوحاته حتى وصلت فتوحاته إلى حدود كشمير[2]. ونظرًا لضعف الخلافة الأموية في أواخر أيامها فقد انتقضت الكثير من بلاد الهند والسند وارتد أهلها عن الإسلام إلى الهندوكية، وانتشرت الفتن والثورات في البلاد، وظلت هـذه الفتن متواصلة مما دفع الأمويون لإنشاء قواعد لتجميع المسلمين ولتكون قلاعًا حصينة في مواجهة الأخطار، فتم إنشاء مدينة المحفوظة بالقرب من شاطئ السند في ولاية الحكم بن عوانة الكلبي في خلافة هـشام بن عبد الملك، وجعلها مأوى للمسلمين، وبفضل هـذه القواعد دان أهل السند بالطاعة للأمويين [3].

(1) انقسمت شبه القارة الهندية في القديم إلى قسمين جغرافيين كبيرين، هما: «بلاد السند والبنجاب» و«بلاد الهند». وبلاد السند هي البلاد المحيطة بنهر السند «Indus"، الذي كان يسمى من قبل بـ "نهر مهران"، وينبع من عيون في أعالي السند وجبالها من أرض قشمير "كشمير"، ويصب في بحر السند "المحيط الهندي". وتمتد هذه البلاد غربًا من إيران، إلى جبال «الهمالايا» في الشمال الشرقي، تاركة شبه القارة الهندي في جنوبها. وتكوِّن - الآن - جزءًا كبيرًا من دولة باكستان الحالية. ومن مدن السند: مدينة «الديبل» «مكان كراتشي الحالية»، «قندابيل»، و«قيقان»، و«لاهور»، و«قصدار»، و«الميد»، و«الملتان» المجاورة للهند، وتقع على أعلى رافد من روافد نهر مهران. وكان العرب يطلقون على «السند» من الأسماء: «ثغر الهند»؛ لأنه كان في ذلك الوقت المعبر إلى بلاد الهند. طه عبد المقصود: موجز عن الفتوحات الإسلامية، ص17.

(2) خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، 1/ 304 - 305.

(3) البلاذري: فتوح البلدان، 1/ 426 - 427.

وأما في العصر العباسي فلم تتوقف حركة الفتوحات الإسلامية في بلاد الهند والسند، بل استمرت حركة الجهاد متواصلة، وخاصة في إمارة «كنوج» «قنوج» «Kanyj" أعظم إمارات الهند، والتي كانت تمتد من السند إلى البنغال، يقول البلاذري واصفًا حركة الجهاد في عهد أبي جعفر المنصور (136 - 157هـ): "وولى أمير المؤمنين المنصور رحمه اللَّه هـشام بن عمرو التغلبي السند ففتح ما استغلق، ووجه عمرو بن جمل في بوارج إلى نارند، ووجه إلى ناحية الهند فافتتح كشمير، وأصاب سبايًا ورقيقًا كثيرًا، وفتح الملتان[1].. وأتى القندهار في السفن ففتحها، وهدم البد (مكان عبادتهم كالكنيسة للنصارى والبيع لليهود) وبنى موضعه مسجدًا، فأخصبت البلاد في ولايته فتبركوا به ودوخ الثغر وحكم أموره"[2]. وقد سار الخليفة المهدي (158 - 169هـ) كذلك على سياسة والده في الجهاد في تلك البلاد، ففي سنة 159هـ وجه المهدي الجيش الإسلامي والمطوعة بقيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي لغزو بلاد الهند، حتى بلغوا مدينة باربد سنة 160هـ فحاصروها وضربوها بالمنجنيق، وفتحوها عنوة، ثم أحرقوا المدينة وأحرقوا النار في البد مكان تعبُّدهم. غير أن المسلمين أصيبوا بداء يسمى (حُمَامُ قُرٍّ)، مات به أكثر من ألف مسلم، ثم رجع المسلمون فلما بلغوا ساحلًا من فارس يقال له بحر حمران عصفت بهم الريح ليلًا، فانكسر عامة مراكبهم، فغرق البعض، ونجا البعض، وقد وصل من نجا منهم إلى البصرة ومعه سبي كثير منهم بنت ملكهم[3].

ولم تقف حركة الفتوحات الإسلامية في عهد الرشيد والمأمون والمعتصم في بلاد الهند والسند، فنتيجة لجهودهم المتواصلة انتشر الإسلام في المناطق

(1) الملتان: مدينة تقع في إقليم البنجاب، وهو إقليم يقع جزء منه شمالي الهند، والجزء الآخر شمال شرقي باكستان، فتحها محمد بن القاسم الثقفي سنة 93هـ.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، 1/ 427.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ 8/ 117، 128. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 218. ابن كثير: البداية والنهاية، 13/ 482 - 483.

الواقعة بين كابول وكشمير والملِّتان، وأسس المسلمون في ولاية عمران بن موسى البرمكي مدينة البيضاء في عهد المعتصم بالله (218 – 227هـ/ 833 – 841م)، وشحنوها بالجنود، وفتح عمران مدينة قندابيل، وغزا الميد وقتل منهم ثلاثة آلاف[1]. غير أن العلاقة بين الخلافة العباسية وبلاد الهند في عهد هـارون الرشيد أخذت اتجاهًا آخر بجانب الاتجاه العسكري، وهو الاتجاه التجاري وتبادل الهدايا، فنتيجة لازدهار الحياة الاقتصادية في خلافة الرشيد وتوسع حركة التجارة، فقد زادت الصلات السياسية بين الرشيد وملوك الهند.

فابن عبد ربه يذكر أن ملك الهند بعث إلى هـارون الرشيد بسيوف قلعيَّة، وكلاب سيورية، وثياب من ثياب الهند، وقد دار حوار بين الرشيد والوفد الهندي، وقد صرح لهم الرشيد أنه لم يعجبه إلا الكلاب السيورية، ولما انتهى الحوار بينهما أمر لهم الرشيد بتحف كثيرة، وأحسن جائزتهم[2]. وقد أشار الدكتور عبد العزيز الدوري إلى تضعيف الرواية معتمدًا على نص ابن عبد ربه، وهو أن الرشيد "لما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك فصفُّوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، وأذن للرسل فدخلوا عليه"، يقول الدكتور الدوري: "ونحن نعرف أن اصطناع الأتراك بهذه الدرجة لم يحصل إلا في خلافة المعتصم"[3]. وإشارة الدكتور الدوري في غير محلها لأن هـارون الرشيد لم يقتصر في عناصر جيشه على العرب والفرس فقط، ولم يكن الرشيد أول من اتخذ الأتراك وأكثر منهم، فقد ذكر القلقشندي أن أبا جعفر المنصور هـو أول من اتخذ الأتراك، اتخذ حمادًا التركي، ثم اتخذ المهدي بعده مباركًا التركي، ثم أكثر الخلفاء من الأتراك بعد ذلك[4]. بل نجد العنصر التركي كان حاضرًا وفي قصر الرشيد نفسه، فقد اتخذ الرشيد الترك في

(1) البلاذري: فتوح البلدان، 1/ 428. السيد عبد العزيز سالم: العصر العباسي الأول، ص212.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 2/ 73 – 74.

(3) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص116.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 1/ 472.

بلاطه ومنهم خادمه خاقان، وإخشيد، وأبو سليم فرج الذي ولاه الأهواز، وأشرف على عمارة طرسوس سنة 173هـ، وكان هـو المشرف كذلك على أول فداء بين المسلمين والبيزنطيين على نهر اللامس سنة 189هـ / 805م، بل واتخذ الرشيد فرقة من الأتراك من حرس الخليفة. كما اتخذ الرشيد حامية تركية مقيمة لإقرار النظام وقمع الفتن في مدينة زرنج سنة 180هـ[1]. وعليه فالأتراك الذين أمرهم الرشيد أن يصطفوا صفين أمام الوفد الهندي ربما يكونوا من حرس الخليفة، أو من جند جيشه.

(1) المسعودي: التنبيه والإشراف، جـ1/ 160. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 234. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، ص 118 - 119. بتصرف.

ثالثًا: سياسة هارون الرشيد مع الصين

لم تكن علاقة المسلمين ببلاد الصين حديثة العهد بظهور الإسلام، وإنما كانت قديمة، ولم تكن تتعدى العلاقات التجارية، غير أن هـذه العلاقات التجارية توسعت كثيرًا في العصر الأموي لاتساع حدود الدولة الإسلامية. وكانت مدينة كانتون التي تعرف في المصادر العربية باسم خانفو أو خانقو، من أعظم المدن التجارية الصينية التي كانت مفتوحة للعرب والمسلمين، وقد وصفها الجغرافي الحميري بقوله: «مدينة عظيمة في الصين على نهر عظيم، .. تدخل هـذا النهر سفن البحر الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائره بالأمتعة والجهاز، وبهذه المدينة خلائق من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس، وغيرهم من أهل الصين»[1].

كما يذكر توماس أرنولد أن الإسلام دخل بلاد الصين أول ما دخل مع التجار الذين كانوا يسلكون الطريق البحري القديم، كما ذكر أن علاقة المسلمين ببلاد الصين ترجع إلى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه (23هـ - 35هـ)، حيث كانت علاقات سياسية تبادلوها برًا عن طريق بلاد الفرس، فقد استنجد فيروز ابن يزدجرد آخر ملوك الفرس بملك الصين لينصره على المسلمين، غير أن إمبراطور الصين رفض لبعد المسافة بينهما، وقيل إن إمبراطور الصين بعث بسفير إلى بلاط الخليفة عثمان رضي الله عنه يدافع عن الأمير الهارب، ويتبين قوة المسلمين، وقيل أن الخليفة عثمان أرسل أحد القواد العرب ليرافق السفير الصيني في عودته سنة 30هـ/ 651م، فأكرم الإمبراطور الصيني وفادة أول سفير من المسلمين بعث إليه[2].

(1) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، 1/ 210.

(2) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص332.

وقد تطورت تلك العلاقة بشكل أكبر في عهد الخلافة الأموية، حيث فتوحات القائد المسلم الفذ قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي استغرق في فتح بلاد ما وراء النهر نحو عشر سنوات (86هـ - 96هـ) عبر أربع مراحل رئيسية، تمت الثلاثة الأولى ما بين أعوام (86هـ - 93هـ) فتح خلالها أقاليم طخارستان وبخارى وسجستان وخوارزم وسمرقند، ثم كانت المرحلة الرابعة (94هـ - 96هـ) وفيها فتح قتيبة بن مسلم ممالك الشاش وأشروسنة وفرغانة[1] ثم دخل أرض الصين، وأوغل في بلاد تركستان الشرقية[2]، ووصل إلى كاشغر عاصمة تركستان وهي أدنى مدائن الصين، ففتحها ثم أوغل حتى بلغ قريب الصين. وتهيأ قتيبة بن مسلم لفتح الصين لولا أن وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي (95هـ)، والخليفة الوليد بن عبد الملك (96هـ) جعلته يتوقف عند هـذا الحد، لكنه أجبر ملك الصين على دفع الجزية[3].

ومن إقليم تركستان الشرقية بدأت قوافل الدعاة تتحرك في المنطقة، فدخلت جنوبًا إلى إقليم التبت، وكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز لملوكهم يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، فأسلم بعضهم، وبدأ أهل التبت يتعرفون على الإسلام ويعتنقونه، بل إن والي خراسان لعمر بن عبد العزيز الجرَّاح بن عبد الله الحكمي أوغل حتى هـمّ في بدخول الصين نفسها، ويقال إن أهل التبت أرسلوا يطلبون الفقهاء لتعليمهم الإسلام[4].

(1) الشاش: على نهر سيحون، وتعرف اليوم باسم طشقند عاصمة كازاخستان الآن. وأما فرغانة فهي على نهر سيحون أيضًا، وتعرف اليوم باسم خوقند.

(2) تركستان الشرقية: وتعرف اليوم باسم مقاطعة « سينكيانغ»، وهي تحت الاحتلال الصيني الآن. يحدها من الشمال الغربي ثلاث جمهوريات إسلامية هي: كازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيستان، ومن الشمال الشرقي منغوليا، ومن الجنوب التبت، ومن الجنوب الغربي: الهند وأفغانستان وباكستان، ومن الشرق مقاطعة تشينغهاي.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 5/ 500 - 503. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 4/ 67 - 68.

(4) البلاذري: فتوح البلدان، 1/ 411.

ولما استقر المسلمون في تركستان الشرقية وتعمق الإسلام في قلوبهم بدأوا يدخلون الصين تجارًا ودعاة، وكانوا لبساطتهم في الدعوة ولغتهم السهلة وصدقهم وأمانتهم وحسن معاملتهم للناس أكثر تأثيرًا من الدعاة الرسميين في جذبهم للإسلام، ومما يسر للتجار المسلمين مهمتهم تلك العلاقات الطيبة التي قامت بين الدولة الأموية وإمبراطورية الصين، فقد ذكر توماس أرنولد نقلًا عن المصادر الصينية أن الخليفة الأموي هـشام بن عبد الملك أرسل في (108هـــ / 726م) سفيرًا اسمه سليمان، إلى إمبراطور الصين هـزوان كنج، ومع أن أرنولد لم يحدثنا عن طبيعة هـذه السفارة ولا عن مهمتها، إلا أنها تدل على حسن العلاقة بين الدولة الأموية وإمبراطورية الصين.

وقد تطورت تلك العلاقة إلى الأفضل مع العباسيين – خاصة بعد الصدام الذي حدث بين الفريقين في معركة طالاس سنة (133هـ/ 752م)، فيذكر آرنولد أن إمبراطور الصين سوتسونج – وهو ابن الإمبراطور السابق – قد استغاث بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ضد ثورة قامت عليه سنة (139هـ/ 756م) فأغاثه المنصور بفرقة من الجيش الإسلامي، التي لم تعد إلى بلادها بعد القضاء على الثورة، بل بقي الجنود المسلمون في الصين وتزوجوا وعاشوا هـناك[1].

وقد تكونت في الصين بفضل ذلك جالية إسلامية كبيرة في ولاية (يانغ تشو)، إلا أنه في عام 139هـ/ 756م قامت هـناك ثورة بإمرة (تيان زين كونغ) في عهد أسرة تانغ، أدت إلى هـلاك الكثير من المسلمين، وقد بعثت الخلافة العباسية بجيش قوامه أربعة آلاف جندي للقضاء على الثورة سنة 142هـ، ومن الملاحظ أن المسلمين دعموا الحكم في الصين آنذاك؛ لأنه لم يقف في وجه الدعوة الإسلامية[2].

---

(1) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص332 – 333. عبد الشافي محمد عبد اللطيف: السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ص293.

(2) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي – الأقليات الإسلامية، ص140 – 142. بتصرف.

كما تزايد اهتمام الخلفاء العباسيين بالطرق التجارية المؤدية إلى الصين وتعميرها، فكانت طرق كبرى تَتَشَعَّع من بغداد وتمر بالري وسينابور، ومرو، وبخارى، وسمرقند، إلى كاشغر وحدود بلاد الصين، أو إلى البصرة فشيزار، أو إلى الكوفة فالمدينة، ومكة وعدن، أو إلى ساحل بلاد الشام مجتازة الموصل أو دمشق. وأنشئت النزل، والخانات، والمضايف، وصهاريج الماء في الطرق ليستقي منها المسافرون والدواب[1].

تبين مما سبق أن العرب كانوا على اتصال دائم ببلاد الصين، وقد زاد هـذا الاتصال كثيرًا في عصر هـارون الرشيد، لتفشي الترف في المجتمع وتوسع حركة التجارة، فساعد ذلك على توسع شهرة العرب وإعلاء اسم الخليفة، ولعل هـذا ما يفسر لنا ما نسمع به من صلات سياسية بين هـارون الرشيد وبين الصين.

يذكر الدكتور عبد العزيز الدوري أن التواريخ الصينية تشير إلى ذهاب عدة سفارات عربية إلى البلاط الصيني في القرن السابع والثامن للميلاد، مرسلة من (HAN – MI MO – MINI)، أي أمير المؤمنين أبي العباس وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد، وهي تذكر ثلاثة وفود أرسلها الرشيد وصل أحدها سنة 185هـ/ 798م[2].

(1) ول ديورانت: قصة الحضارة، 13/ 109.

(2) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، ص116..

الفَصْلُ الرَّابِعُ

سياسة هارون الرشيد مع المغرب والأندلس

- أولًا: سياسة الرشيد مع إمارات المغرب العربي.
- ثانيًا: سياسة الرشيد مع الأمويين في الأندلس.

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[الحجرات: 10].

أولًا: سياسة الرشيد مع إمارات المغرب العربي

ظل العالم الإسلامي يتمتع بالوحدة والقوة طوال فترة الخلافة الأموية، ولم تقم فيه أي حركات انفصال واضحة وقوية عن الخلافة، غير أنه بسقوط الدولة الأموية بدأ الضعف والتفكك ينخر في جسد الأمة الإسلامية، نتج عنه أن استقلت الكثير من الولايات عن الخلافة العباسية الناشئة، فقد انشغل العباسيون في بداية حكمهم بتوطيد ملكهم وتثبيت دعائم حكمهم في تلك البلاد المتنائية الأطراف من الصين شرقًا إلى بلاد المغرب غربًا، فاستغل الكثير من أصحاب المطامع تلك الظروف وأعلنوا استقلالهم كإمارات منفصلة عن الخلافة العباسية.

وهنا ملاحظتان:

الأولى: أن معظم هـذه الولايات كانت في بلاد المغرب العربي (المغرب- الجزائر - تونس).

وربما كان ذلك راجعًا إلى بعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية في بغداد، أو لانشغال العباسيين بقمع الثورات المتلاحقة عليهم في شرق البلاد، أو لانشغال العباسيين في جهاد البيزنطيين ورد غاراتهم، وربما يكون لعدم تمكن الإسلام من قلوبهم وعدم استعدادهم أن يكونوا تحت سلطان العرب، وهناك عامل آخر هـو تذمر البربر في تلك البلاد من عسف الولاة وظلمهم. كما أن المتتبع لبعض تلك الولايات الانفصالية يجد أنها تنبع من أفكار مناوئة للخلافة، كالخوارج والشيعة.

الثانية: أنه مع قوة الخلافة واتساع رقعة الدولة وعلو هـيبتها في عهد هـارون الرشيد، إلا أن ذلك لم يحل دون ظهور تلك الحركات الانفصالية، والتي كان بعضها عن رضا من الرشيد نفسه، ربما لمصالح سياسية وعسكرية. وقد حاول

الرشيد أكثر من مرة أن يقضي على هـذه الحركات، كان آخرها أن أرسل قائده هـرثمة بن أعين إلى القيروان لضبط أحوالها، فوصلها في ربيع الآخر 179هـ، وقد استطاع بسياسته الحكيمة أن يعيد الاستقرار والأمن إلى إفريقية مرة أخرى، وجدد ما تخرب من المدن والموانيء والمنشآت، غير أن هـرثمة وجد كثرة الثوار والخلاف بإفريقية فاستعفى الرشيد من ولايتها فأعفاه، ورجع إلى العراق لسنتين ونصف من ولايته، وولي مكانه محمد بن مقاتل الكعبي، فقدم القيروان في رمضان سنة 181هـ، فأساء السيرة وظلم وعسف، فاضطرب أمره وشكاه الناس للرشيد الذي عزله وولى مكانه إبراهيم بن الأغلب سنة 184هـ[1].

وهكذا فإن الفتن والقلاقل استمرت في إفريقية ولم يستطع الرشيد إخمادها، وكان حصيلتها ظهور الدول المستقلة عن الخلافة العباسية، على النحو التالي[2]:

1 - جنوب المغرب الأقصى - دولة بني مدرار بسجلماسة (140 - 297هـ/ 757 - 909م)

قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة 140هـ، على يد عيسى بن يزيد المكناسي، وهم من الخوارج الصفرية، بسطت هـذه الدولة سلطانها على منطقة سلجماسة، وهادنوا العباسيين في القيروان. وانصرفوا إلى شؤونهم الداخلية وتجارتهم، حيث كانوا تجارًا بين الشمال والجنوب عبر الصحراء، وقد قضت عليهم الدولة العبيدية (الفاطمية) عام 297هـ/ 909 م.

2 - المغرب الأوسط - الدولة الرستمية (144 - 296هـ/ 761 - 908م)

وقد ساعد البعد المكاني لبلاد المغرب العربي على تكوينهم دولًا مستقلًا عن

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 4/ 249. ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1/ 89 - 92.

(2) انظر تفاصيل الدول المستقلة وأحوال الخلافة العباسية معها في: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي - الدولة العباسية، 1/ 172 - 178. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - العصر العباسي الأول، 2/ 167 - 197. عصام الدين الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، ص118 - 162. بتصرف.

الخلافة العباسية، وكان أول هـذه الدول المستقلة الدولة الرستمية، فقد استطاع الخوارج الإباضية بإمامة عبد الرحمن بن رستم أن يكوِّنوا لهم دولة منفصلة عن الخلافة العباسية في المغرب الأوسط في مدينة تاهرت (غرب الجزائر) عام 161هـ، وأصبح عبد الرحمن بن رستم إمامًا لهذه الدولة، وقد هـادن ولاة القيروان. وبعد وفاته عام 171هـ، خلفه ابنه عبد الوهاب واستمر حكمه إلى ما بعد هـارون الرشيد، وقد هـادن ولاة إفريقية من قبل الرشيد أو من جاء بعدهم من الأغالبة.

3 - **المغرب الأقصى - دولة الأدارسة (172 - 375هـ / 788 - 985م)**

ومن الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية في عهد الرشيد دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (المغرب الآن)، والتي أسسها إدريس بن عبد الله، الذي نجا من معركة فخ عام 169هـ واتجه نحو مصر ومنها إلى المغرب، حيث استطاع أن يؤسس دولة الأدارسة سنة 172هـ، وبنى مدينة فاس واتخذها عاصمة له.

وقد استاء الرشيد من إقامة دولة الأدارسة، حيث اقتطع إدريس جزءًا من دولته، ورأى الرشيد أنه من الصعب إرسال جيش للقضاء على هـذه الدولة لبعد المسافة ولأن إدريس يتمتع بتأييد البربر، فما كان من الرشيد إلا أن تركه وأمره. وتوفي إدريس بعد حكم دام ثلاث سنوات سنة 175هـ/ 791م. واستمرت دولته يتعاقبها أولاده حتى سنة 375هـ.

إلا أن الكثير من المؤرخين ينسبون إلى هـارون الرشيد بأنه لجأ إلى التآمر للتخلص من خصمه إدريس، فأرسل له مَن سمَّه، غير أن المتتبع لروايات المؤرخين يتبين له التناقض والاختلاف في تفاصيل الحادثة من مؤرخ لآخر، مما يجعلنا نشكك في صحتها ومدى صدقها.

ويمكن أن نجمل أوجه ضعف هـذه الحادثة في النقاط التالية:

أ - أن كبار المؤرخين ممن نقلوا هـذه الحادثة، مثل الطبري وابن الأثير

والذهبي بدءوا سردها بقولهم (ويقال، وقيل إن الرشيد ..)، وهي كلمة للشك وعدم التأكد[1].

ب – ذكر ابن الأبار في الحلة السيراء أن يحيى بن خالد البرمكي هـو من أرسل من سمَّ إدريس، وليس الرشيد من بعث ودبَّر وقتل.

جـ – مدى اختلاف المؤرخين في تحديد شخصية من سمَّ إدريس، فمنهم من قال اسمه: الشماخ اليمامي مولى الخليفة المهدي، وقيل بل سليمان بن جرير الرقى كان سبب سمه، وكان إدريس به واثقًا فأتى من قبله، وحاول ابن خلدون أن يوفق بينهما، فقال: "دسَّ إليه الرشيد مولى من موالي المهدي اسمه سليمان بن حريز ويعرف بالشمَّاخ".

ج – واختلفوا في سبب سمِّ إدريس، فقيل إن سليمان بن جرير – وكان يقول بإمامة زيد بن علي بن الحسين (الشيعة الزيدية) – ناظر إدريس (الشيعة العلوية) يومًا في شيء فخالفه ثم دخل الحمام فلما خرج بعث إليه سليمان بسمكة مسمومة. وقيل السبب هـو تعاظم أمره عند الرشيد لتنازعه الملك في إفريقية.

د – بل واختلفوا في كيفية تسمم إدريس، فمنهم من قال وضع له السم في بطيخة، ومن قال في سمكة، ومن قال في أسنان مسمومة، ومن قال في دواء مسموم، وعليه فهم وإن اختلفوا في الشيء الذي سم به، فهم مجمعون على أنه مات مسمومًا[2].

وبناء على ما سبق، فالخليفة الرشيد نظر إلى أمر الأدارسة كأمر واقع فعلًا، ولا قِبَل له بمقاومته؛ لأن ذلك من شأنه أن يجر الخلافة إلى مزيد من الدماء واستهلاك

(1) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 198 – 199. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 5/ 262. الذهبي: تاريخ الإسلام، 4/ 285.

(2) ابن الأبار: الحلة السيراء، 1/ 52 – 53، 98 – 100. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، 4/ 17 – 18. أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، 1/ 213 – 215.

الجيوش وإضعاف الخلافة في مقاومة غارات البيزنطيين والخارجين في المشرق، فما كان منه إلا أن سلك طريق المسالمة، وجعل للأغالبة سلطانًا على إفريقية يحول بينه وبينهم.

4 - المغرب الأدنى - دولة الأغالبة (184 - 296هـ/ 800 - 909م)

في عام 184هـ ولَّى هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب أفريقية (تونس الآن)، ومنذ أن تولى إبراهيم الإمارة بدأ يعمل على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده. عرف الرشيد رغبة إبراهيم بن الأغلب، ومع ذلك استبقاه في الإمارة بل ودعمه ما دام يعمل باسم العباسيين، وخاصة أن الرشيد كان مشغولًا بحرب البيزنطيين، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، وفي الوقت نفسه يريد أن يحمي الأجزاء الغربية من الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج وأدارسة وأمويين، ولم يكن لدى الرشيد أسطول يحمي أقاليم البحر المتوسط فاكتفى بالإشراف على دولة إبراهيم بن الأغلب، ورأى ذلك خيرًا وأفضل من أن يخرجوا من إشرافه نهائيًّا كباقي الإمارات، ولم يلبث إبراهيم بن الأغلب أن بنى مدينة سماها العباسية بالقرب من القيروان منتصف سنة 184هـ وجعلها قاعدة لإمارته.

ثانيًا: سياسة الرشيد مع الأمويين في الأندلس

من النقاط المهمة التي تتصل بالسياسة الخارجية لأمير المؤمنين هارون الرشيد، والتي نحا فيها الكثير من المؤرخين منحًا غريبًا وتم تأويلها تأويلات كثيرة، تلك العلاقة بين الرشيد والأمويين في بلاد الأندلس. فقد كانت بلاد الأندلس غارقة في بحر من الخلافات القبلية عندما أعلن بنو العباس بدء دولتهم سنة 132هـ، وقابل العباسيون مشكلات جمة عند قيام دولتهم، فصرفهم ذلك عن إخضاع الأندلس لسلطانهم، وظلت الأندلس تعاني الاضطراب الداخلي بين المضرية القيسية واليمنية حتى استطاع عبد الرحمن الداخل أن يدخل الأندلس سنة 138هـ/ 756م، ويعيد فيها ملك بني أمية.

وقد حاول أبو جعفر المنصور أن يستميل عبد الرحمن الداخل ويضمه إليه، وقد أبدى أبو جعفر المنصور إعجابه بعبد الرحمن الداخل، الذي استطاع أن يستعيد ملك آبائه في تلك البلاد البعيدة بعد أن كان طريدًا شريدًا، فلقبه بصقر قريش، وفي المقابل كانت الدعوة العباسية قد انتهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن الداخل، وذاعت في منابرها، ودعى في الخطبة لبني العباس في كثير من النواحي، ثم دعى لهم في قرطبة ذاتها، ودعى عبد الرحمن الداخل نفسه لأبى جعفر المنصور مدى عشرة أشهر[1]، وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه، عملاً من أعمال السياسة،

(1) اختلف المؤرخون في المدة التي قضاها الأمير عبد الرحمن الداخل وهو يدعو لأبي جعفر المنصور، فابن حزم أشار إلى أنه ظل يدعو له أعوامًا، وأما ابن الأثير فقد حددها بعشرة أشهر فقط، وتابعه على ذلك النويري والمقري، في حين أن ابن الأبار ذكر أن المدة دون السنة، وأما ابن الكردبوس فقد ذكر أن جميع أمراء بني أمية كانوا يخطبون للعباسيين، وتابعه على ذلك ابن أبي دينار، وأما صاحب ذكر بلاد الأندلس فقد ذكر أن الدعوة استمرت لأبي جعفر المنصور مدة سنتين، في حين أن ابن خلدون لم يحدد المدة. انظر: سالم عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، 1/ 190.

إلا أن الداخل قطع الخطبة، وبعدها أصبح الدعاء للأمير الأموي وحده[1]، وبذلك استقلت الأندلس نهائيًا عن الخلافة العباسية.

ولما لم يفلح الخليفة المنصور في ضم الأندلس فكر أن يخضع الداخل لسلطانه بالقوة، ولكنه عجز لبعد الشقة ولانشغال جيوش الخلافة المشكلات الداخلية، وهي نفس الأسباب التي دعت الخليفة المهدي لكي يغض طرفه عن ضم الأندلس.

بل ذهب بعض المؤرخين إلى اتهام الخليفة المهدي بمشاركته في مؤامرة دولية واسعة النطاق مع شارلمان ملك الفرنجة والمتآمرين في الأندلس في سبيل القضاء على عبد الرحمن الداخل واسترداد الأندلس. ولكن هـذا الرأي بحاجة إلى أدلة قوية، وهو عرضة للتشكيك، ولا يمكن الأخذ به بسهولة. فلم يكن المتآمرون يعملون إلا في سبيل مصالحهم الخاصة، فشارلمان تحدوه أطماع التوسع وضم البلاد، وبقية الزعماء الخونة الذين ارتضوا التعامل معه، لم يكن يدفعهم إلا شهوة الحكم والسيطرة، ولو كان ذلك خلاف مصالح الأمة والمباديء. أما ما يقال عن اتصال أحد المتمردين، وهو عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلي، بالخليفة المهدي، فلا يقوم عليه دليل قوي في المصادر العربية، ربما كان هـذا قد عمل تحت ستار الخلافة العباسية ليحمل الناس على الالتفاف حوله[2].

ولما ولي هـارون الرشيد أمر الخلافة كان قد استقر الأمويون في بلاد الأندلس، ولم يعد للرشيد فيها مطمع، وكان يعاصره من الأمويين في الأندلس عبد الرحمن الداخل (138هـ - 172هـ) وولده هـشام الرضا (172هـ - 180هـ) وولده الحكم الربضي (180هـ - 206هـ).

(1) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 197. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - الخلافة العباسية، 3/ 249.

(2) خليل إبراهيم السامرائي - عبد الواحد ذنون طه - ناطق صالح مصلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص129.

ولم تذكر المصادر العربية أي محاولات أو تفكير من قِبَل هارون الرشيد لضم الأندلس، سوى ما كان من المصادر اللاتينية التي تناولت علاقة الرشيد بشارلمان، وأنه قد تمت مؤامرة بينهما، لإضعاف الأمويين في الأندلس والإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية، وقد أثبتنا ضعفها كما سبق[1]، فقد اعتمد الرشيد على سياسة الاعتراف بالأمر الواقع، وعدم الخوض في مغامرات غير مأمونة العواقب عليه وعلى دولته المترامية الأطراف.

نلخص ما سبق أنه لا يمكن أن يكون للعباسيين أية علاقة بما يحدث في الأندلس من اضطرابات وفتن ومؤامرات على عبد الرحمن الداخل؛ لأنهم كانوا مشغولين بمشاكلهم السياسية الخاصة بهم التي هي أوجب من الانصراف إلى التفكير في الأندلس البعيدة.

(1) انظر الباب الثاني – الفصل الثاني الخاص بطبيعة العلاقة بين هارون الرشيد وشارلمان، ص201 – 206.

أين الرشيد وقد طاف الغمـــام بـه ... فحيـــن جاوز بغـدادًا تحـــداه؟
مُلْكٌ كمُلك بنـي التاميز ما غَرَبت ... شمـسٌ عليه، ولا برقٌ تخطاه
ماضٍ تعـيش علـى أنقاضـه أمَـــمٌ ... وتستمدُّ القوى من وحي ذكراه

الشاعر: محمود غنيم

الخاتمة

وإنه يجدر بنا في ختام هذه الجولة الماتعة في حدائق الرشيد الغنَّاء أن نبيِّن بعضًا من الحقائق الهامة، ومنها:

أولا: لم يكن العصر العباسي عصر جمود للفتوح على نحو ما يذهب بعض الدارسين، فقد اندفع العباسيون في تيار الفتح بنفس قوة الأمويين، ويكفي أن نشير إلى ما أحرزوه من نصر في بلاد ما وراء النهر، وفي جهادهم المتواصل ضد الإمبراطورية البيزنطية صيفًا وشتاءً، وفتح الرشيد هـرقلة وولده المعتصم عمورية، وكذلك هـزيمة العباسيين للصين وقضائهم على تدخلهم في أحوال الترك.

ثانيًا: استنتج بعض المؤرخين من كون هـارون الرشيد عهد لإبراهيم بن الأغلب بالحكم الذاتي والاستقلال بالمغرب الأدنى- تونس أو إمارة إفريقية، وأن تظل باقية قي ولده من بعده، أن ذلك بداية الانحطاط والضعف في الدولة العباسية، وهذا زعم كاذب لا دليل عليه، بل التاريخ يكذبه، فمنح الرشيد لابن الأغلب الحكم الذاتي بتونس كان له أسبابه الوجيهة والنابعة من السياسة التي اتبعها الرشيد في مثل الأقطار البعيدة عن السلطة المركزية في بغداد، كإمارات المغرب العربي، فقد أخذت دولة الرشيد تعهد إلى من تتوسم بهم الكفاية والقدرة على ضبط الأمور وحفظ الأمن، فتعهد إليهم بالولاية وتجعلها باقية فيهم، وهو ما كان مع بني الأغلب، مقابل ضريبة يدفعونها إلى بيت مال الخلافة تقدَّر بأربعين ألف دينار في كل سنة. وهناك سبب آخر أن الرشيد أراد أن يتفرغ من مشاكله في بلاد المغرب إلى التوسع في الفتوحات في المشرق وقمع الثورات المتلاحقة هـناك، وكذلك لانشغاله في جهاد البيزنطيين ورد غاراتهم - وكانت تلك الحملات على

الدوام. وقد كانت تلك السياسة الحكيمة من الرشيد سببًا واضحًا في الاستقرار النسبي في إفريقية، حيث ظل الأغالبة حائط الصدِّ أمام الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج وأدارسة وأمويين، كما استطاعوا أن يفتحوا صقلية ومالطة، وأن يقيموا حضارة عظيمة في تونس، مازالت آثارها خالدة إلى الآن.

ولنتساءل: كيف تكون أيام الرشيد بداية انحطاط دولة بني العباس وقد جاء عقبه ولده المأمون ذلكم الخليفة العالم (198هـ - 218هـ) الذي كانت ملوك وأباطرة الدنيا يقدِّمون له فروض الطاعة، ويبعثون له بالهدايا استرضاءً، وبلغت الحضارة الإسلامية في عهده ما فاقت عهد أبيه. ثم جاء من بعده المعتصم (218هـ - 227هـ)، صاحب النداء الشهير في الإسلام (وا معتصماه)، والذي به فتح عمورية (223هـ/ 838م)، تلك التي لم يعرض لها أحد من المسلمين منذ كان الإسلام، وهي عين النصرانية وبنكها، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية، كما قال الطبري.

ثالثًا: أن بغداد الرشيد هي بغداد العلم والحضارة والتقدم، إن العلم هو السلاح الذي تنتصر به الأمم وتبنى به الحضارات، وهذه الحقيقة فقهها هارون الرشيد جيدًا، فطبقها في دولته واستقدم العلماء وبنى لهم أول جامعة علمية إسلامية وأجرى لعلمائها الأرزاق، حتى غدت بغداد كعبة العلم والعلماء يحج إليها طلاب المعرفة من كل حدب وصوب.

رابعًا: تبيَّن لنا من سمو الرشيد وأخلاقه مدى التسامح الإسلامي، وهو أعظم ملوك الدنيا عندئذ، وهو يضع عالمًا نصرانيّا على رأس أهم مؤسسة علمية في دولته؟! هو يوحنا بن ماسويه، وكان نصراني الديانة سريانيًّا، جعله على رأس بيت الحكمة أول جامعة علمية أكاديمية في التاريخ. بل وصل تسامح هارون الرشيد أن وضع كلَّ ثقته في أشهر الأطباء النصارى وهو بختيشوع الطبيب وابنه جبرائيل بن بختيشوع، جعلهما أمناء على حياته الشخصية، مع اختلاف الدين بينهما. ولا

عجب في ذلك، فما حفظ للنصارى وغيرهم من الأقليات الغير المسلمة حقوقهم بمثل المسلمين، وما تمتعوا بكامل حريتهم سوى داخل الدولة الإسلامية، وذلك مبدأ من مبادئ الإسلام: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

خامسًا: إننا نستطيع أن نقول وبكل ثقة: إن عصر هـارون الرشيد هـو العصر الذهبي للخلافة الإسلامية قوة واتساعًا وحضارة، وغرة في جبينها، فلقد كان الرشيد درة التاج العباسي، وأحد عظماء الملوك في التاريخ[1]، فعلى الرغم من كثرة متاعب الخلافة وأعباء الملك، إلا أن ذلك كله لم يلهه عن العلم والفن، كذلك لم يلهه ولعه بالعلم والفن تصريف شئون الدولة وإدارة أحوال الرعية، وهذا وجه من عظمة الرشيد، وهي العظمة التي شهدها له ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة بقوله: «ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوي العقول الراجحة النابهين. وكان يعاصره في غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة في القسطنطينية، والملك شارلمان في فرنسا، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung، ولكن هـارون الرشيد بزهم جميعًا في الثراء، والسلطان، وأبهة الملك، والتقدم الثقافي الذي ازدان به حكمه»[2].

سادسًا: لا بد أن نؤمن أن الرشيد رحمه الله بشرًا، وطبيعة البشر الخطأ والصواب، فليس الرشيد بمعصوم عن الخطأ هـنا أو التقصير في أمر هـناك، وهذه مسلمة تجعلنا نستريح كثيرًا في تناولنا لسيرة العظماء في تاريخنا، فليس أحد بمعصوم غير رسولنا ﷺ، غير ما تناولته كتب الأدب والمحاضرات حول سيرة الرشيد اللاهي العابث الماجن، تجعلنا نتوقف عندها كثيرًا، خاصة ما كُتب عنه في

(1) أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الإسلامي، الناشر، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى: 1417 هـ - 1996م، ص 186.

(2) ول ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين، 13/ 92.

حكايات ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني وغيرهما.

فأما كتاب ألف ليلة وليلة، فهي مجموعة من القصص الشعبي، ذكر المسعودي (ت: 346هـ) وابن النديم (ت: 438هـ) أنها مترجمة عن أصل فارسي اسمه (هزار أفسان أو هـزار أفسانة)، وهذا الأصل غير موجود، مما يجعلنا نشكك أولًا في صحة ما يقال فيها عن الرشيد.

وألف ليلة وليلة أخذها العرب من الأدب الفارسي والهندي، ومادتها والأسماء الواردة فيها تدل على ذلك، وقد نقلت إلى العربية في القرن الثالث الهجري، وقد قام المستشرق الفرنسي أنطوان جالان (1056 - 1127هـ/ 1646 - 1715م) بنقلها، فانتشرت في أوروبا ومنها إلى العالم أجمع.

والغريب أنه ذُكرت بعضٌ من قصص الرشيد ضمن حكايات ألف ليلة وليلة، فظن بعضهم أنها كتبت بعد أيامه بفترة قصيرة، وهذا غير صحيح كما تقدَّم. لقد شوَّهت هـذه الحكايات سيرة الرشيد كذبًا وخيالًا، وسطَّرت حوله الخرافات والأساطير، وكأن الأوروبيين وغيرهم ظنوا أن الرَّفاه في قصر الرشيد لا يمكن أن يكون إلا كما كان في قصر شارلمان من شراب وفسق وفجور، فجعلوا الرشيد بطلًا لرواياتهم وبصورة تشبه ما يجري في قصورهم، مع أن الرشيد لم يسمع عن حكايات ألف ليلة وليلة؛ لأنها ترجمت في القرن الثالث الهجري وقد عاش هـو في القرن الثاني الهجري، وتدل قصص ألف ليلة وليلة أنها مؤلَّفة من قبل عديدين أضافوا إليها حتى العصر المملوكي[1].

وأما كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت 356هـ)، فهو من الكتب التي مُلئت بالزور والبهتان وألصقت بالرشيد كل نقيصة في دينه وشرفه وعفَّته، وخاصة أخباره مع أبي نواس. غير أن هـناك جملة من الحقائق حول الكتاب ومؤلفه تنسف

(1) انظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، 2/ 201. ابن النديم: الفهرست، 1/ 369. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، ص201 - 203.

كل ما جاء فيه عن أخبار الرشيد المزورة. فمؤلف الأغاني بمنظار الثقات ينتهي نسبه إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وذلك ما أجمع عليه معرِّفوه، وهو شيعي المذهب بشهادتهم، وبذلك يجمع بين النقيضين، التشيع للبيت العلوي والنسب إلى البيت الأموي. فضلًا عن أنه كان شعوبيًا، امتلأ قلبه بالحقد اللاهب على كل ماهـو عربي أو إسلامي، فجَّرها في عقلَيْهِ الظاهرِ والباطن انهيارُ السلطان الأموي، الذي حرمه فرص التمتع بعزة الملك، الذي كان من الطبيعي أن يكون أحد ورثائه الأقربين لو قُيِّض لأبيه - آخر خلفاء بني أمية - الانتصار على خصومه.

وقد تباينت آراء العلماء في شخصية الأصفهاني، فمع اتفاقهم على توكيد مكانته الثقافية يختلفون في قيمته الذاتية، ففي رأي الثعالبي أبي منصور أنه من أعيان أدباء بغداد وأفراد مصنفيها وشعرائها، وكذلك قال فيه ابن خلكان في وفيات الأعيان. ومقابل ذلك يقول الإمام ابن الجوزي "إن مثله لا يوثق بروايته التي تحتوي ما يوجب تفسيقه، وهو يشرب الخمر وفي أغانيه كل قبيح ومنكر.."، ويروي الإمام الذهبي عن شيخ الإِسلام ابن تيمية أنه يضعِّفه ويتهمه في نقله ويستهول ما يأتي به. وقال عنه الخطيب البغدادي: "كان أبو الفرج الأصفهاني أكذب الناس"، وقال عنه ياقوت الحموي: " وكان أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني وسِخًا قذِرًا لم يغسل له ثوبًا منذ فصَّله إلى أن قطَّعه». وقال فيه الذهبي في ميزان الاعتدال: «شيعي، وهذا نادر في أموي. كان إليه المنتهى في معرفة الأخبار وأيام الناس، والشعر والغناء والمحاضرات، يأتي بأعاجيب بحدثنا وأخبرنا».

ومن يتأمل كتاب الأغاني يجد أن المؤلف صبَّ جل اهتمامه على الجانب اللاهي من بيئة الرشيد وغواة عصره، حتى ليخيل لقصار البصيرة أن المجون هـو اللون الوحيد الذي تميزت به تلك الحقبة، على حين أن ما خلص إلينا من مؤلفات الثقات تشهد بأن المجون لا يعدو النسبة الضئيلة من النشاط الجاد الذي يميزها فيجعلها أزهى عصور الحضارة الإسلامية الحافلة بأيمة المذاهب وأقطاب

الزهد، وأساطين العربية، وعمالقة الفكر العالمي، الذين أمدوا العالم كله بالأشعة التي بددت الظلمات وفجرت ينابيع المعرفة، وكانت وراء كل التطورات العلمية الحديثة. لقد كان أبو الفرج من أوسع الناس علمًا بأحوال عصره، ولابد أن يكون قد علم يقينًا ما أجمع عليه مؤرخوا تلك الأيام من أن مجالس الرشيد كانت تضم الصفوة من أساطين العلماء وعمالقة اللغة والأدب.

فماله يضرب صفحًا عن ذكر هـذه القمم، ويقصر نظره على ذلك الجانب اللاهي الذي يقتصر على أمثال الموصليَّيْن وابن جامع والزف ومخارق وبرصوما وزلزل وبقية الشلة من صعاليك المغنين والزمارين والطبالين!!.

لماذا اختار لنفسه مسلك الذبابة التي لا يستهويها سوى القمامة فلا تعير الطيبات أي اهتمام!!. ألم يكن من حق الأدب والعلم والتاريخ على مؤلف الأغاني أن يفسح ولو فرجة صغيرة من كتابه لإعطاء القارئ فرصة الإطلال على الجميل النظيف من بيئة الرشيد؟!.

إن من يتأمل كتاب الأغاني للأصفهاني يرى حياة العباسيين لهوًا ومجونًا وخلاعة، وهذا ما يناسب المؤلف وخياله ومجونه، وما حوله، وهذه بلا ريب صورة مرفوضة؛ لأن المؤلف يأتي بالأعاجيب بحدثنا وأخبرنا[1].

وأما عن علاقة الرشيد بأبي نواس، فقد فصَّلنا فيها القول عند حديثنا حول الأدب في عهد هـارون الرشيد[2]، وتبيَّن أن ما ذكره كتاب الأغاني عن هـذه العلاقة التي يجمعها الخمر والمجون هـي من محض الكذب والافتراء، وان الكثير من هـذه الأشعار انتحلت على أبي نواس فيما بعد.

سابعًا: ذهب بعض من كتب عن هـارون الرشيد إلى أنه ذو شخصيتين، ومنهم

(1) انظر تفاصيل ذلك في: محمد مصطفى المجذوب: جولة في كتابي (الأغاني) و(السيف اليماني)، ص425 – 434. بتصرف.

(2) انظر الباب الأول – الفصل الثامن الخاص بالحياة العلمية، خامسًا: الأدب في عهد الرشيد.

أحمد أمين في كتابه (هارون الرشيد)، فقد ذهب إلى أن الرشيد كان جادًا لاهيًا، تثور عاطفته الدينية أحيانًا، فيصلي مائة ركعة ويبكي ويحج ماشيًا، وتثور عاطفته الدنيوية أحيانًا، فيسمع الغناء ويشرب الشراب، وتثور عاطفته الحربية فيتولي قيادة الصائفة والشاتية[1]. وتابعه في ذلك الشيخ علي الطنطاوي في كتابه رجال من التاريخ، فقد جعل للرشيد مقالًا تحت عنوان (أكبر ملوك الأرض)، أورد فيه بمثل ما أورده أحمد أمين، وأرجع ذلك- حسب استخلاصه - إلى عقدة نفسية فيه، فلم يستطع الرشيد أن يوفق بين صلاحه وتقواه، وبين رغباته ولذاته[2].

أما ما قاله أحمد أمين من تناقض الرشيد في عواطفه، فهذا غير صحيح، فالمتتبع لسيرة الرشيد يجده متزنًا في عواطفه، مستقيمًا في أحواله، يجلس إلى العلماء والفقهاء ويسمع منهم، وكانوا عنده في محل إكرام وتقدير، وكان كما وصفه يزيد بن مزيد الشيباني، «فقد جعلك الله وله الحمد، تتثبت تحرجًا عند الغضب، وتتطول ممتنا بالنعم، وتعفو عن المسيء تفضلًا بالعفو»[3]. والمتبع لسيرة الرشيد يجد انضباطه بموجب الشرع والدين، وإن ما ذكرناه عن أخلاقه وعبادته وأدبه وحسن سيرته وجهاده، كفيلًا بالرد على هـذه التهمة ورد افتراءاتها.

وأما ما ذكره الشيخ علي الطنطاوي، فإنه مما يؤسف له؛ إذ كيف ينجر رحمه الله لما يقوله المستشرقون والمستغربون مع سعة علمه ودينه، فضلًا على أنه لم يأت بدليل واحد على ما قاله، وقد فصَّلنا القول وأوضحناه ورددنا على شبهة تحالف الرشيد مع شارلمان ضد ابن عمه عبد الرحمن الداخل، وكذلك شبهة الغناء والموسيقى وشربه الخمر وملاعبة القيان!.

ثامنًا: لماذا هـارون الرشيد بالذات؟ والإجابة بالتأكيد؛ لأن عصر الرشيد هـو

---

(1) أحمد أمين: هارون الرشيد، ص187 – 18.

(2) علي الطنطاوي: رجال من التاريخ، 1/ 120 – 121.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 8/ 353.

واسطة العقد للحضارة الإسلامية، وقمة المجد والعزة التي وصلت إليها دولة الإسلام على مر العصور. وبما أن هـؤلاء المستشرقون ومن تبعهم لا يجرؤون على الطعن في الإسلام مباشرة؛ إذ ستكون ردة فعل المسلمين عليهم عنيفة وقوية، فقد لجأوا إلى الطعن والتشويه في رموزه وقادته وبناة حضارته، فطعنوا في عثمان بن عفان رضي الله عنه، وطعنوا في سيرة السلطان سليمان القانوني وعبد الحميد الثاني، وها هـم يطعنون في هـارون الرشيد، وقد أرادوا أن يطعنوا في الإسلام وحضارته.

وما أحوج أمتنا الآن إلى رجال عظام أمثال هـارون الرشيد، يعيدون للأمة مجدها وعزتها وحضاراتها، وصدق الشاعر محمود غنيم بقوله:

أين الرشيد وقد طاف الغمام به ... فحين جاوز بغدادًا تحداه؟

مُلْكٌ كمُلك بني التاميز ما غَرَبت ... شمسٌ عليه، ولا برقٌ تخطاه

ماضٍ تعيش على أنقاضه أَمَمٌ ... وتستمدُّ القوى من وحي ذكراه

وختامًا..

لا شك أن هـناك الكثير والكثير مما كان يجب علينا إضافته، ولكن هـذا جهد المقلِّ، عسانا نكون قد وفينا بعض حق الرشيد علينا. وعذرنا أننا بشر، وأعمال البشر لا تصل للكمال بل يعتريها النقصان. ولله در القاضي الفاضل حيث قال: «إني رأيت أن لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غير هـذا كان أحسن، ولو زِيد كذا لكان يستحسن، لو قُدِّم هـذا لكان أفضل، ولو تُرِك هـذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر ودليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[1].

(1) صديق خان القنوجي: أبجد العلوم، ص52.

الملاحق



دينار هــارون الرشيد ضرب بمدينة السلام عام 184هـ



دينار هــارون الرشيد – ضرب عام 184هـ

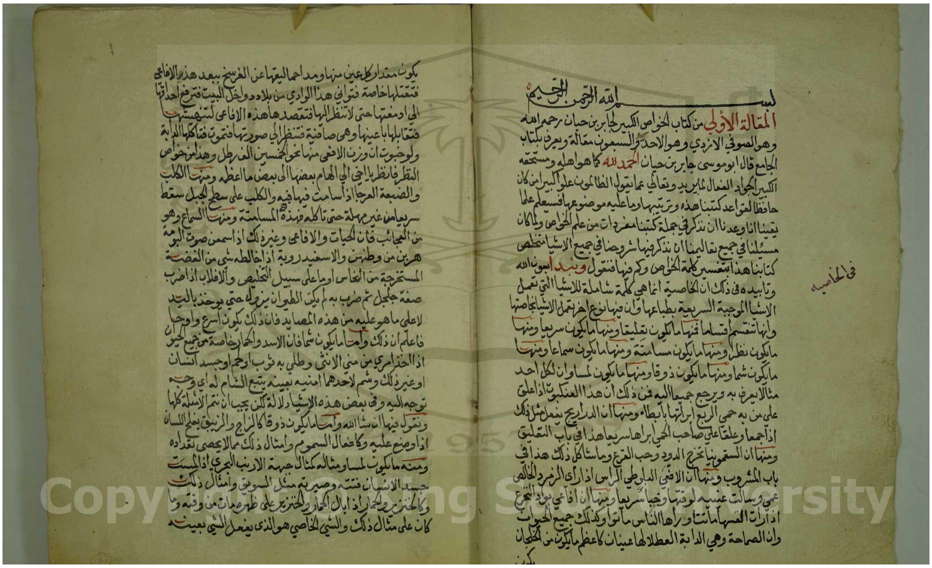


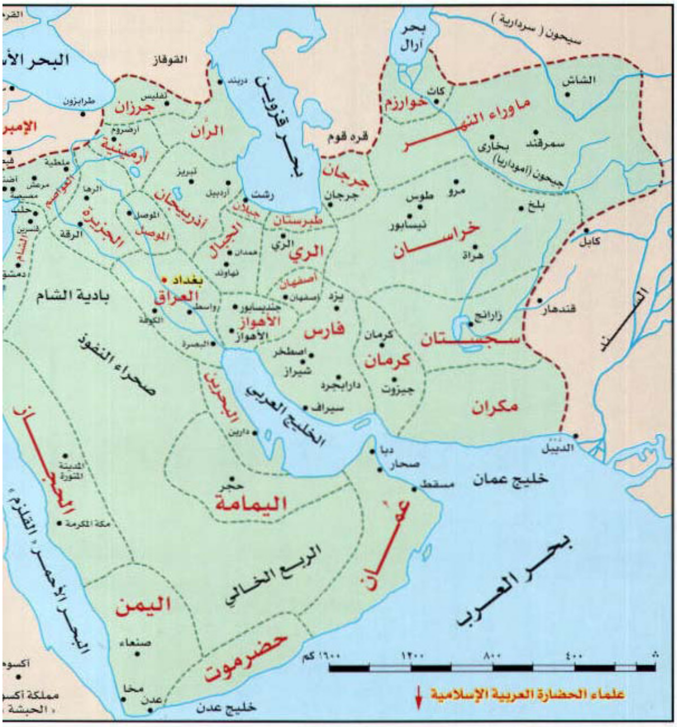
دينار هــارون الرشيد – ضرب بمدينة السلام عام 188هـ

الدول المستقلة عن دولة الرشيد



صفحة من مخطوطة كتاب الخواص الكبير لجابر بن حيان



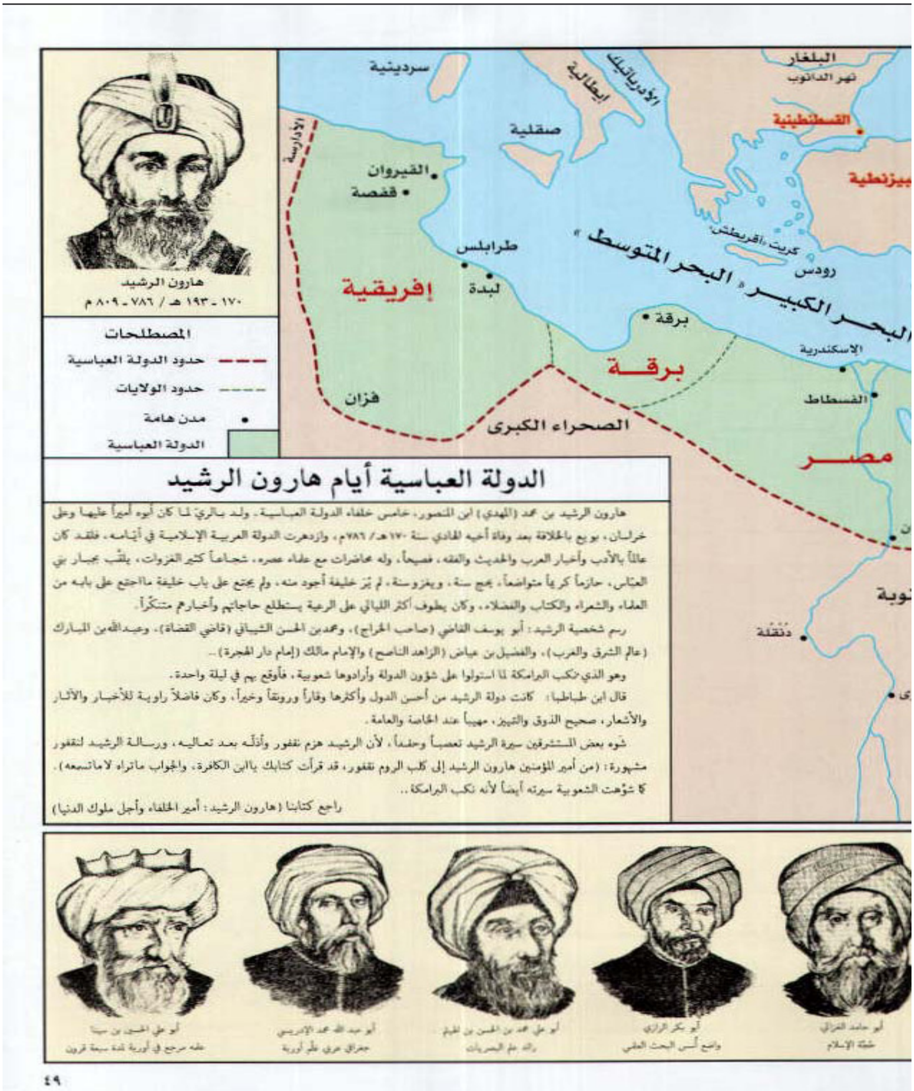


بحر آرال
سيحون (سردارية)
القوقاز
الشاش
خوارزم
ماوراء النهر
سمرقند
بخارى
جيحون (آموداريا)
جرجان
طبرستان
الري
خراسان
نيسابور
طوس
مرو
بلخ
هراة
كابل
قندهار
زارانج
سجستان
السند
أذربيجان
أرمينية
جرزان
الرآن
الجبال
الموصل
الجزيرة
بغداد
العراق
بادية الشام
الأهواز
أصفهان
فارس
شيراز
كرمان
مكران
الديبل
الخليج العربي
البحرين
صحراء النفود
الحجاز
المدينة المنورة
مكة المكرمة
اليمامة
الربع الخالي
عمان
مسقط
صحار
خليج عمان
بحر العرب
اليمن
صنعاء
حضرموت
عدن
خليج عدن
البحر الأحمر « القلزم »
علماء الحضارة العربية الإسلامية



جابر بن حيان الكوفي
عالم تعتز به الإنسانية
محمد بن موسى الخوارزمي
واضع اللوغاريتمات
محمد بن جابر البتاني
رائد في علم الفلك
أبو مروان ابن زهر
تتلمذ عليه ستة أجيال من الأطباء
أبو الريحان البيروني
العالم في رأس حكيم

٤٨



الدولة العباسية أيام هارون الرشيد

هارون الرشيد بن محمد (المهدي) ابن المنصور، خامس خلفاء الدولة العباسية. ولد بالريّ لما كان أبوه أميراً عليها وعلى خراسان، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، وازدهرت الدولة العربية الإسلامية في أيامه، فلقد كان عالماً بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقه، فصيحاً، وله محاضرات مع علماء عصره، شجاعاً كثير الغزوات، يلقّب بجبار بني العباس، حازماً كريماً متواضعاً، يحج سنة، ويغزو سنة، لم يُرَ خليفة أجود منه، ولم يجتمع على باب خليفة مااجتمع على بابه من العلماء والشعراء والكتاب والفضلاء، وكان يطوف أكثر الليالي على الرعية يستطلع حاجاتهم وأخبارهم متنكّراً.

رسم شخصية الرشيد: أبو يوسف القاضي (صاحب الخراج)، ومحمد بن الحسن الشيباني (قاضي القضاة)، وعبدالله بن المبارك (عالم الشرق والغرب)، والفضيل بن عياض (الزاهد الناصح) والإمام مالك (إمام دار الهجرة)..

وهو الذي نكب البرامكة لما استولوا على شؤون الدولة وأرادوها شعوبية، فأوقع بهم في ليلة واحدة.

قال ابن طباطبا: كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وكان فاضلاً راوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيباً عند الخاصة والعامة.

شوّه بعض المستشرقين سيرة الرشيد تعصباً وحقداً، لأن الرشيد هزم نقفور وأذلّه بعد تعاليه، ورسالة الرشيد لنقفور مشهورة: (من أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى كلب الروم نقفور، قد قرأت كتابك ياابن الكافرة، والجواب ماتراه لاماتسمعه). كما شوّهت الشعوبية سيرته أيضاً لأنه نكب البرامكة..

راجع كتابنا (هارون الرشيد: أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا)

أبو حامد الغزالي
حجة الإسلام

أبو بكر الرازي
واضع أسس البحث العلمي

أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم
رائد علم البصريات

أبو عبد الله محمد الإدريسي
جغرافي عربي علّم أوروبة

أبو علي الحسين بن سينا
علمه مرجع في أوروبة لمدة سبعة قرون

٤٩

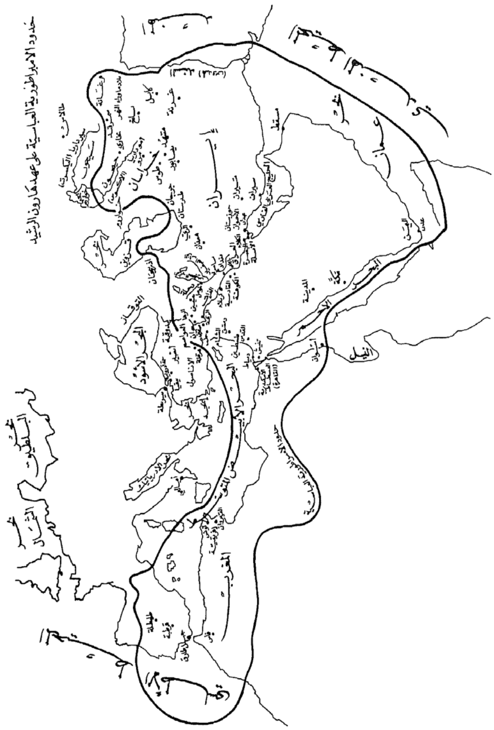
من كتاب الدكتور شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر- دمشق، الطبعة الخامسة 2002م - الإعادة الثانية عشر 2005م، ص48 - 49.



من كتاب الدكتور حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى 1987م، ص149.

الدولة العباسية في عهد هـارون الرشيد (170هـ - 193هـ)





حدود الإمبراطورية العباسية على عهد هـارون الرشيد. من كتاب المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هـارون الرشيد وعصره، ص394.

المصادر والمراجع[1]

أولًا: القرآن الكريم

ثانيًا: الحديث الشريف

1. ابن ماجه: سنن ابن ماجه، شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد - محمَّد كامل قره بللي - عَبد اللّطيف حرز الله، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، 1430هـ - 2009م.
2. أحمد بن حنبل: المسند، شرحه وصنع فهارسه: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الحديث القاهرة، الطبعة: الأولى، 1995م.
3. الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته، الناشر، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة 1988م.
4. البخاري: صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 - 1987م.
5. البيهقي: شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2003م.
6. الترمذي: الجامع الصحيح - سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، الناشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت.
7. النسائي: سنن النسائي الكبرى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري

(1) المصادر والمراجع مرتبة ترتيبا أبجديًا مع تجاهل (أل).

وسيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ- 1991م.

8. مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

ثالثًا: كتب العقيدة

1. الفرق بين الفرق، الناشر: دار الآفاق الجديدة- بيروت، الطبعة: الثانية، 1977م.

كتب الفقه

1. وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثانية - 1985م.
2. ابن القيم: أحكام أهل الذمة، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري - شاكر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادى للنشر - الدمام، الطبعة: الأولى، 1418هـ/ 1997م.

رابعًا: السياسة الشرعية

1. ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م.
2. الماوردي: نصيحة الملوك، تحقيق:الشيخ خضر محمد خضر، الناشر: مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى 1403هـ- 1983م.
3. الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: أحمد مبارك البغدادي، الناشر: دار ابن قتيبة- الكويت، الطبعة: الأولى 1989م.
4. أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان، الطبعة : الثانية ، 1421هـ- 2000م.

5. القاضي أبو يوسف: الخراج، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، سعد حسن محمد، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.

خامسًا: المصادر التاريخية

1. ابن الآبار: الحلة السيراء، الدكتور حسين مؤنس، الناشر: دار المعارف– القاهرة، الطبعة: الثانية، 1985م.

2. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ/ 1997م.

3. ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الخامس (الدرر السنية في أخبار الدولة العباسية)، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، بيروت 1413هـ/ 1992م.

4. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الناشر: قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1992م.

5. ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412هـ – 1992م.

6. ابن حبيب: المحبر، تحقيق: إيلزة ليختن شتيتر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

7. ابن خلدون: المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: مكتبة الأسرة 2006م.

8. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1408هـ – 1988م.

9. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: يحيى زكريا عَبَّارة، من منشورات وزارة الثقافة بسوريا، 1991م.

10. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، الناشر: دار الثقافة، بيروت- لبنان، الطبعة: الثالثة، 1983م.

11. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة: الأولى، 1406هـ - 1986م.

12. ابن العمراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، الناشر: دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2001م.

13. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، اعتنى بطبعه وتصحيحه: محمد محمود الرافعي، مطبعة النيل- مصر 1904م.

14. ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت 1418هـ.

15. ابن قتيبة الدينوري: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: الرابعة، 1981م.

16. ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دارهجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م.

17. ابن مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: أبو القاسم إمامي، الناشر: سروش، طهران، الطبعة: الثانية، 2000م.

18. ابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، الناشر: دار المعرفة بيروت- لبنان، الطبعة: الثانية 1417هـ - 1997م.

19. ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1996م.

20. أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري - محمد الناصري، الناشر: دار الكتاب - الدار البيضاء.

21. أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، الناشر: دار إحياء الكتب العربي، الطبعة: الأولى، 1960م.

22. أبو الفداء الملك المؤيد: المختصر في أخبار البشر، الناشر: المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة: الأولى. بدون تاريخ.

23. البلاذري: فتوح البلدان، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، عام النشر: 1988م.

24. الجاحظ: التاج في أخلاق الملوك، تحقيق: أحمد زكي باشا، الناشر: المطبعة الأميرية- القاهرة، الطبعة: الأولى، 1332هـ - 1914م.

25. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، الناشر: دار القلم، مؤسسة الرسالة- دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، 1397هـ.

26. الذهبي: تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 2003م.

27. السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة: الطبعة الأولى: 1425هـ - 2004م.

28. الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعارف- القاهرة، الطبعة: الثانية - 1966م.

29. القلقشندي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: مطبعة حكومة الكويت- الكويت، الطبعة: الثانية، 1985م.

30. المسعودي: التنبيه والإشراف، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي،

الناشر: دار الصاوي- القاهرة، بدون تاريخ.

31. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اعتنى به وراجعه: كمال حسن مرعي، الناشر: المكتبة العصرية- بيروت، الطبعة: الأولى 1425هـ - 2005م.

32. المقدسي: البدء والتاريخ، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، بدون تاريخ.

33. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: عبد المجيد ترحيني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1424هـ - 2004م.

34. اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1997م.

35. اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، الناشر: المكتبة المرتضوية في النجف، مطبعة الغري- 1358هـ - 1939م.

سادسًا: التراجم والطبقات

1. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت.

2. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر- بيروت، طبع الجزء الأول 1990م، والسابع منه 1994م.

3. ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر- بيروت، الجزء الرابع – الطبعة الأولى 1974م.

4. ابن عبد البر: الانتقاء في فضائل الثلاثة (أبو حنيفة ومالك والشافعي)، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

5. ابن عبد الهادي الصالحي: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقيق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، الناشر:

عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1420هـ/ 2000م.

6. ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر.
7. ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: 1415هـ - 1995م.
8. ابن قتيبة الدينوري: الشعر والشعراء، الناشر: دار الحديث، القاهرة، عام النشر: 1423هـ.
9. ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار النشر: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق- سوريا، الطبعة: الأولى، 1402هـ - 1984م.
10. ابن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الناشر: دار المعارف- القاهرة، الطبعة الثالثة.
11. ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى 1997م.
12. أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، تحقيق: السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
13. أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، 1394هـ - 1974م.
14. إسماعيل باشا الباباني البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، الناشر: طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول 1951م، أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان.
15. الجهشياري: الوزراء والكتاب، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، الناشر:

مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي بمصر، الطبعة: الأولى 1357هـ- 1938م.

16. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ- 2001م.

17. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة، 1405هـ/ 1985م.

18. الزركلي: الأعلام، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو 2002م.

19. السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر:هجر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الثانية، 1413هـ.

20. السمعاني: الأنساب، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد

21. الطبعة: الأولى، 1382هـ/ 1962م.

22. الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث- بيروت1420هـ- 2000م.

23. عبد الحي بن فخر الدين الحسني الطالبي: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، دار النشر: دار ابن حزم - بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 1420هـ.

24. القفطي: أخبار الحكماء بأخيار الحكماء، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى 1426هـ- 2005م.

25. القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1424هـ.

26.الكندي: الولاة والقضاة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة: الأولى، 1424هـ – 2003م.

27.وكيع: أخبار القضاة، صححه وعلق عليه وخرّج أحاديثه: عبد العزيز مصطفى المراغي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، بشارع محمد علي بمصر لصاحبها: مصطفى محمد، الطبعة: الأولى، 1366هـ/ 1947م.

28.ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1414هـ – 1993م.

سابعًا: كتب الأدب والبلاغة

1. ابن الأبار القضاعي: إعتاب الكتاب، تحقيق: صالح الأشتر، الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة: الأولى، 1380هـ – 1961م.

2. ابن سعيد المغربي: المقتطف من أزاهر الطرف، الناشر: شركة أمل، القاهرة 1425هـ.

3. ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1404هـ – 1983م.

4. أبو إسحاق القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، الناشر: دار الجيل، بيروت.

5. أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر، تحقيق: وداد القاضي، الناشر: دار صادر– بيروت، الطبعة: الأولى، 1408هـ – 1988م.

6. أبو سعد الآبى: نثر الدر في المحاضرات، تحقيق: خالد عبد الغني محفوط، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، 1424هـ – 2004م.

7. أبو عبيد البكري: سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، الناشر: دار الكتب

العلمية، بيروت – لبنان.

8. أبو منصور الثعالبي: الإعجاز والإيجاز، الناشر: مكتبة القرآن – القاهرة.

9. أبو هـلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، تحقيق: مروان قباني، الناشر: المكتب الإسلامي– بيروت، الطبعة: الأولى، 1406هـ – 1986م.

10. أبو هـلال العسكري: ديوان المعاني، الناشر: دار الجيل– بيروت، بدون تاريخ.

11. الزجاجي: مجالس العلماء، تحقيق: عبد السلام محمد هـارون، الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة، دار الرفاعي بالرياض، الطبعة: الثانية 1403هـ – 1983م.

12. الزمخشري: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412هـ.

13. الصولي: أدب الكتاب، نسخه وعنى بتصحيحه وتعليق حواشيه: محمد بهجة الأثري، الناشر: المطبعة السلفية – بمصر، المكتبة العربية – ببغداد، عام النشر: 1341هـ.

14. الفتح الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرف، الناشر: عالم الكتب– بيروت، الطبعة: الأولى، 1419هـ.

15. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الناشر: دار الكتب المصرية، 1340هـ – 1922م.

ثامنًا: كتب البلدان والجغرافيا

1. ابن جبير: رحلة ابن جبير، الناشر: دار بيروت للطباعة والنشر – بيروت، الطبعة: الأولى، بدون تاريخ.

2. ابن الفقيه: البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، 1416هـ – 1996م.

3. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - طبع على مطابع دار السراج، الطبعة: الثانية،1980م.

4. الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، الناشر: دار الأندلس للنشر- بيروت.

5. ياقوت الحموي: معجم البلدان، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995م.

تاسعًا: الرقائق والأخلاق والآداب

1. ابن الجوزي: صفة الصفوة، تحقيق: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: 1421هـ/ 2000م.

2. أبو هلال العسكري: الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، تحقيق: مروان قباني، الناشر: المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الأولى، 1406هـ - 1986م.

3. الثعالبي: درر الحكم، الناشر: دار الصحابة- طنطا، الطبعة: الأولى، 1416هـ - 1995م.

4. الماوردي: أدب الدنيا والدين، الناشر: دار مكتبة الحياة، تاريخ النشر: 1986م.

عاشرًا: المراجع الحديثة

1. إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي - السياسي والحضاري، الناشر: الشركة العالمية للكتاب- لبنان، الطبعة: الأولى 1989م.

2. إبراهيم السامرائي - عبد الواحد ذنون طه - ناطق صالح مصلوب: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، الناشر: دار الكتاب الجديد المتحدة -

بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، 2000م.

3. أحمد أمين: هـارون الرشيد، الناشر: دار الهلال، العدد الثالث من كتاب الهلال.

4. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية– الخلافة العباسية، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثامنة 1985م.

5. أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، مؤسسة هـنداوي للتعليم والثقافة 2012م.

6. أحمد فريد رفاعي: عصر المأمون، دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الثانية 1346هـ – 1927م.

7. أحمد القطان ومحمد طاهر الزين: هـارون الرشيد الخليفة المظلوم، الناشر: دار الإيمان بالإسكندرية، الطبعة: الثانية 1409هـ.

8. أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية – بيروت 1972م.

9. أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الإسلامي، الناشر، مكتبة الملك فهد الوطنية، الطبعة الأولى: 1417هـ – 1996م.

10. أمينة البيطار: تاريخ العصر العباسي، منشورات جامعة دمشق، الطبعة الرابعة 1417هـ – 1997م.

11. أنور الرفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه، الناشر: دار الفكر– دمشق، الطبعة: الثالثة 1997م.

12. جميل نخلة المدور: حضارة الإسلام في دار السلام، طبعة: المطبعة الأميرية ببولاق 1936م.

13. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – العصر العباسي الأول، الناشر: دار الجيل (بيروت) ومكتبة

النهضة المصرية (القاهرة)، الطبعة: الربعة عشر 1416هـ - 1996م.

14. حسن أحمد محمود - أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، الطبعة الخامسة. بدون تاريخ.

15. حسين الحاج حسن: النظم الإسلامية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة: الأولى 1406هـ - 1987م.

16. حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى 1987م.

17. حسين مؤنس: تنقية أصول التاريخ الإسلامي، الناشر: دار الرشاد، الطبعة: الأولى 1417هـ - 1997م.

18. راغب السرجاني: العلم وبناء الأمم، الناشر: مؤسسة اقرأ، الطبعة: الرابعة 2007م.

19. راغب السرجاني: ماذا قدم المسلمون للعالم، الناشر: مؤسسة اقرأ، الطبعة: الأولى 2009م.

20. سالم عبد الله الخلف: نظم حكم الأمويين ورسومهم في الأندلس، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى 1424هـ/ 2003م.

21. سليمان عبد الغني مالكي: مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة حتى سقوط الخلافة العباسية، مطبوعات دار الملك عبد العزيز، الرياض 1408هـ - 1987م.

22. الشيخ زهير الكبي: موسوعة خلفاء المسلمين، الناشر: دار الفكر العربي - بيروت، الطبعة: الأولى 1994م.

23. السيد عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب، العصر العباسي الأول، الناشر: مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية- 1993م.

24. شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر - دمشق، الطبعة الخامسة 2002م - الإعادة الثانية عشرة 2005م.

25. شوقي أبو خليل: هـارون الرشيد أمير الخلفاء وأجل ملوك الدنيا، دار الفكر (دمشق)، الطبعة: الرابعة 1999م.

26. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الناشر: دار المعارف بمصر، الطبعة: الثانية عشرة.

27. صديق خان القنوجي: أبجد العلوم، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الطبعة الأولى 1423هـ - 2002م.

28. طه عبد المقصود: موجز عن الفتوحات الإسلامية، الناشر: دار النشر للجامعات- القاهرة.

29. عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب- مكتبة الأسرة 2012م، الطبعة: الخامسة 1973م.

30. عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تحقيق: عبد الله الخالدي، الناشر: دار الأرقم - بيروت، الطبعة: الثانية.

31. عبد السلام هـارون: تحقيق النصوص ونشرها، الناشر: مكتبة السنة، الطبعة: الخامسة 1410هـ.

32. عبد الشافي محمد عبد اللطيف: السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، الناشر: دار السلام - القاهرة، الطبعة: الأولى - 1428هـ.

33. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، الناشر: دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة - فبراير 1997م.

34. عصام الدين الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة نهضة الشرق 1984م.

35. علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام - الدولة العباسية، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة: الثالثة 1963م.

36. علي الطنطاوي: رجال من التاريخ، دار المنارة - جدة، الطبعة الثامنة 1411هـ - 1990م.

37. فاضل أحمد الطائي: موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، علم الكيمياء عند العرب، الناشر: دار الفارس للنشر والتوزيع- بيروت، الطبعة: الأولى 1995م.

38. فيليب حتى: العرب تاريخ موجز، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: السادسة - يوليو 1991م.

39. الشيخ محمد الخضري بك: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - الدولة العباسية، تحقيق: الشيخ محمد العثماني، الناشر: دار القلم- بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1406هـ - 1986م.

40. محمد رجب البيومي: هارون الرشيد الخليفة العالم والفارس المجاهد، الناشر: دار القلم - دمشق، الطبعة: الأولى 2000م.

41. محمد الزحيلي: تاريخ القضاء في الإسلام، الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق، الطبعة: الأولى 1995م.

42. محمد ضيف الله بطاينة: الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي ودار الطارق - الأردن.

43. محمد عبد الحفيظ المناصير: الجيش في العصر العباسي، الناشر:دار مجدلاوي للنشر - عمان - الأردن، الطبعة: الأولى 1420هـ - 2000م.

44. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الناشر: مكتبة الخانجي،

القاهرة، الطبعة الرابعة، 1417هـ - 1997م.

45. محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: الثالثة 1968م.

46. محمد محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية 1994م.

47. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي - الأقليات الإسلامية، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية 1995م.

48. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي - الدولة العباسية، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الخامسة 1411هـ - 1991م.

49. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي - المسلمون في الإمبراطورية الروسية، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية 1414هـ - 1994م.

50. مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشرة آب/ أغسطس 2004م.

51. مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 2000م.

أحد عشر: كتب المستشرقين

1. المؤرخ الفرنسي أندري كلو: هارون الرشيد وعصره، تعريب وتعليق: محمد الرزقي، سراس للنشر - تونس 1997م.

2. توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية 1971م.

3. ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين، الناشر: دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - تونس، تاريخ النشر: 1408هـ - 1988م.

اثنا عشر: الموسوعات

1. سعدي ضناوي: موسوعة هـارون الرشيد، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الأولى 2001م.
2. موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي.

ثلاث عشر: المجلات العلمية

1. دريد عبد القادر نوري: الشرطة في العراق خلال العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، السنة الثانية عشرة - العدد 29- 1986م.
2. د. سميعة عزيز محمود: القائد العباسي هـرثمة بن أعين ودوره السياسي والعسكري في العصر العباسي الأول، جامعة ديالي، كلية التربية الأساسية، مجلة الفتح، المجلد - العدد 36، أكتوبر 2008م.
3. صلاح الشهاوي: الخليفة المجاهد العابد هـارون الرشيد، مجلة حراء الإلكترونية، 21 آذار/ مارس 2012م.
4. عبد الباسط عبد الرزاق الألوسي، عثمان عبد العزيز صالح المحمدي: من روائع الحضارة الإسلامية بيت الحكمة أنموذجًا: دراسة تاريخية. مجلة ديالي 2009م .. الإصدار (34).
5. فايزة إسماعيل أكبر: وزراء العصر العباسي الأول، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثامن - المجلد الأول - مارس 2000م.
6. محمد السيد المويلحي: الموسيقى في الإسلام، مجلة الرسالة، العدد 297، بتاريخ: 13 مارس 1939م.
7. محمد مصطفى المجذوب: جولة في كتابي (الأغاني) و (السيف اليماني)، الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد 185، السنة الثانية والعشرون - والخامسة والعشرون - المحرم 1410هـ ذو الحجة 1413هـ/ 1989م - 1992م.

أربع عشر: المقالات التاريخية

1. بيت الحكمة في بغداد.. رمز للحوار بين الحضارات، مجلة بيت العرب – تصدرها بعثة جامعة الدول العربية بجمهورية الصين الشعبية– العدد 47. لسنة 2004م. موقع البعثة على شبكة الإنترنت.
2. محمد فياض الفياض: حرفة المحتسب في العصر العباسي، مجلة الباحثون – العدد 68 فبراير 2013م.

فهرس المحتويات

الباب الأول: السياسة الداخلية